

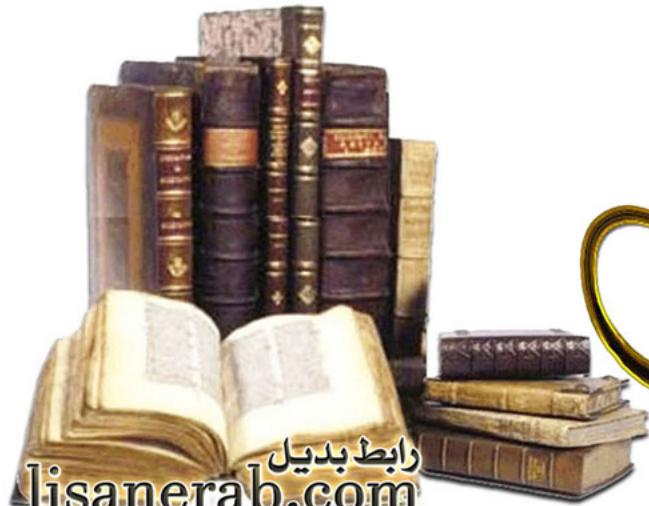
٤٥

المؤسسة الجامعية للإنسان؛ النشر والتوزيع

الدكتور حسين الحاج حسن

أدب العرب في صدر الإسلام

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com
رابط بديل



مَكْتَبَةُ لِسَانُ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

رابط بديل
lisanerab.com

www.lisanarb.com



twitter

مكتبة لسان العرب



facebook

مكتبة لسان العرب



instagram

مكتبة لسان العرب



مكتبة لسان العرب



لسان العرب

الدكتور حسين الحاج حسن

أدب العرب

في صدر الإسلام



جمع المتنوّع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٢ - ١٩٩٢ م



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمرا - شارع اميل اده - بناية سلام
 هاتف: ٨٠٣٦٧٨ - ٨٠٣٤٠٧ - ٨٠٣٢٩٦
 بيروت - المصيطبة - بناية طلعت حرب - هاتف: ٣١١٣١٠ - ٣٠١٣٠
 ص.ب. ٦٣١١ - ٦٣١٢ - ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ - لبنان

الإهداء

إلى ابنتي رب

في يوم عقد قرانك المبارك بإذن الله
أقدم لك هذا الكتاب ،
أملأ لشجرة حبك أن تنمو وتزهر وتشمر
« وتساقطُ عليكِ رُطبًا جَيْنًا »

المؤلف





مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com

رابط بديل

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

تَصْدِير

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، محمد المصطفى أفضح العرب ، وحججه البلاغة والأدب ، أدبه ربه فاحسن تاديه ، وأجرى جوامع الكلم على لسانه فأرسل بداع الحکم وروائع البيان من أجل مصالح ورقى أفضل إنسان . لقد جعل سبحانه الإسلام دين حضارة إنسانية سلیمة ترتفقى إلى مجد الإنسان في دار الابلاء ثم في دار البقاء .

وبعد : أقدم لقراء الأدب العربي كتابي هذا « أدب العرب في صدر الإسلام » يتناول عصرًا من أزهى وأنضر عهود الأدب لم يشهد له التاريخ مثيلاً ، ولم تر الدوحة الأدبية له نظيراً . كان عصر صدر الإسلام فخر الإنسان وربيع الزمان ، وكان درة في تاريخ البشر عامة وفي تاريخ العرب خاصة ، ماله في حياتهم من عظيم الخبر وجليل الأثر .

عصر وما أجمله من عصر أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ظلمات الجاهلية البغيضة والقبلية الضيقة والعصبية المريضة ، فمشت تتبه بجلالة الأيام ، واستظل جميع الناس بظله بخير وعدل وسلام .

عصر وما أعظمه في مقاييس الزمن الحضارية يتقلل الإنسان في رحابه من مجد إلى مجد إلى نصر ، يضيء طريقه الدين القويم وتهديه إلى غاياته الشريعة القوية العادلة ، يتطلع أبداً إلى أعظم مثل الحياة الحرة الكريمة ، وينهض دائمًا الفضائل الخيرة والقيم النبيلة ، يفجر له بنابيع الخير وهي يتزل من السماء ، وكتاب مجید تهز ببلاغته وسحره أرجاء الصحراء .

عصر ما أفضله من عصر ازدهى بنزول القرآن الكريم ، معجزة من معجزات الخالق الأكرم وآية من آيات صدق الرسول العربي الأعظم .

ماذا يمكن أن أقول عن أدب عصر الرسالة والرسول ، وعصر الوحي الموصول ، وعصر الفرقان الكريم والحديث العظيم ، فسبحان الله أحكم الحاكمين والحمد لله رب العالمين .

كل ما يمكنني قوله عن هذه الدراسات التي يضمها هذا الكتاب أنني قد جعلت مرجعى كتاب الله وسنة رسوله نستشف منها كل ما نستطيع من رحيق الخير والحق ، ونستظل بما فيها من عدل وصواب وحسبي هذه الكلمات القليلة فهي بالعجز أنطق ، ومن فجر الإسلام تشرق وتتدفق .

رب ارزقني العلم الصحيح ، والعمل الصالح ، والإخلاص في القول والعمل ، واجعلني من الهدى والمهدىين ، ولا تجعلني من الضالين المضللين ، فأنت وحدك تلهمتنا الرشد والحق ، ومنك وحدك نهتدي سواء السبيل . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المؤلف



تمهيد

تخضع لغة كل أمة لنوميس الوجود ، وتنعاورها ألوان شتى من ظواهر الحياة فمن ضعف وركود إلى حركة وصعود ، ومن انتكاس وانهيار إلى تقدم وازدهار . وقد يطوف بها أحداث كثيرة وعواصف جسيمة فيخيم عليها شبح الموت ويسلط عليها سلطان الفناء ، وقد تواثبها الظروف المناسبة وأسباب الحياة النامية وعنابر القوة والنهاء .

في جميع هذه الحالات اللغة هي ترجمان القلوب ، والأدب هو مرآة النفوس والأدلة المعبرة عنها تنطوي عليه الضمائر ، وما تكتبه الخواطر .

واللغة العربية تأثرت أعمق تأثير بالإسلام الذي بدل كل شيء قديم ، وقلب الحياة العربية رأساً على عقب ، فحملها أعباء جديدة وناظم بها رسالة مجيدة فانطلقت تؤديها باستجابة وصبر ، ومضت تنهض بها في سماحة ويسر نحو حياة أكمل وأشمل وأفضل ، متشحة برداء القوة وعنوان العظمة ، ووشاح التقدير والجلال . بزغ نور العصر الثاني من عصور الأدب العربي ببعثة النبي الأكرم محمد بن عبد الله (ص) بمكة المكرمة عندما دعا العرب خاصة والناس كافة إلى الدخول في الدين الحنيف ، الإسلام عام 610 م وقد امتد ما بعد ذلك من عهد الرسول بمكة والمدينة^(١) حتى انتهاء الخلفاء الراشدين وقيام دولة بنى أمية عام 41 هـ .

هذا العصر القصير بعده والعظيم بفائدة هو من أفضل العصور في التاريخ الإسلامي ، وأكثرها أثراً في حياة العرب والمسلمين ففيه بدأت الدعوة الإسلامية الظاهرة ، وانتشر دين البشرية الخالدة لينقذ الناس من ضلال الجهل والسفه والإستعباد

(١) هاجر (ص) إلى المدينة فدخلها يوم الاثنين لاثني عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول وكان له من العمر ثلاث وخمسون سنة .

الفكري والجسدي والإجتماعي ، ويهديهم بواسطة الأمين (ص) إلى شاطئ الأمن والسلام ، والحرية ، والمساواة ، والعدالة .

ومن أولى من محمد ، خاتم النبيين والرسل بأن يرفع منارة السلام وراية الحضارة في العالم ، وأن يصل الأرض بالسماء ؟ لقد سعى (ص) بكل ما أعطاه ربه عز وجل من قوة وصبر وحكمة بتبلیغ الرسالة الإنسانية التي أثمرت حياة زاهرة هادئة مطمئنة فيها الأمن والأمل والحرية .

ناهيك به بعد ذلك ، إنه عصر نبه فيه شأن الأدب فاكتسى حلقة جديدة جميلة ، وازهرت فيه اللغة العربية فلبست ثوباً قثيماً وتمت السيادة للسان العربي في شتى الأقطار والأمصار .

والشعراء والأدباء الذين نشأوا في ظل الإسلام وتآدبوا بآدابه ، ونهلوا من معينه ، فقد تأثروا بالعوامل الجديدة والمتغيرات التي نشأت مع الحياة الإسلامية ، هؤلاء إسلاميون ، ببرتهم بلاغة القرآن الكريم وفصاحته .

وفريق آخر شهد هذا العصر العظيم ولم يتجردوا من ماضيهم وقد ساهم النقاد : المخضرمين . جاء في العمدة لابن رشيق القيرواني : « طبقات الشعراء أربع : جاهلي ، ومخضرم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، ومحدث .. ثم صار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدرج ، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا الحاضر .. »⁽²⁾ .

فاجاهيليون هم الذين نشأوا في جزيرة العرب قبل الإسلام من الشعراء والأدباء وأرباب الفصاحة والبيان .

وأما المخضرمون ⁽³⁾ فهم الذين عاشوا قسماً من حياتهم في الجاهلية ثم أدركوا الإسلام وقد شاع في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين فكرة خاطئة تقول : إن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل في أشعار المخضرمين .. ولا شك أنه زعم غير صائب فقد

(2) العمدة لابن رشيق ص 72 .

(3) يقال أذن مخضرمة أي مقطوعة ، فكان الشاعر انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام . وقيل : أسلم قوم في الجاهلية على ابل فقطعوا آذانها فسمى كل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرماً . وقال الأخشن : هو من قوله ما مخضرم إذا تناهى في الكثرة والسبة فمه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلام غضراً كأنه استوفى الأمرين . المزهري 2 ص 304 .

وحكى شاعر مخضرم بالباء مأخذة من المخدرمة وهي الخلطة ، لأنه خلط الجاهلية والإسلام . المزهري 2 ص 305 والعمدة ج 1 ص 173 .

تجاوز الحق وأسرف كثيراً . والحقيقة أن الله تبارك وتعالى قد أتم على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله فعاشوا الإسلام عقيدة راسخة في ضمائرهم ، عاشوا به وله وعملوا على نشر نوره في أصقاع الأرض يصدرون عنه في أشعارهم وينشرون مبادئه مؤمنين مطيعين .

وكذلك صدروا عنه في نثرهم فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر على هدي القرآن الكريم ، كما أنشأوا لواناً من المعاهدات التشريعية ، والسياسية ، والإدارية والاجتماعية .



الفصل الأول

ما الغاية من قيام دولة إسلامية ؟

قبل الحديث عن قيام الدولة الإسلامية لا بد لنا من كلمة موجزة عن حدود الله التي رسمها الله عز وجل في القرآن الكريم ، الدستور الإلهي الإنساني لكل إنسان في كل زمان ومكان .

في الدولة الإسلامية لا يستطيع الإنسان أن يكون شارعاً لنفسه وبنفسه ، لأنه إن نجا من شرور عبودية السلاطين والحكام ، فلا يمكن أن يتخلص من تعبد شهوات الجاهلية والإسلام لنزوات الشيطان الكامن في نفسه والذي يوسوس في صدره .

ونظراً للغرض الإنساني الأسمى قيد الله تعالى الحدود البشرية بقيود تسمى في لغة الإسلام « حدود الله » .

هذه الحدود تشتمل على عدد من الأصول والمبادئ والأحكام القطعية ، لتكون الحياة الإنسانية قائمة على الحق والعدل ، لا تحييد عنه قيد أهلها ، ولا تزعزع عنه أبداً .

نعم يجوز للبشر أن يضعوا قوانين فرعية أو أنظمة ضمن حدود الله لما يعرض لهم من حوادث ومشاكل ، أما إذا تعدوها فلا بد أن يختل نظام المجتمع البشري اختلالاً كاملاً .

ولنأخذ أمثلة واقعية موضحة ، ونضرب مثلاً :

الحياة الاقتصادية : فالله تعالى قد ذكر لها حدوداً معلومة في كتابه العزيز ، وهي إثبات حق الملكية الفردية ، والأمر باداء الزكاة وحرم الربا والميسر والإحتكار ، وقانون الإرث ، وجمع المال وإنفاقه بقيود معلومة . . .

فإن راعى الإنسان المسلم هذه الحدود وحافظ عليها ، وسير حياته الاقتصادية

ضمن دائرة امتنعت أي طبقة من التسلط على الطبقات الأخرى ، كما حدث عند الرأسمالية الغاشمة . Capitalism

وكذلك الحياة العائلية : فلا يمكن أن يترك الرجل على غاربه بالنسبة للمرأة والبنات والإبن فالله سبحانه وتعالى وضع قيوداً لكل ذلك فقيد المرأة بالحجاب الشرعي وقوامية الرجل ؛ كما وضع أحكام الطلاق والخلع ، وحكم تعدد الزوجات ، والزنا . . .
لقد بينَ سبحانه كل ذلك ليحد حياة الأسرة بحدود حكمة ملائمة للفطرة البشرية .

فإن تمسك المسلم بهذه الحدود وعمل بها ضمن إطار أسرته تحول البيت إلى جنة يخيم فيه السرور ويرتع في رحابه الجناء ؛ وإنما عمت الفوضى والحرية الشيطانية لنساء العصر الحديث ، وجعلت الشياطين تبيض وتفرخ على هواها ، والسلام العالمي يهدد بالخطر ، والأمن الإنساني ينذر بالإنقضاء .

كذلك بين الله في كتابه العزيز حدود الحضارة الإنسانية : وحياة البشر الاجتماعية كالقصاص في القتل ، وقطع اليد في السرقة وحرمة الخمر ، وحدود الستر للعورة ، وغير ذلك من الأصول الثابتة ، وذلك ليسد كل منافذ الشر وكل أبواب الفساد ولا يجعل لها أي مجال للتخييب والأذى والإساءة .

ونوجز القول في حدود الله التي لها أهمية عظيمة وتأثير كبير في إقامة الحياة الإنسانية على الحق والعدل والإنصاف .

ولكن الذي أريد بيانه : أن الله سبحانه وتعالى قد رزق الإنسان هذه الحدود لتكون له نظاماً كاملاً ودستوراً مستقلأً جاماً لا يقبل التبديل والتغيير أبداً . وعليه وبه ينبع النوع البشري طريقاً مستيناً واضحاً وصراطاً مستقيماً لا عوج فيه .

كل ذلك عبء من الله لعباده حتى لا يضلوا فيقعوا في مهاوي الحياة ومزالقها لجهلهم وضعفهم وتهاوئهم ، وحتى لا تضيع قوتهم وسعدهم في الطرق الشيطانية المضللة .

هذه الحدود الإلهية هي أشبه بالإشارات الضوئية والأسلاك الحديدية المنصوبة على جانبي الطريق حتى لا يقع المسافرون في المخاطر وتزل بهم أقدامهم في المهاوي السحيقة الخطيرة .

فالحدود الإلهية في الإسلام تعين وتهدي لسير الحياة البشرية وجهة الحق

الصحيح ، وتستهدي بها الناس في كل مفترق للطرق والمنعطفات إلى طريق الأمان والسلام ، وتحوّلهم عن جميع التوجهات المنحرفة التي تحط من كرامتهم وتربك حياتهم بالماسي والمصائب . هذا الدستور الاهلي لا يقبل التبديل والتعديل والتغيير ، فهو دستور اهلي سرمدي ، كتب له أن يبقى ثابتاً إلى يوم القيمة والدولة الإسلامية يؤسس بنيانها على هذا الدستور ، من هنا كان القول المأثور : القرآن شريعة المجتمع .

وما دام كتاب الله وسنة رسوله باقين في العالم فلا يمكن تحويل مادة من قوانينه عن مكانها . ومن كان يريد أن يعيش مسلماً مؤمناً فإنه محتم عليه اتباع هذا الدستور والإلتزام بحدوده والإستمساك به إلى يوم الدين . والله ولي التوفيق .

وبعد هذا التوضيح الموجز لحدود الله
فما غاية قيام الدولة الإسلامية في العالم ؟

لقد صرخ القرآن الكريم عن هذه الدولة الإسلامية وذكر الغاية التي من أجلها أمست لتشمل العالم كله .

قال تعالى في سورة الحديد : آية 25 : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًاٰ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ .

فالمراد بالحديد في الآية الكريمة هو القوة السياسية ، أي قوة السلطان الذي يمنع بعض الناس من بعض . كما بينت الغاية التي أرسلت الرسل من أجله وهو أن الله قد أراد ببعضهم أن يقيم في العالم نظام « العدالة الاجتماعية » على أساس ما أنزله عليهم من البيانات التي تبرهن وتوضح ؛ ثم ما أنعم عليهم في كتابه العزيز من الميزان . أي نظام الحياة الإنسانية العادل . لأن لا بد لكل عمل أو قول أو تقرير من ميزان يقاس عليه وتعرف قيم الأمور بواسطته .

وجاء في سورة الحج آية 41 : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا^١
الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

وهناك آيات أخرى مماثلة يتضح لنا منها جماعتها أن الغاية التي يبغيها القرآن من قيام دولة ، هي غاية إيجابية وليس غاية سلبية أبداً . إن هدفها الأساسي الأسنى هو قيام نظام عدالة إجتماعية تسود العالم كله . لذلك دعا الإسلام المسلمين في كافة أنحاء الأرض المؤمنين برسالته السمحاء العادلة ، إلى التمسك بالفضائل التي ذكرها القرآن

الكريم ، والنبي عن جميع أنواع المنكرات التي ندد بها الله في آياته الكريمة . وبذلك تجثت شجرة الشر من جذورها ، ويعم الخير المرضي عند الله والمبين عنه في كتابه العزيز .

ولتحقيق هذا الغرض النبيل لا بد من استعمال قوة سياسية تسوس الناس بالعدل وتدير أمور الدولة بحكمة وعدالة وحزم حسبما ينص النظام الاهلي .

ويمكن الإستفادة لهذا الموضوع من وسائل التربية والتعليم تارة ومن منابر الدعوة والتبلیغ العام طوراً ، ومن تعبئة الرأي العام والنبوذ الاجتماعي حسبما تقتضي الظروف والأحوال .

إن مثل هذه الدولة تكون دائرة عملها شاملة عبطة بالحياة الإنسانية بأسرها تطبع كل فرع من فروع الحياة الإنسانية بطابعها الخاص ويرنامجها الإصلاحي الخاص ، وليس لأحد أن يستثنى أمراً لأسباب شخصية .

وبصورة عامة يمكن القول : إن الدولة الإسلامية تحيط بالحياة الإنسانية بكل فرع من فروع الحضارة وفق نظريتها الأخلاقية ويرنامجها الإصلاحي ، بعيداً كل البعد عن أثر السيطرة ، أو سلب الحرية ، أو الزعامة المطلقة .

وما يلاحظ أن الإعتدال الكامل الذي يوجد في نظام الحكومة الإسلامية والخطوط الدقيقة والعميقة التي خطتها بين الحق والباطل ، وحدود الله التي وضعت في القرآن الكريم ، كلها معاً تشهد عند أصحاب العقول النيرة ، والبصائر الفذة ، أن مثل هذا النظام الصالح والثابت ليس من صنع البشر وإنما هو من صنع الله الخير الحكيم .

وأن يحسن بنا أن نقول كلمة موجزة في :

هيئه الدولة الإسلامية ونموذج بنائها .

الحاكم الحقيقي في الإسلام هو الله وحده جل جلاله ، والذين يتولون أمر تنفيذ القانون الاهلي على الأرض هم خلفاء وليسوا حكاماً . و موقفهم هذا لا يكون إلا ك موقف النواب عن الحاكم الحقيقي ، وهذا هو موقف أولى الأمر في الإسلام بعينه .

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْلَفُوكُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْتُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ... ﴾ (النور : ٥٥) .

يوضح لنا الله تعالى في هذه الآية عدة أمور أهمها :

(أ) - أن الإسلام يستعمل دائياً لفظة خلافة بدل لفظة حاكمة . وإذا كانت الحاكمة لله خاصة وكل من قام بالحكم في الأرض منفذًا الدستور الإسلامي يكون خليفة ، ولا يتولى إلا ما وله المستخلف ، أي الحاكم الأعلى نيابة عنه .

(ب) - والأمر الثاني العظيم في هذه الآية الكريمة ، أن الله قد وعد جميع المؤمنين عامة بالإستخلاف ، ولم يقل إنه يستخلف أحداً منهم دون غيره فالمؤمنون كلهم خلفاء الله ، وهذه الخلافة التي أوتها لا يستبدل بها فرد أو أسرة أو طبقة ، بل كل مؤمن خليفة عن الله ، وكل عبد من عباد الله مسؤول أمام ربه من حيث كونه خليفة . جاء في الحديث الشريف : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته ... » .

فليس لأحد من فضل على آخر إلا بقدار عمله الصالح وتنفيذها أوامر الله والإلتزام بحدوده التي وضعها في كتابه العزيز .

نتائج الخلافة العمومية

إذا ما أنعمنا النظر في مبدأ هذه الخلافة العمومية ظهرت لنا النتائج التالية :

(أ) - إن مجتمعاً يكون فيه كل عضو منه خليفة لا يمكن أن يتربى إليه فساد التفريق بين الطبقات ، ولا يمكن أن تسيطر فيه الإمكانيات والقرابات وأصحاب الوجاهات . بل كل أفراده سواسية لا فضل لأحد على آخر إلا تقواه الله ومواهبه الشخصية وسجاياه الذاتية . وهذه هي الحقيقة التي بينها رسول الله (ص) مراراً في عدة أحاديث . جاء عنه (ص) : « ليس لأحد فضل على أحد إلا بدين أو تقوى ، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى »^(١) .

وبعد فتح مكة لما دخلت بلاد العرب كلها في الإسلام قال النبي المصطفى لعشيرته :

« يا مغثرة قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجahالية وتعظمها بالأباء ، أيها الناس : كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فخر للأنساب ، لا فضل للعربي على العجمي ، ولا للعجمي على العربي ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »^(٢) .

إن الميزان الأساسي في التقويم الإسلامي « التقي » فالكريم عند الله هو التقي

(١) المسند لابن حنبل . والتقوى هي من الوقاية ، الوقاية من الشرور والتحصن بالدين الحصين .

(٢) راجع صحيح البخاري والأية الكريمة الحجرات 13 .

المحصن بحدود الله تحصناً كاملاً ، وليس العشيرة ولا القبيلة ، ولا الحسب ،
ولا النسب ، بل أكرم الناس أنقاهم .

(ب) - وفي مثل هذا المجتمع الإسلامي لا تقف مسألة النسل أو نوع الحرفة أو
المنزلة الإجتماعية ، عقبة بين الفرد أو الجماعة وبين مواهبهم الشخصية وتنمية سجاياهم
الفردية وملكياتهم الخاصة المستودعة في نفوسهم بل يحق لكل فرد دخول في حوزة الدولة
الإسلامية ، أن يترقى إلى ما شاء الله ، وإلى ما أتاه الله من قوة ذاتية واستعداد خاص ،
من غير أن يمنع الآخرين من التقدم والترقي درجة أو درجات في السلم الإجتماعي . وإذا
راجعنا التاريخ الإسلامي وجدنا الموالى وأبناءهم قد نصبوا ولاة على الأقاليم ، وترقوا إلى
رتبة القيادة في الجيش ، وقد نفذت أوامرهم واتبعهم رؤساء البيوتات الشريفة والعشائر
الكبيرة ، فعاشوا تحت ولايتهم طائعين غير كارهين ، لأن غاياتهم القضية وليس المصلحة
الشخصية كما نجد كثيراً من كان يخصف النعال أصبحوا أئمة في الناس . وكذلك
البازون والناساجون وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن ، قد تبؤوا مناصب إدارية عالية
كالقضاء والإفتاء . . .

وهؤلاء كلهم يعدون اليوم من شيوخ الإسلام والسلف الصالح جاء في الحديث
الشريف قوله (ص) : « اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي »⁽³⁾ .

وهذا هو لعمري أرقى مجتمع حضاري وصفه علماء الإجتماع . قال أووجست
كونت العالم الفرنسي الإجتماعي المعروف : « يعطي الإنسان في مجتمع متحضر مكانته
الإجتماعية حسب كفاياته العلمية ومهاراته الذاتية »⁽⁴⁾ وهو ما نادى به الإسلام وطبقه في
الإدارة الإسلامية .

(ج) - وفي هذا المجتمع الإسلامي لا أثرة ولا استثار :

فلا يكون لفرد أو طائفة منها كبرت أن تستبد بالحكم أو تتصرف تصرفاً
ديكتاتورياً ، كما لا يجوز لها أن تنتزع حق الخلافة من جمهور المسلمين وتنصب من بين
أفرادها واحداً يسيطر على عامة المسلمين والذي يتولى هذا المنصب ، الخلافة ، في
الإسلام ، إن جمهور المسلمين قد فوضوا خلافتهم إلى رجل منهم وجعلوها مركزة في ذاته
لتنفيذ الأحكام ، وتيسير أمور الناس بيسر وسهولة ، وذلك عن رضى منهم وقناعة تامة .

(3) صحيح البخاري .

(4) راجع علم الاجتماع الادبي للمؤلف الفصل الأول .

وال الخليفة هذا هو مسؤول عند الله عز وجل في جانب وفي جانب آخر مسؤول أيضاً عند عامة المسلمين الذين فوضوا إليه أمر الخلافة . فإن استبد بالأمر وتصرف بأسلوب ديكاتوري ، فيعتبر غاصباً وليس بخليفة ، وإذا تمادى في سلطه يعزل من قبل الجمهور الإسلامي ويعين بدليلاً منه .

فال الخليفة في الإسلام ليس له أن يتخذ خطة التقيد الإجتماعي (Regimentation) من تلقاء نفسه معرضاً عن التعاليم والبيانات المنصوص عنها في كتاب الله ، كما ليس له أن يقهر الناس على اختيار حرفة دون أخرى ، أو فن دون فن آخر ، أو تعليم أولادهم نوعاً من العلوم دون العلوم الأخرى . الإسلام لم يخول الخليفة تلك السلطة المطلقة التي استبد بها الطواغيت المسيطرة (Dictators) في روسيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا وتركيا ، التي استخدمها (أتاتورك) وتنعم بها على هواه ورغباته .

ونقطة هامة أخرى في الإسلام وهي أنه لا يجوز للمسلم أن يسكت عن خطأ يراه أو ظلم تفشي في مجتمعه لأن كل فرد من أفراد المسلمين مسؤول عند الله بصفته الفردية ، لا يشاركه فيها أحد غيره . لذلك كان لا بد أن يعطى كل فرد حرية تامة في حدود القانون ليختار ما يشاء من خطة ، ويستعمل طاقته لإظهار فيها تمثيل إليه نفسه من صناعة أو حرفة أو علم .

من أجل ذلك لم نجد أثراً من أمثل التقيد الإجتماعي⁽⁵⁾ في عهد النبي (ص) وفي عهد خلفائه الراشدين المهددين .

(د) - وفي مثل هذا المجتمع يحق لكل فرد إذا كان عاقلاً وبالغاً أن يكون له رأي في مصير الدولة وأن يشارك في قيامها ، لأنه منع عليه بنصيبيه من الخلافة العمومية ، المشروطة بالإيمان والعمل الصالح فحسب ، فالمسلمون جميعهم سواسية في حق التصويت وإبداء الرأي ، وهذا لعمري متنه الحرية الشخصية في الدول الحضارية الراقية .

ومن هنا كان التوافق بين الفردية والإجتماعية في المجتمع الإسلامي .
لقد سد الإسلام تماماً باب الفردية المدamaة للإجتماعية فلا تضييع في النظام

(5) التقيد الإجتماعي اضططاع عليه في البلدان التي كانت قد استبدت بأمرها واستخدمت الحكم الديكتاتوري كألمانيا وإيطاليا وتركيا ومعناه أن يقييد سكان البلاد جميعهم بقيود من قوانين الحكومة في جميع نواحي حياتهم الإجتماعية والاقتصادية والسياسية .

الإسلامي شخصية الفرد كما كانت الحالة في النظام الشيوعي وفي النظام الفاشي ، أو كما كانت الحالة في العصر الجاهلي الذي وصفه أحد الشعراء بقوله :

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَرْبَةٍ إِنْ غَوْتُ
غَوْيَتْ وَإِنْ تَرْشِدْ غَرْبَةً أَرْشَدْ
هَذَا مِنْ جَانِبِي وَلَكِنْ مِنْ جَانِبِ آخَرْ ، لَا يَتَعَدَّ الْفَرْدُ فِي الْإِسْلَامِ حَدَّوْدَهُ بِحِيثِ
يَكُونُ ضَارًا لِلْجَمَاعَةِ كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي نَظَامِ الْدِيمُقْرَاطِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ .

إن غاية حياة الفرد في الإسلام إنما هي غاية الجماعة بعينها ؛ أي تنفيذ القانون الألهي في الدنيا وابتغاء وجه الله تعالى في الآخرة . وتوضيح ذلك أن الإسلام قد منع الفرد ما كان يتعلّق بذاته من الحقوق ، وفي مقابل ذلك فرض عليه واجبات خاصة تجاه الجماعة وبهذه الصورة ظهر التوافق الغريب بين الفردية والاجتماعية في الإسلام ، بحيث يتيسّر للفرد نماء قوته والإفادة من مواهبه الشخصية ، حتى يصبح بهذه القوة الفردية الراقية عوناً فيها فيه خير وسعادة المجتمع .

والأدباء المسلمين من شعراء وكتاب قد انطبعوا بهذا الطابع الفطري وتأثروا به ، فعاشوا حياتهم الفردية الحرية وأظهروا كل ما عندهم من ميل ذاتية ومواهب شخصية دون أن يعيقوا موكب الجماعة ، بل لقد كانوا عوناً صالحأً لجماعتهم استفادوا وأفادوا وعاشوا حياتهم لهم ولجماعتهم مع التوافق التام والإنسجام الكامل ، وما دام الشاعر ابن بيته فلا بد لنا من أن نفصل الكلام على القاعدة الأساسية التي تبني عليها الدولة الإسلامية .

إذا تأملنا بعض ما تقدم بيانه فيما سبق من تصور الخلافة العمومية والإحاطة بتفاصيلها تبين لنا أن منزلة الخليفة أو رئيس الدولة الإسلامية ليست بأكثر ولا أقل من أن جهور المسلمين قد اختاروا عن أنفسهم رجلاً هو أتقاهم وأفضلهم وأودعوه ما يبيدهم من أمانة الخلافة .

وليس معناه أنه هو الخليفة وحده ، بل إن خلافة المسلمين العمومية أصبحت مرکزة في ذاته .

بعض التفاصيل عن الحكم الإسلامي

١ - إن انتخاب الخليفة لا يكون إلا على أساس الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقَاتِلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِخَيْرِكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣) فلا ينتخب للخلافة أو الإمارة إلا من كان المسلمين يثقون بسيرته وأخلاقه وطبعاته ، فإذا ما تم انتخابه فهو ولي الأمر المطاع في

حكمه ولا يعصى له أمر ، بل يعتمد عليه في تنفيذ الأوامر اعتهاداً كاملاً ما دام يطبق الشريعة الإسلامية ويحكم بالكتاب والسنّة .

2 - الخليفة في الإسلام ، أو الأمير ، لا يميز شيء عن جمهور المسلمين من حيث القانون ، فهو رجل عادي كبقية الرجال ليس عليه حصانة كحصانة النواب والوزراء وسائر أصحاب المراكز العليا في الدولة ، يوجه إليه النقد فيها يتراوّه للعامة من الأخطاء في سياساته الرعية ، فهو يعزل إذا شاءت الأمة ، وترفع عليه القضايا في المحاكم ، ولا يستحق أن يعامل فيها معاملة يمتاز بها عن غيره من المسلمين .

3 - لكل خليفة أو أمير مجلس شورى لا بد أن يكون ، على الأمير مشاورته في الأمور الهامة التي قد تطرأ على الدولة ، ولا بد أن يكون هذا المجلس حائزًا على ثقة جميع المسلمين .

ومجلس الشورى هذا جاء انطلاقاً من الآية الكريمة : ﴿ ... وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتقين ﴾ (آل عمران : 159) على الأمير مشاورة مجلس الشورى ثم عليه الحزم والعزم والله تدبير الأمور .

كما جاء أيضًا في سورة الشورى آية : 38 ﴿ ... وأمرهم شورى بينهم ﴾ وهذا هو المبدأ الصالح لمعرفة الحق والوصول إلى حل منطقي صريح فيه المصلحة العليا لجميع المسلمين .

4 - في أغلب الأحوال قد يقضي هذا المجلس بكثرة آراء أعضائه ، إلا أن الإسلام لا يجعل كثرة العدد قاعدة عامة يجب الأخذ بها أو ميزاناً للحق والباطل . قال تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾ (المائدة : 100) .

ليس دائمًا الكثرة على حق فإنه من الممكن في نظر الإسلام أن يكون الفرد الواحد أصوب رأياً وأحد بصيرة في مسألة من المسائل من سائر أعضاء المجلس . فإن كان الأمر كذلك فليس منطقياً أن يطرح رأيه لأنه لا يؤيده به جمّع غيره .

والامير في الشرع الإسلامي له الحق أن يوافق رأي الأكثريّة أو رأي الأقلية ، كما له الحق أن يطرح بكل الآراء ويقضي برأيه عندما تتطلب مصلحة المسلمين .

ولكن من واجب جمهور المسلمين أن يراقبوا هذا الأمير في سيرته وتصرفاته مع

رعيته مراقبة دقيقة ، فهل هو يتصرف في الأمور ويحكم فيها على تقوى من الله سبحانه أم بهوى من نفسه ؟ .

فإن رأوه يتبع هواه ، فلهم أن يعزلوه وينخلعوه من منصبه ويولوا بدلاً منه رجلاً آخر يتم اتفاق الأكثريّة عليه .

5 - لا يتنصب للإمارة أو لعضوية مجلس الشورى أو لأي منصب من مناصب المسؤولية من يرشح نفسه ، أو من يسعى فيه بطريقة ما من طرق الدعاية . قال النبي (ص) في هذا المجال : « إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً ساله أو حرص عليه » .

ويذلك ليس هناك أي مجال في المجتمع الإسلامي للترشيح *Candidature* للمناصب والدعایات الإنتخابية ، لأن هذا التصرف يمجه الذوق الإسلامي ويرفضه الضمير الإسلامي ؛ فإن يقوم لنصب واحد اثنان أو ثلاثة أو أربعة مرشحين ، فينشر كل واحد منهم خلاف الآخر نشرات وبيانات يندي لها الجبين الإسلامي . وقد يعقدون مهرجانات وحفلات مدح أنفسهم والطعن فيمن سواهم مستخدمين الصحف والجرائد والإذاعات المسموعة والمرئية ، كما قد يغرون أصحاب الضمائر الرخيصة بأنواع من الحيل المخجلة فيطعمونهم بعض المال ليروجوا لهم . وقد ينجح بعضهم من كان أكثرهم كذباً وميناً وأدهاهم في التلفيق والتزوير .

هذا الأسلوب الرخيص غير موجود ومرفوض في النظام الإسلامي ، وهو طالب الولاية لا يولي » .

6 - لا يمكن أن ينقسم أعضاء مجلس الشورى الإسلامي جماعات وأحزاباً بل يبني كل فرد منهم رأيه بالحق بصفته الشخصية ، لأن الإسلام يأبى أن يتحزب أهل الشورة ويكونوا مع أحزابهم سواء كانت على حق أو باطل . والذي يقتضيه الشرع الإسلامي أن يدور المسلمون مع الحق حيثما دار ، لا يجحدون عنه قيد شعرة . فقد يكون الواحد منهم مصيباً في بعض الأمور فيكونون معه ويناصرونـه ، وقد يكون هو نفسه في أمر آخر غير مصيب ومخالفاً للحق فيعارضونـه .

الناس في التشريع الإسلامي مع الحق وليسوا مع طلابه إلا أن يكونوا مصيبين في رأيهم محقين فيما يقولون .

7 - إن مجالس القضاء في الإسلام مغايرة لما نعهد ونشاهد من حدود الهيئات التنفيذية ، لأن القاضي في الإسلام ملزم بتنفيذ القانون الالهي في عباد الله ، ولا يتولى

الحكم نائباً عن الخليفة أو الأمير بدل نائباً عن الله عز وجل وليس الخليفة في مجلسه إلا كرجل من الرجال العاديين ، ولا يحق لأحد أن يستثنى من الحضور إلى مجلس المحكمة لأن شرف أسرته أو شرفه ، أو لمنصبه العالي الذي يشغله في الدولة . فالأخير والفالح والفقير المعدم له الحق أن يرفع القضية إلى مجلس الحكم على العلية من الناس ، حتى ولو كان أمير المؤمنين نفسه . وللمقاضي أن يحكم بالحق ويجزى قانون الشرع على الخليفة نفسه إذا تحققت القضية عليه كما يحكم رجل من عامة المسلمين .

أما إذا كان الخليفة يشكو من أحد والقضية تتعلق بذاته شخصياً فليس له أن يتقدم من يشكوه مستخدماً ما لديه من قوة وسلطة تنفيذية ، بل هو مضطرب من جهة الشرع أن يرفع قضيته إلى المحكمة كعامة المسلمين ، فيحضر الخليفة وخصمه وتجري المحاكمة بينهما حتى يصل كل منها إلى حقه .

في مثل هذا المجتمع الذي تسود فيه العدالة الإجتماعية ، وتحقق في ربوعه الحرية الفردية ، وتطبق المساواة بين جميع أفراد الشعب ، فلا فرق بين عظيم وأجير ، أو بين غني وفقير ، أو حاكم ومحكوم ، أو سيد ومسود ، فالجميع سواسية كأسنان المشط أمام حكم الله . في هذا المجتمع الكريم يعيش جميع الناس حياة إنسانية حرة كريمة في دار الإسلام دار السلم والسلام ، دار المدينة الفاضلة .

إنقلاب في جميع نواحي الحياة

من أهم الخصائص التي امتازت بها الدولة الإسلامية عن غيرها أنه ليس لعنصر الحزبية والقبلية والطائفية أي حظ في إيجادها وتركيبيها ، إنما هي دولة فكرية مؤسسة على مبادئ إنسانية ، وغايات هادفة واضحة . وكان ذلك غريباً على الناس في ذلك الوقت لأنهم ما كانوا يعرفون فيها ماضى من القرون والأجيال إلا ما يؤسس على دعائم الطبقات والبيوتات المعروفة بما لها وجاهها وقوتها سلطانها .

كما عرروا أيضاً الدولة القائمة على دعائم السلامة والمذاهب والقوميات .

أما الإسلام فهو دين الإنسان في كل مكان ، وهو النهج الفكري الوحيد الذي يمتاز من بين المذاهب والأفكار - من أقدم عصور التاريخ حتى يومنا هذا - بأنه يقيم نظاماً إنسانياً كريماً مطهراً من العصبيات الجنسية وأقدارها . يدعو الناس كافة إلى الإيمان بعقيدته طوعاً لا كرهاً ، والإنسواء تحت لوائه من أي قومية أو قبيلة أو جنس . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كُلَّا لِلنَّاسِ بُشِّرَأْ وَنذِيرًا وَكُلُّنَا لِلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبا : 28)

فالنبي محمد (ص) أرسله الله تعالى بجميع خلقه من كل جنس ولون ليهدىهم وينقذهم من ضلالهم وبهتانهم وجاهليتهم . قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء : 107) .

ولا شك أن قيام مثل هذه الدولة في وضعها الغريب لأهل ذلك العصر الذين تربوا في بيوتات خاصة متأثرين بالحسب والنسب والعصبية سوف يصادف عقبات كأداء لا بد من بذل الجهد من أجل تذليلها .

إن كل لبنة من لبيات بناء الدولة الإسلامية هو معلم من معماول الهدم للبناء القديم ، ليأتي ببنيان دولة فكرية تنظر إلى الإنسان بعين الإنسانية ، وتعرض على الناس نظاماً عادلاً واضحاً كل الواضح ، يحمل بين دفتيره الخير والصلاح والسعادة والفرح لجميع بني البشر .

والنقطة الهامة التي تتميز بها الدولة الإسلامية هي :

الخلافة الألهية وقد المحنا إليها قبل قليل . وهي تقوم على مفهوم (حاكمة الله) الواحد الأحد ، ونظريتها الأساسية تقول : إن الأرض كلها لله وهو ربها والمتصف بها ، والأمر والحكم والتشريع كلها مختص بالله وحده ، وليس لفرد أو لأسرة ، أو لطبقة من سلطة الأمر والتشريع . فلا مجال في دار الإسلام ودائرة نفوذه إلا للدولة يقوم فيها المرء بوظيفته ك الخليفة لله جل وعلا ولا يصح ذلك إلا من وجهتين .

الأولى : أن يكون ذلك الخليفة رسولاً من الله .

والثانية : أو أن يكون رجلاً يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون من عند ربِّه .

فالبنيان الذي يقوم على أساس هذه النظرية مختلفاً كبيراً وكلياً في بنائه وطبيعته وهيئة تركيبه . والدولة التي تقوم على هذا الأساس تحتاج في تأسيس بنيانها وإدارة مرافقتها إلى عقلية خاصة ، وأخلاق خاصة ، وسيرة خاصة ؛ وكل ما فيها مختلفاً جوهرياً عن الدول الأخرى التي كانت سائدة في عصرها . إن الذي أعدد في الدولة الإسلامية من حكام ، وقواد ، وزراء ، وسفراء ، ومديري مختلف الدوائر والمصالح ، يجب أن يكونوا رجالاً يخشون الله ، ويخافون حسابه ، ويؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا والنفع والضرر الخلقيان عندهم أثقل في الميزان وأرجح كفة من النفع العاجل والضرر اللاحق في الحياة العاجلة . وهم يمسكون بأي حال بما وضع الله في كتابه العزيز ، وبما سن لهم من منهج دائم وثابت إلى الأبد . وبذلك هم يسعون لمرضاة الله وليس

لرضاة عبيده ، ولم يتخذوا من أغراضهم القومية ونزعاتهم الشخصية سلطاناً على أنفسهم ، ولا تأخذهم نشوة الملك وعزه السلطان إذا أتاهم الله نصيباً منه ، وليسوا بجُوّع إلى الثروة والجاه .

فهؤلاء وأمثالهم ومن في طبقتهم يمكن أن تكون منهم الدولة الإسلامية ، وهم الذين يقدرون على إدارة أمرها بخلاص وصدق ووفاء .

وأما طلاب الدنيا وعباد الشهوات والأغراض الذاتية الذين لا يخافون الله ،
ولا يرجون الآخرة ، بل كل همهم النفع العاجل والترف المادي ، فلا يمكن أن يصلحوا
أبداً ولا أن يفوض إليهم أمر الدولة الإسلامية وشؤون رعاية الناس⁽⁶⁾ .

لقد حدث الانقلاب الإسلامي الذي غير جميع مناحي الحياة على أساس النظريات والأحكام القرآنية ، وسيرة النبي المصطفى (ص) فقويت الدعوة الإسلامية وغيرت بجهادها المستمر الخير أسس الجاهلية الفكرية ، والخلقية ، والنفسية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والدينية التي كانت سائدة .

وأن يحسن بنا أن نعلم كيف تم هذا الإنقلاب الشامل في أوضاع العرب ،
وكيف انتصر منفذه عملياً ، وكيف كانت التائج ؟ .

كيف تم الانقلاب الإسلامي وما هي نتائجه؟

لقد اختار الله عز وجل النبي المصطفى محمد بن عبد الله (ص) الرسول الأمي وخاتم النبيين والرسل لينفذ شريعة الله على الأرض ، ويتم نوره ولو كره المشركون . وسيرته الصافية النقية تشهد له بذلك . كان محمداً (ص) هو القائد الوحيد الذي نجد في سيرته الجليلة تاريحاً شاملأً ، يقتبس منه ويستضيء به في كل ما يعرض للمجتمع من مسائل ومشاكل في سياسة الدولة الداخلية والخارجية .

وإننا نجد في تاريخ حياته الكريمة معلومات تفصيلية وافية عن سائر هذه الأمور .

كلنا يعلم أن العالم في ذلك العصر ، قبل الإسلام ، كان مصاباً بأمراض جاهلية مختلفة من خلقيّة ، واجتماعيّة ، وسياسيّة ، واقتصاديّة ، ودينيّة . ويقتضي كل ذلك طبيباً نطاسيّاً ماهراً ، يعالجها جميعها فيزيلها أو يخفّف من ويلاتها . فحينما بعث الله النبي محمد (ص) ليبلغ الرسالة وينشر الإسلام كان هناك تسلط روما وفارس ، الامبراطوريات

(٦) جاء في الحديث الشريف : الخلق كلهم عباد الله وأقربهم إليه أنفعهم لعباله .

العظيمتان في ذلك الوقت ، كما كان هناك تنافس وامتيازات بين مختلف طبقات البشر منها التمييز العنصري ، والإستغلال الاقتصادي وختن الحريات ، إلى ما هنالك من ظلم وظلمة . . . فوق هذا كله كانت هناك الأخلاق الذميمة من خر ومبسر وتجاوز لجميع حدود الحياة الفردية والجماعية .

وكذلك بلاد العرب نفسها لم تكن بعيدة عن مثل هذه الأمراض ، بل كان فيها الكثير من المعضلات التي تحتاج إلى حل سريع من زعيم بارع كل البراعة وحاذق كل الحذق ، يعلم جيداً بكل أمراض العصر وأدواء الأمم . فالقوم جلهم إن لم نقل كلهم كانوا قد عهم الجهل وغضبهم الإنحطاط الخلقي ، والفقر والجهل والفوضى في جميع مرافق الحياة ، وما يتبع عنها من غارات وحروب أهلية تدوم سنوات طويلة ، كانت تحدث لأسباب تافهة كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء . ناهيك عن الثأر المدمر وما يخلف من حزن وأسى وضيقية وتشتت . والبلدان العربية الساحلية إلى بلاد اليمن ومقاطعة العراق الخصبة كلها كانت خاضعة للفرس ، كان يحكمها وال من قبل الشاه .

أما الشمال فكان قد تسرّب إليه النفوذ الرومي إلى ثغر الحجاز نفسها .

وفوق هذا وذاك كان تغلغل اليهود المالي في أعماق الحجاز ، واتخاذهم فيها حصوناً منيعة لأنفسهم لأنهم كانوا يأكلون الربا ، ويوقعون العرب في جياثهم ، كما تفعل اليوم أمريكا ، ينشبون أظافر الربا الفاحش في لحومهم .

ومن ناحية الغرب كانت مملكة الحبشة النصرانية التي كان لها عصبة من النصارى متصلة بها بعلاقاتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . كل هذه العقبات والصعوبات كانت تحيط بشبه جزيرة العرب .

ولكن القائد الذي اصطفاه الله تعالى من بين عباده أجمعين لهدایة البشر من الظلم إلى النور ، ومن الجهالة إلى الحق المبين ، لم يتعرض في أول أمره لإحدى هذه المعوقات ولم يقف عندها ، بل قام في الناس يدعوهم إلى الحق ، ويبثب بهم بصوته الهادي الحق ليعبدوا الله وحده ، ويتجنبوا الطاغوت . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي أَكْلَمِ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ فَمَنْهُمْ مِنْ هُدَى اللَّهِ وَمَنْهُمْ مِنْ حَقٍّ عَلَيْهِ الضَّلَالُ ﴾ (النحل : 36) .

لقد بدأ رسول الله (ص) بحل تلك المشاكل واحدة بعد أخرى ، لكنه في أول أمره حصر جميع جهوده في نشر الدعوة بين الناس ، صارفاً وجهه عما عداها . والسبب في ذلك : أن كل نوع من أنواع الفساد الاجتماعي والخلقي كان ينشأ - حسب ما يراه

الإسلام - من علة أساسية واحدة ، وهي أن يجعل الإنسان نفسه مستقلًا برأيه ، حرًا بتصرف شؤون حياته ، فلا يتخذ دون الله أمرًا مطاعًا يخضع له وينقاد لأمره ؛ وما دام الفساد يسري في عروق الحياة الاجتماعية فلا يمكن لأي مشروع إصلاحي أن ينفع في اقتلاع جراثيم الشرور الفردية أو الاجتماعية . ولا مجال إلى الشروع في مهمة الإصلاح الحقيقي إلا أن تجرب العقول من هو الإستقلال بنفسها ويعتقد الإنسان اعتقاداً راسخاً عن طريق الهدى والمهدى أن : « هذا الكون الذي تعيش فيه وتتنفس ، لا يجري أمره من غير سلطان قاهر ، بل له ملك هو الحاكم المتصرف في شؤونه ، وما حاكميته بحاجة إلى أن تسلم بها أو تعرف بها ، وكذلك لا تقدر أن تقضي عليها أو تتمكن من الخروج عن حدود ملكوته . فما تتحقق بالاستقلال بإزاء هذه الحقائق الثابتة إلا ظن خاطئ وغلوطة حقاء ، عائد ضررها عليك لا يجني شرها إلا أنت . »

فالعقل والشعور بالحقيقة الواقعية يقتضيان أن تطأطئ رأسك أمامه ، جلت قدرته وتعالى شأنه ، وتكون له عبداً قاتناً مطيناً لأوامره ، كما ينبغي أن تعرض على الإنسان حقيقة ناصعة أخرى تقول : « بأنه ما من حاكم ولا ولی ولا ملک قادر لهذا الكون إلا ذلك الآله الواحد الفرد الصمد ، وأنه هو الحاكم القاهر الذي لا معقب لحكمه ولا شريك له في الملك ، ولا ينفذ في السموات والأرض إلا أمره فلا تكن إلا عبداً لله ، ولا تأثر إلا بأمره ، ولا تسجد لأحد من دونه ، فإنه ليس هناك من صاحب جلاله ، فالجلال كلها مختصة بذاته جل وعلا ، وليس هناك من صاحب قداسته ، فالقداستة بأسرها مركزة فيه ، تقدست أسماؤه ، وليس هناك من صاحب سمو فالسمو لا يستحقه أحد من دونه ، تعالى شأنه ، وليس هناك من صاحب سيادة ، فالسيادة بأجمعها مقتبسة من شرفه ، جلت قدرته وعظم شأنه ، ولا شارع من دونه فالقانون قانونه ، ولا يليق التشريع إلا بشأنه ، ولا يستحقه إلا هو ، ولا ملك ولا رازق ولا ولی إلا هو ، وليس من دونه من يسمع دعاء الناس ويستجيب لهم . وليس مفاتيح الكربلاء والجبروت إلا بيده ، ولا علو لأحد ولا سمو في هذه الدنيا ، فكل من في السموات والأرض عباد أمثالك ، والرب هو الله وحده . فارفظ كل نوع من أنواع العبودية والطاعة والخضوع لأحد من دونه ، وكن عبداً لله ، قاتناً مستسلماً لأوامره » .

فهذا هو أصل كل صلاح لكل إنسان بنظر الإسلام ، وهذا هو الأساس الذي يقوم ويزرس من جديد ببيان السيرة الفردية والنظام الاجتماعي كله على خط خاص لا يجارى . وبذلك يحمل جميع ما حدث من ألوان المشاكل في المجتمع البشري منذ عهد

أي البشر آدم إلى يومنا هذا ، وتزول كل المضلات وذلك بأسلوب فذ مبتكر لم يسبق له مثيل .

قام النبي الأمي محمد (ص) مولانا ورسولنا بدعوة هذا الإصلاح الأساسي من غير تهيئة سابق ، ومن دون أعمال تمهيدية للشرع بهذا المشروع السامي الجليل . بل دعا الناس إلى الدخول في الإسلام مباشرة ، ولم يؤثر أن يسلك طرقاً ملتوية للوصول إلى الغاية المنشودة من هذه الدعوة ، لأن يأتي بادئ ذي بدء بشيء من الإصلاح الاجتماعي والسياسي والإداري والديني يستهوي به النفوس ، ويُسحر الآلباب ، حتى ينال بذلك شيئاً من القوة الحاكمة ، ثم ينطلق منها متدرجاً إلى الغاية المنشودة التي كلف أن يدعو الناس إليها .

كلا لم يكن هذا ولا ذاك ، والذي حدث أن عبداً من عباد الله قام في بطحاء مكة وصاح في أهلها بأعلى صوته : أن لا إله إلا الله ، ولم يلتفت إلى شيء دون ذلك طرفة عين . وهذا ما خص الله به الأنبياء ، لأن الذين يعاونوك على غير هذا الأساس : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » لا يمكنك أن تجد منهم عوناً تشد به أزرك ، ولا ينفعك في هذا العمل إلا الذين دفعتهم إليك كلمة : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حيث يجدون من أنفسهم ميلاً وانجذاباً إلى هذه الكلمة وحدها . لقد اتخذوها أساساً لحياتهم ولا نهضوا للكفاح ولا أجابوا الدعوة إلا على هذا الأساس .

فنظيرية التوحيد هذه ليست هي بعقيدة دينية فحسب ، بل هي تحفي في الإنسان نظام حياة إجتماعية جديد مبني على أساس استقلال الإنسان بأمره أو حاكمة من غير الله وألوهيته . ومن هذا المنطلق ينعدم البنيان القديم من أساسه ، ويقوم وينهض بدلاً منه بنيان جديد على أساس جديد ، يحمل كل الخير لجميع بني البشر .

واليوم المؤذنون يرفعون أصواتهم من مآذنهم خمس مرات في كل يوم وليلة ينادون بأعلى أصواتهم : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .

ونحن نرى أن جميع الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم يسمعون هذا النداء ولكنهم لا يهتمون ولا يقدرون مضامينه السامية النبيلة ! ولو علمت الدنيا ما يشتمل عليه هذا النداء ، وما يرمي إليه من غاية بعيدة المدى ، وأن المنادي ينادي بعزם وإصرار ، لانقلبت الأرض بمن عليها ولتتكرت الوجوه . وما يدريك كيف تستقبل الدنيا التي رضعت بلباقة الجاهلية ، هذا النداء إذا عرفت سره وعلمت غايته ؟ .

إذا عرفت أن المنادي يقول : لا حاكم إلا الله ، ولا ملك إلا الله ، ولا أخضع

لحكومة أو دستور أو سلطان على ، ولا أطيع أمراً غير أمره ، ولا أنتقد بشيء من العادات والتقاليد الجاهلية ، ولا أدين لسيادة أو قيادة ، ولا استخزzi لسلطة متكبة في الأرض متمردة على الحق .

إنما أنا مؤمن بالله ، مسلم له ، كافر بالطواقيت الأرضية والآلهية الكاذبة من دونه ، ترى هل يسمع أهل الدنيا هذا النداء ؟ وهل تسكت عليه ؟ كلاماً كلاماً ؟ سوف يعلنون الحرب علينا بمجرد سماع هذه « الكلمة » وسوف نرى الناس ينقلبون إلى عقارب وثعابين ، وإلى وحوش ضاربة تتبعني أن تفترسنا افتراساً .

وهكذا كانت الحال عندما قام الرسول الأعظم (ص) يدعو الناس إلى هذه الكلمة فكل من أحس بالخطر ما عسى أن يصيّبه من ضرر في شيء من مصالحه من جراء انتشار هذه الدعوة ، وثبت ثم شمر عن ساعده لإخفاقات هذا الصوت المبارك العلوي ، وإطفاء هذا النور الآلهي المبارك العظيم . لقد رأى السدنة والكهنة في هذا الصوت خطراً على سدانتهم وكهاناتهم ، ورأى رؤساء العشائر أن هذا النداء يقضي على بنيان رئاستهم ، وأحس الرأساليون وأصحاب الأنساب والجاه أن سلطانهم يميل إلى التزول وكذلك هواة العنجوية الذين ورثوا التقاليد عن آبائهم واتبعوها وعكفوا عليها وكأنها أوثان بنفسها أحسوا بالخطر الداهم على تلك العادات العريقة .

ويختصار لقد أحس كل من عباد تلك الأصنام المختلفة الألوان أن صنميه أصبح على شفا جرف ، وأن الطواقيت التي يعبدونها من دون الله محكوم عليها بالإنقراض ، فوقفوا في وجه الدعوة عاقدين العزم على إلقاء العرقيل في سبيلها .

وفي مثل هذه الحالة لم يستجب للدعوة إلا من كانت فطرته نقية صافية مستعدة ، دون طمع أو خوف لإدراك الحقيقة وقبول الحق ، ولا فرق عندها بعد ذلك أوقعت على الموت أم وقع الموت عليها . ولكن الذين استجابوا لله ولرسوله كانوا قلة ، لا يتتجاوزون عدد الأصابع . ثم جعل عددهم يزداد بإذن الله ، فيأتون إلى النبي (ص) فرادى وجماعات حتى أصبحت الدعوة الإسلامية تنموا وتكبر ، والمقاومة ضدها تزداد وتشتد . فمن المؤمنين من ضرب ضرباً مبرحاً ، ومنهم من سجن ، ومنهم من سحب على رمال البطحاء في الظهيرة ، ومنهم من رمي بالحجارة ، ومنهم من فقشت عينيه وشج رأسه ، وفريق آخر أغروهم بمال النساء والسيادة والإمارة .

لذلك كنا نرى أن ما استجاب لتلبية هذه الدعوة المباركة إلا من كانوا من خيرة السلالة البشرية وغرة الإنسانية عقيدة وأخلاقاً . والذي يؤكّد ذلك أن هؤلاء النجاء لم

يقدروا ذلك الشدائدين ولم يصبروا على تلك المكاره لأغراضهم الذاتية ، أو لمنافعهم الخاصة ، بل جهدوا وجاحدوا في سبيل الله ، وفي سبيل الحق ، فبذلوا مجهوداً وأرواحهم وما زادهم جور الطغاة إلا قوة وصلابة وعناداً . كما تفعل أمريكا ، اليوم تماماً والتاريخ يعيد نفسه ، حرب المؤمنين مع الكافرين والمرتزقة والمرتدين . وان تكون تلك المدرسة أمر طبيعي في « مدرسة الشدائدين والمحن » وكلما كان الهدف سامياً غلت وعظمت في سبيله التضحيات . قال أبو الطيب المتنبي مخاطباً نفسه :

ترى دين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل
لأجل تنشتهم على هذه السجية فرضت عليهم الصلوات الخمس حتى تظل
أنظارهم معقودة على الغاية المنشودة ، وحتى تقوى عقيدتهم بتجديد عهد الولاء والطاعة
لمن بيده ملکوت السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

فرضت عليهم ليزدادوا ثقة وإيماناً بأن الله الذي عاهدوه على امثال أوامره في هذه
الحياة الدنيا إنما هو عالم الغيب والشهادة ، وأنه مالك يوم الدين ، فتطمئن عندها قلوبهم
بطاعته .

لقد كانت هذه التربية الإسلامية النبيلة المساعد الأكبر في انتشار الدعوة ، كما
ينشر النور في الظلمات . يؤذون بالضرب والسجن ويقتلون بالمال ومغريات الدنيا ،
ويخرجون من ديارهم فلا يتضعضعون ، ولا تضعف عزيمتهم ، ولا تزلزل أقدامهم ،
فإذا استيقنت أنفس الناس كل ذلك أحبت الإستطلاع . والجواب واضح كل
الوضوح ، كلمة واحدة « لا إله إلا الله » أحدثت فيهم مثل هذا الإنقلاب . وقد مثلها
صاحبها والقائم بأمرها (ص) بحياته الشخصية أفضل تمثيل ، حتى أنه كان يرى الناظر
روح الإسلام الحقيقي في كل ما يصدر عنه (ص) من قول أو فعل أو تقرير ، وذلك من
خلال سيرته المحمودة وأخلاقه الطيبة وحياته الطاهرة . فهل نحن على دربه
سائرون !؟ .

لم يحفل النبي (ص) في سبيل الدعوة ونشر كلمتها بشيء من مصالح أسرته أو
عشائره أو قومه أو بلاده ، لا من قريب أو بعيد ، وهذا ما جعل الناس يستيقنون
أنه (ص) إنما قام لسعادة المجتمع البشري قاطبة ، وهذا الذي جذب جميع الناس إلى
دعوته من كل جنس ولون . لم يعنه أمر بني هاشم دون غيرهم ، وما كان همه أن يحمي
غريشاً دون قبائل العرب الأخرى ، ولم تكن مهمته مقصورة على العرب وحدهم ، لذلك
انضوى تحت لوائه بلال من الحبشة ، وصهيب من الروم ، وسلمان من الفرس . وما

لا مرية فيه أن الذي جذب هؤلاء الناس جميعاً إلى قبول الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ، أعلاهم وأدنיהם ، أسودهم وأحمرهم ، قريبيهم ويعيدهم ، إنما كان حبه الخالص لهم جميعاً ، وتجدداته الشاملة من الأغراض الذاتية والقبلية والقومية . وهذا هو الخلق العظيم الذي وصفه به ربنا جل وعلا ، والذي كان له أثره في نفوس العرب جميعهم . ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾ .

وفي مدة وجيزة لا تزيد عن عشر سنوات درب أصحابه على تنظيم دوائر الحكومة وإدارة كل فرع من فروعها على المنهج الإسلامي السليم ، وقد انتقلوا من دور الفكر والمحضة إلى نظام مدني شامل وبنوا للناس كل نواحي النظم الإسلامية : الإدارية والقضائية والمالية والثقافية والاجتماعية ، وتجلى للملايين كل جانب من سياسة الدولة الإسلامية وخطتها في السلم وال الحرب . لذلك وجدوا أن لا رجاء للسعادة البشرية إلا في كنف الإسلام ، ولا نجاة للإنسانية المظلومة والمعذبة إلا في ظله .

ومن كان له علم بتاريخ الثورات في العالم ، لا يسعه إلا الاعتراف بأن هذا الإنقلاب الذي ما أرق فيه الدم إلا تحلة للقسم جدير بأن يسمى انقلاباً سليماً . وما يجدر ملاحظته أنه لم يتغير بهذا الإنقلاب طرق إدارة البلاد فحسب ، بل لقد تغيرت وتبدلت به أيضاً نظم التفكير ، ووجهات النظر ، وطرق المعيشة ، ونوعية الأخلاق والعادات . وبالمجمل لقد تحولت الأمة بأسرها تحولاً تاماً . من الضلال إلى المدى .

هذه هي سبيل الإنقلاب الاجتماعي الذي يريده الإسلام ، وهذا هو طريقه طريق مستقيم لا عوج فيه . ومن الناس من يحسب حدوث هذا الإنقلاب معجزة خارقة للعادة ، وأنه لن يتم إلا على يد نبي من الأنبياء ؟

ولكن إن جرينا اليوم في عملنا على ذلك المنهج ، فلا بد إلا وأن تظهر تلك التائج بعينها التي ظهرت من قبل . اللهم إلا أنه يحتاج إلى إيمان صادق وشعور إسلامي صاف ، وحنينية كاملة وعزز قوي راسخ ، وتضحية بالمصالح الشخصية ، وتجدد عن الأماني الذاتية .

يحتاج هذا العمل الإنقلابي الجليل إلى كل ذلك ، وإلى رجال أولى عزم من الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ولم يلتفتوا بعد ذلك إلى شيء في قليل ولا كثير ، والذين يشرون الحياة الدنيا بالأخرة ، ويضحون في سبيلها بكل مالديهم ، والذين لا يتزحزرون قيد شعرة عنها وضعون نصب أعينهم من الغاية العليا مهما يجري من ثقلبات الحوادث الدنيوية والذين يقابلون بصدر وجلد كل ما ي تعرضون دون غaitتهم من العقبات والمعوقات من خلال البيئة أو الأمة أو القبيلة أو الحكومة أو الوطن .

فمثل هؤلاء الرجال الذين حلووا لواء الدعوة وأعلوا كلمة الله في الماضي ، وكذلك اليوم لا يمكن أن تقوم لنا قائمة إلا بأمثال هؤلاء ولا تبني بلادنا نظيفة سليمة من أعداء الله وأعداء الإنسانية إلا بمن كان على غرارهم وتحلى بأخلاقهم وجرى على سجيتهم .

والمثل ماثل أمام أعيتنا اليوم حيث نرى الصليبيين يحتلون أماكننا المقدسة التي انطلقت منها كلمة الإسلام ، كلمة الإيمان : «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» ، فعلى أن نقوتها من صميم القلب وليس من أطراف اللسان . فهل يسمع العرب اليوم ؟ وكيف يقابلون ربهم يوم الحساب ؟ ! .



القرآن الكريم

كتاب الله ، قبس من النور والهدى ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض على سيد الخلق وأكرم الرسل ، محمد بن عبد الله (ص) ، وهو الكتاب المعجزة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنّه تنزيل من حكيم حميد. آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا معاً ، نزلت هدى للبشر كافة فقضت على العادات الضالة ، والأساطير الكاذبة ، والأوهام الباطلة حتى أحالت الظلام ضياء ، والضلال هدى ، والجهل علماً ومعرفة . لقد أحدث القرآن انقلاباً تاماً في جميع نواحي الحياة ، فنقل البشرية من عصر تسوده الفوضى والطغيان والعبودية والخروب والقلق النفسي ، إلى عدل وإيمان ، وأمن وطمأنينة ، وسلام وحرية ، وعمران وحضارة تعم الناس جميعاً ، ويسعد بها الجماعات والشعوب والبشرية قاطبة .

وبعد أن بلغ العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه في كل مكان كما أمره الله عز وجل : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كِفَافٌ لِلنَّاسِ بُشِّرًا وَنذِيرًا﴾ (سبأ : 28) وقال تعالى أيضاً : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء : 107) حلّت رسالته السمحاء إلى العالم السلم والسلام ، والأمن والمساواة ، والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة في تاريخ الإنسانية التي أنقذتها من ضلال الجاهلية الأولى وويلاتها المدمرة فتبارك الله رب العالمين .

والحق أن تعاليم الإسلام الواردة في القرآن الكريم تبغي وحدة النوع الإنساني ، ووحدة يقام فيها العدل وينخيم الرخاء ويظلل السلام .

نزوله :

حكمة ربانية اقتضت أن ينزل القرآن على النبي المصطفى (ص) في ثلاثة وعشرين سنة ، وذلك حتى تنهي النّفوس البشرية لتلقي هذا الفيض الألهي قال تعالى :

﴿ وَقَرَأْنَا فِرْقَنَاهُ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (الإسراء : 106) ثلث عشرة سنة تم نزوله في مكة ، وهي موطنه الذي نشأ فيه ، وسميت الآيات وال سور التي نزلت فيها مكية . وفي العشر سنين الأخرى كان يقيم (ص) في المدينة ، وهي دار هجرته التي قضى فيها بقية حياته ، وسميت الآيات وال سور التي نزلت فيها ، أو في غزواته وأسفاره أثناء إقامته فيها مدنية . ومجملها مائة وأربع عشرة سورة .

وكان أول نزوله في شهر رمضان المبارك وفي ليلة معروفة منه هي ليلة القدر قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (البقرة : 185) .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (القدر : 1 - 3) .

وظل ينزل به روح القدس جبريل بلسان عربي مبين . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُذَرِّينَ، بِلْسَانُ عَرَبٍ مَبِينٍ، وَإِنَّهُ لِفِي زِبْرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء : 192 - 196) .

وكما هو واضح من خلال الآيات الكريمة أنه كلام الله أوحى به إلى رسوله الأمين الذي اختاره سبحانه لتبلیغ آخر رسالته إلى الناس كافة . وأول ما نزل من القرآن : سورة العلق (آيات 1 - 5) .

﴿ إِقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْقٍ، إِقْرَا وَرَبِّكَ الْأَكْرَمِ، الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنْ، عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

نزلت هذه السورة المباركة على رسول الله (ص) وهو يتبع بغار حراء قرب مكة وأول ما نزل عليه (ص) بالمدينة قوله تعالى : ﴿ وَبِلِّلِ الْمَطْفَفِينَ. الَّذِي إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالَّوْهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يَخْسِرُونَ أَلَا يَظْنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمٍ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (المطففين : 1 - 6) .

وآخر آية نزلت عليه (ص) على أشهر الأقوال ما جاء في سورة المائدة : آية 3
﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامُ دِيَنًا ﴾ .

مُوضُوعاتُ سُورَةِ :

قلنا إن الآيات وال سور مكية ومدنية ، فالمدنية بصفة عامة طويلة ، وتحتفل عن السور المكية في المعاني التي تدور عليها والملازمة لظروف الزمان والمكان . مثل نظام العبادة ، وفرض الفرائض ، والتحليل والتحريم ، ونظام الأسرة في أحكام الزواج

والطلاق ، والميراث ، والوصية ، والعتق ، والإسترقاء ؛ ومثل نظام الجماعة في التكافل والتناصر على إقامة الحدود وحماية العرض والمال ، وتحديد المعاملة الحسنة في البيع والشراء والرهن والمداينة ، وتقرير العدالة في القضاء والاحكام ونحو ذلك مثل معاملة المسلمين لغيرهم من الأمم الأخرى في السلم وال الحرب ، وتقسيم الغنائم ، ومعاملة الأسرى ، وعقد الهدنة ، والمعاهدات الدولية ، وأخذ الجزية من أهل الذمة ، وغير ذلك مما تقتضيه مصالح البشر في الحياة الدنيا على اختلاف وجوهها في الزمان والمكان .

وفي تضاعيف ذلك كانت تذكر العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعقاب والإيمان بالرسل السابقين والكتب السماوية .

أما السور المكية فكانت قصيرة وهي لا تختلف عن السور المدنية من حيث الطول والقصر بل تختلف أيضاً في المعاني ، فإنها تخوض غالباً في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتنزيهه عن مشابهة خلقه ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع^(١) ، والدعوة إلى الإيمان بالبعث والحساب ، يوم يبعث فيه الناس وينشرون ويحاسبون على ما قدموا في دار الدنيا ، فيجازى المؤمن بنعيم الجنة الخالد ، ويعاقب الكافر بجحيم جهنم الأبدي . وقد ورد ذلك في آيات كثيرة مثل قوله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يُرَهُ » بحدث ذلك بعد أن : « يَوْمَئِذٍ يَصُدِّرُ النَّاسُ أَشْتَانًا لِيَرَوْا أَعْهَافَهُمْ » (الزلزلة : ٦ - ٨) .

وقد أورد ذلك سبحانه عن طريق حكمة بالغة وموعظة حسنة ، أو معاقبة طاغية كفرعون ، أم أمم باغية كقوم لوط ، أو سيرة رسول مع قومه ، أو استدلال بخلق السماوات والأرض للتدليل على قدرة موجدها . ثم ورد أيضاً إنذار للمعاندين ونعي على الجاهلين ، وتقرير للمستهزئين ، وذم للكافرين . كل ذلك بعبارات بلغة مفصلة قصيرة مكررة يسهل على السامع حفظها وفهمها .

وجملة القول إن القرآن كتاب هداية البشر عامة إلى مكارم الأخلاق ، وإلى توحيد الله وعبادته وتنزيهه عن مشابهة خلقه ، كما هو كتاب تشريع للفرد والأسرة والجماعة والناس كافة .

(١) راجع ما فعله النبي إبراهيم الخليل (ع) عندما حطم جميع الأصنام التي كانت موجودة في الكعبة وترك كبرهم ، ولما مثل عمن كسرها قال كبيرهم .

كان القرآن يتزل منجحاً على رسول الله (ص) حسب المناسبات والظروف التي كان يعيشها العرب آنذاك ، وكان يكتب ما نزل منه بأمر من النبي المكلف بتلك المهمة الألهية ، على العُسْب واللخاف والأكتاف⁽²⁾ . وكان الرسول (ص) يأمر كتاب الوحي بكتابة كل ما يتزل عليه وقت نزوله . واتخذ لذلك جماعة من أعرف الكتاب أمثال : علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبي بن كعب وزيد بن ثابت الذي كان يتقن عدة لغات : الفارسية التي تعلمها من رسول كسرى ، والرومية تعلمها من صهيب صاحب النبي ، والقبطية تعلمها من خادم النبي أيضاً ، والحبشية تعلمها من بلال خادم النبي ، والسريانية تعلمها بأمر من الرسول كما أمره أيضاً تعلم العبرية « لغة اليهود »⁽³⁾ .

ولما انتقلت روح الرسول إلى الرفيق الأعلى وتسلم أبو بكر الصديق الخلافة عهد إلى زيد بن ثابت ، أحد كتبة الوحي الأبرار ، بجمعه . وقد تم ذلك وحفظ في بيت أبو بكر ، ولما توفي وخلفه عمر بن الخطاب انتقل المصحف إليه ، وبعد وفاة عمر انتقل إلى حفصة ابنته .

وهذا هو الجمع الأول للقرآن الكريم ، وكان الغرض منه جمع نص القرآن في مجموعة واحدة ، حتى لا يضيع منه شيء والله تعالى نزله على رسوله المصطفى وحافظه إلى يوم الدين . قال تعالى : « إنا نحن نزّلنا الذكر وإنما لحافظون » (الحجر : ٩) .

وفي عهد عثمان كثرت الفتوح وأخذ القراء في الأمصار البعيدة يختلفون في قراءاتهم وفي بعض الأداء . عند ذلك أمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعید بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، فنسخوا نسخاً من المصحف الموجود عند حفصة ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصاحفه وأن يحملها القراء إلى الأمصار ويقرئوا الناس على حرفها . وأرسل بالصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من المناطق البعيدة التي كانت تحت ظل الدولة الإسلامية كأرمينية وأذربيجان وغيرها من الأمصار الإسلامية ، ثم أمر بحرق كل النسخ الأخرى .

وهذا هو الجمع الثاني وسببه ، كما علمنا ، اختلاف المسلمين في وجوه القراءات حين قرأوه بلغاتهم على اتساعها . فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً ، ولما خشي من

(2) العُسْب : سعف النخيل . اللخاف : حجار رقيقة . الأكتاف : عظام اللوح من الحيوان .

(3) راجع فجر الإسلام لأحمد أمين وصحبي البخاري .

تفاقم الأمر ، أمر عثمان بن سعى تلك الصحف في مصحف واحد مرتب السور واقتصر على لغة قريش وحدها دون غيرها من اللغات⁽⁴⁾ .

وواضح مما قدمنا أن القرآن الكريم قد أحبط بسياج متين من المحافظة على نصه محافظه باللغة .

قراءات القرآن :

أمر عثمان أن يكتب القرآن بلغة قريش وحدها ، وجمع الناس على قراءة واحدة ، وقد عمل أصحابه بما أمكنهم العمل به ، غير أن تلك الجهات التي بعث إليها عثمان بهذا المصحف كان بها من الصحابة من كان يقرأ القرآن بقراءة تختلف قراءة المصحف العثماني ، وكان هذا حالياً من الشكل ومن ثم نشأ اختلاف من جديد بين القراء في الأمصار الإسلامية وكما هو معلوم أن العرب كانوا مختلفون في نطق الكلمات بالمد والتسهيل والإدغام والإظهار ، ونحو ذلك وفي طرق النطق والاداء ، وهذا ما أدى إلى اختلاف القراء في كيفية النطق ببعض الألفاظ القرآنية ، فتعددت القراءات ولكن على نحو لا يتربّ عليه تغيير في نص آيات القرآن وذلك ما لا ضرر فيه . والقراء السبعة الذين رووا القراءات السبع هم :

1 - عبد الله بن عامر 118هـ .

2 - عاصم الأسدى 128هـ .

3 - عبد الله بن كثير 130هـ .

4 - أبو عمرو بن العلاء 154هـ .

5 - حمزة بن حبيب 156هـ .

6 - نافع بن أبي نعيم 169هـ .

7 - علي بن حمزة الكسائي هـ .

هؤلاء أشهر القراء وهناك فرق بين قراءات القرآن السبعة والأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم .

فالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم . فالأحرف السبعة هي لهجات سبع

(4) راجع شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ص 26 .

من لهجات العرب والقرآن الكريم قد نزل بلغة العرب . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أُنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (طه : 113) .

ولما كانت لهجاتهم مختلفة باختلاف الأقاليم والقبائل ، في بعض نواحي النطق اقتضت الحكمة الألهية أن ينزل على نبيه مشتملاً على لهجات العرب المشهورة ، فالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فمعظمها نزل بلهجة قريش ، وقد كتب بها أيضاً ، وبعضه نزل بلهجة هذيل ولهجة اليمن فكتب بها .

وهذه الأحرف السبعة كان القرآن مكتوباً بها في عهد الرسول ، ولم يوجد منها شيء في مصحف عثمان ، لأنه كان مقصوراً على لهجة قريش وهذيل وثقيف ، وبني سعد ، وكنانة ، وأسد ، وقيس وأحلافها ، ثم ضعفت هذه اللهجات حتى زالت جميعها وبقيت لهجة قريش التي أصبح القرآن الكريم يتلى بها دون سواها .

الأسلوب القرآني

كتاب الله وكلام الله نزل بأسلوب فريد لم تسمع به العرب من قبل فقد به رهم رونقه ، وخلب أbabهم جرسه ووقعه ، وملك نفوسهم سحره بما فيه من جمال اللفظ وسمو البيان وبراعة الصورة وروعة الأداء ودقة التعبير .

على هذا النظام الفريد من الجلالة والنضارة ودقة الصوغ وسرعة النفاذ إلى أعماق القلوب ، وجمال الإشراق الذي يسحر العقول . ولما سمع العرب هذا النسيج الجديد تبحروا وأطالوا النظر إلى ما فيه من جمال رائع ، وسحر ساحر ، وبيان باهر . ﴿ إِنَّمَا يَنْهَا بَصَرُهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ فَقَالُوا مَا هَذَا الَّذِي يَطَّالَعُنَا بِهِ مُحَمَّدٌ ؟ أَهُوْ شَاعِرٌ شَاعِرٌ ، أَمْ سَاحِرٌ سَاحِرٌ ، أَمْ كَاهِنٌ كَاهِنٌ ، أَمْ أَسْتَعْرَاضٌ لِأَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ ؟ وَقَالُوا أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبْهَا وَهِيَ تَلَى عَلَيْهِ بَكْرَةً وَأَصْبِلَاهُ ﴾ (الفرقان : 5) .

وما كانوا يعلمون أن الذي راعهم وأعجزهم هو كلام رب العالمين ، صاغه معجزة نادرة تضعف وتخادل أمامه بلاغة فحول الأدباء من العرب . وقد تخدأهم القرآن الكريم ليأتوا بسورة مثله فعجزوا وضعفوا . قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَ الْإِنْسَانُ وَالْجَنُّ عَلَى أَنْ يَأْتِوَا بِمِثْلِهِ فَلَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانُ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُمْ ظَهِيرًا ﴾ (الاسراء : 88) . وقد كان العربي المعروف بصلابته وعناده ، والممعن في عته

(5) المجازات النبوية للشريف الرضي .

ووجهه يسمع ترتيل القرآن فيدخل على قلبه بلا إذن ولا استئذان ، ويملك عليه أسماعه بجهال وقوعه وحسن جرسه دون جهد من نفسه .

وهذا الذي بعث الرقة في قلب عمر بن الخطاب وأشاع في نفسه الطمأنينة والإرتياح عند سماعه سورة من القرآن .

وهذا عتبة بن ربيعة يذهب إلى رسول الله (ص) ليثنيه عن قصده ، ويرجع به عن رسالته ولا سمع بضع آيات منه عاد إلى قومه قائلاً لهم : « لقد سمعت منه كلاماً ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » .

وهذا فاتك من فتاك الليل سمع قارئاً يرتل في جنح الليل قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ففاقت قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (الحديد : 16) . فرق قلبه ، وخشع جوارحه فاجتذبه روعة القرآن وبلاعاته وسحره وصاح بأعلى صوته : قد آن يا رب . ثم أفلع عن سيرته الماضية وتاب عن معاصيه . وبعض الأعراب سمع قارئاً يقرأ الآية الكريمة : « فناصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين » (الحجر : 94) سجد راكعاً مسحوراً وقال : سجدت لفصاحته . والعرب كما هو معروف هم أهل بلاغة وبيان وفصاحة ولسان يتكلون ناصية اللغة العربية ويعلمون أسرارها .

وانصت بعضهم إلى قوله تعالى : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجبا ... » (يوسف : 80) فقال بعد سماعه أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على صياغة مثل هذا الكلام ! .

وسمع آخر قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفالاً تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنما لحق مثل ما أنكم تنتظرون » (الذاريات : 20 - 23) فصاح من أعماقه وقال : « يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقه بقوله حتى ألجأوه لليمين » .

هكذا كان يغزوا القرآن كل قلب بسحره وروعته ، وهكذا كان يصل إلى مكان الرضى والإعجاب من كل نفس بقوه وقوعه . ولا عجب ، فكل من ينصت إلى كلام رب العزة يلمع فيه إعجاز البيان ، وسمو التعبير ، وبلاغة الأسلوب . وعظمية القرآن الأدبية وقوته البينية تعودان إلى أسرار كثيرة ومزايا عظيمة نسجل بعضاً منها على سبيل الذكر .

بعض أسراره ومزاياه

١ - قوة في التصوير ، ودقة في التعبير ، وعمق في المعانى ، وبعد في التأثير لم ير العرب في ماضيهم وحاضرهم عبر تاريخهم الأدبى تصویراً أجمع لأطراف المعنى وأبلغ إثارة للمشاعر من تصویر القرآن الكريم . فأنـت ترى الصورة وكأنـك تلمسها بيـنك ، وتحسـ الراحة تدخل إلى نفسك والنشوة تسـرى في أنحـائك فتأملـ مثـلاً تصویرـه سبحانه وتعـالـى للحياة الدنيا مخـاطبـاً الـذين يـبغـونـ فـيـ الـأـرـضـ بـغـيرـ الحـقـ ﴿إـنـماـ مـثـلـ الـحـيـةـ الدـنـيـاـ كـمـاـ أـنـزـلـنـاـهـ مـنـ السـمـاءـ فـاـخـتـلـطـ بـهـ نـبـاتـ الـأـرـضـ مـاـ يـأـكـلـ النـاسـ وـالـأـنـعـامـ حـتـىـ إـذـ أـخـذـتـ الـأـرـضـ زـخـرـفـهـ وـأـزـيـنـتـ وـظـنـ أـهـلـهـ أـنـهـمـ قـادـرـونـ عـلـيـهـاـ أـنـاـمـنـاـ لـيـلـاـ أـوـ نـهـارـاـ فـجـعـلـنـاـهـاـ حـصـيدـاـ كـأـنـ لـمـ تـغـنـ بـالـأـمـسـ كـذـلـكـ نـفـصـلـ الـأـيـاتـ لـقـومـ يـتـفـكـرـونـ﴾ (يونس : 24) ثم انظر إلى هذه الصورة القبيحة التي تصف الضالـ الغـاوي وصفـاً تختـلـجـ لـهـ الـأـعـضـاءـ وـتـضـطـرـبـ الـمـفـاـصـلـ . قالـ تعالى : ﴿... لـكـنـهـ أـخـلـدـ إـلـىـ الـأـرـضـ وـاتـبـعـ هـوـاهـ فـمـثـلـهـ كـمـثـلـ الـكـلـبـ أـنـ تـحـمـلـ عـلـيـهـ يـلـهـتـ أـوـ تـرـكـهـ يـلـهـتـ ذـلـكـ مـثـلـ الـقـوـمـ الـذـيـنـ كـذـبـواـ بـآـيـاتـنـاـ فـاقـصـصـ الـقـصـصـ لـعـلـهـمـ يـتـفـكـرـونـ﴾ (الـاعـرـافـ : 175) .

أـوـ قـولـهـ تـعـالـى مـخـاطـبـاً اـبـنـ نـوـحـ الـذـيـ عـصـيـ أـمـرـيـهـ : ﴿وـقـيلـ يـاـ أـرـضـ اـبـلـعـيـ مـاءـكـ وـيـاـ سـيـاءـ اـقـلـعـيـ وـغـيـضـ الـمـاءـ وـقـضـيـ الـأـمـرـ وـاستـوـتـ عـلـىـ الـجـوـدـيـ وـقـيلـ بـعـدـاـ لـلـقـوـمـ الـظـالـمـيـنـ﴾ (هـودـ : 44) .

الـلـهـ أـكـبـرـ مـاـ هـذـاـ التـصـوـيرـ الـذـيـ تـرـتـدـ لـهـ الـفـرـائـصـ وـتـخـرـجـ الـنـفـوسـ عـنـ صـمـتـهـاـ مـاـ يـرـازـوـهـاـ مـنـ خـوفـ وـذـعـرـ .

أـوـ قـولـهـ تـعـالـى مـنـ باـعـواـ الـهـدـىـ بـالـضـلـالـةـ : ﴿أـوـلـئـكـ الـذـيـنـ اـشـتـرـواـ الـضـلـالـةـ بـالـهـدـىـ فـهـاـ رـبـحـتـ تـجـارـتـهـمـ وـمـاـ كـانـواـ مـهـتـدـيـنـ . مـثـلـهـمـ كـمـثـلـ الـذـيـ اـسـتـوـقـدـ نـارـاـ فـلـمـاـ أـضـاءـتـ مـاـ حـوـلـهـ ذـهـبـ الـلـهـ بـنـورـهـ وـتـرـكـهـمـ فـيـ ظـلـمـاتـ لـاـ يـصـرـونـ﴾ (الـبـقـرةـ : 16ـ 17) .

مـنـ عـادـةـ التـاجـرـ يـبـعـ لـيـرـبـعـ أـمـاـ هـمـ فـقـدـ باـعـواـ الـحـسـنـ بـالـرـدـيـ وـالـجـيـدـ بـالـقـيـعـ فـمـثـلـهـمـ كـمـثـلـ الـذـيـ يـنـيرـ الـطـرـيقـ لـغـيـرـهـ وـيـقـىـ هـوـ فـيـ الـظـلـامـ الدـامـسـ .

وـالـحـكـمـةـ الـأـلـهـيـةـ اـقـتـضـتـ بـضـرـبـ الـأ~م~ث~الـةـ الـو~اق~ع~يـةـ الـحـسـيـةـ الـو~اض~حـةـ كـلـ الـوضـوحـ لـكـلـ مـنـ رـزـقـ حـظـاـ بـسـيـطاـ مـنـ بـصـرـ أوـ بـصـيـرـةـ فـلـعـلـهـمـ يـهـتـدـونـ . أـمـاـ الـمـؤـمـنـوـنـ الـذـيـنـ اـهـتـدـواـ إـلـىـ عـبـادـةـ رـبـهـمـ الـوـاحـدـ الـأـحـدـ الـفـرـدـ الصـمـدـ ، وـالـذـيـنـ عـمـلـواـ الـصـالـحـاتـ ، فـقـدـ بـشـرـهـمـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ بـأـحـسـنـ بـشـرـىـ وـأـفـضـلـهـاـ . قـالـ تـعـالـى مـخـاطـبـاً الـمـؤـمـنـيـنـ : ﴿وـبـشـرـ الـذـيـنـ آمـنـواـ

و عملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهر كلها رزقا منها من ثمرة رزقا
قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولم فيها أزواج مطهرة وهم فيها
خالدون » (البقرة : 25) فمن لا يهتز نشوة حين يسمع مثل هذا القول وكأنه يحس
بالراحة تدخل إلى قلبه والغبطة تسرى في جوارحه فتفعمه طرباً ونشوة فهذا هو نعيم
المتقين وهذه هي سعادة المؤمنين .

وهكذا نرى في كل الصور القرآنية لوحات فنية رائعة خالصة التصوير يجول فيها
الفكر وينعم بها الذوق وتهداً بها الحواس . فأتت إلى جانب سمو البيان إبداعاً في
الصياغة والتعبير وإحكاماً في النظام والتدبر ، ودقة في التصوير والتمثيل .

2 - روعة الحكم والأمثال : تتدفق في جوانب القرآن الكريم مختلف الحكم التي
بلغت من الدقة في التصوير والصدق في التعبير مبلغاً لا ترقى إليه حكمة . حكمة بلية
موجزة جاءت إعجازاً من الفرائد التي لا يداريها بلية منها أوي من صفاء الذهن وروعة
البيان . فتأملوا أيها العرب البلوغ هل يدور في خلدمكم أدق وأروع تصوير للجماعة
الفاشلة في تجمعها والمخادعة في حياتها من هذا القول الكريم « بأسهم بينهم شديد
تحسبيهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » (الحشر : 14) . وهل وجد
العرب أسمى حكمة وأجل أدباً من وصفه تعالى للمؤمنين ؟ « والذين لا يشهدون
الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما » (الفرقان : 72) .

وهل هناك من وصف للحياة الدنيا فيه الإيجاز البليغ أكثر من قوله تعالى !
فلا مرية في الأمر إنه خير القائلين . قال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلا ملوّع
وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون » (العنكبوت : 64) .

وهل أقرب تصويراً للطبائع البشرية واعتزاز كل جماعة بما عندهم وفرحهم بما
لديهم كما هو حاصل اليوم ؟ قال تعالى في أمر هؤلاء : « من الذين فرقوا دينهم و كانوا
شيعاً كل حزب بما لديهم فرحة » (الروم : 32) .

أما الأمثال فقد وردت كثيرة والحكمة فيها أنها أقرب إلى الإقناع بعد الشرح
والتعليق وبعد البيان والتحليل .

جاء المثل وليد التجربة الحياتية الواقعية المعاشرة بعبارات قريبة المتناول لكنها بعيدة
المرمى ، يهدف إلى الصلاح والإصلاح ، عل الإنسان يتحسن به ويستفيد من
مضمونه .

قال تعالى في شأن الكلمة الطيبة : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة

كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤكِّدُ كلها كل حين يأذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴿ (ابراهيم : 24 و 25) . فتأمل هذه البلاغة في التعبير الطيب الذي يطابق بين الكلمات وخير الحياة حتى كأن « الكلمة الطيبة شجرة طيبة » أو كأن الشجرة المشمرة كلمة طيبة الأثر . . . فمقياس أصالة الإنسان : ابتهاء الأكل ، أي إعطاء الشمر الطيب ، الذي يعطي تناوله الصحة والنماء . . . هذا المقياس الأصيل الذي يبرهن واقعية الوجود الإنساني في المجتمع والتاريخ وفي الطبيعة والزمان . . فالشجرة التي لا تثمر تفقد صلتها بالأصل الثابت في الوجود وكذلك هي حال الكلمة التي لا تأثير لها تفقد صلتها بأم الكتاب . . القرآن الكريم .

والكتاب في اصطلاح الوحي المقدس ، يعني القرآن ، والإنجيل ، والزبور ، والتوراة ، ويعني ما تحدده تلك الكتب لهذا اللفظ في ميادين الحياة التي يمارسها الأحياء في الدنيا والتي تفتح فيها طاقاتهم خيراً كثيراً أو قليلاً .

أما الكتب التي بين أيدينا ، كتب القراءة ، فهي صحف سطر عليها كلمات متفاوتة المستويات ، قرباً من الكتاب الأصل الأزلي المشمر ، أو بعيداً عنه وانحرافاً إلى شجر بلا ثمر ولغو بلا أثر ، ويشر ولا بشر !

وقال تعالى مكملاً الصورة الحقيقة لواقع الكلمة ووقعها : ﴿ وكلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ (ابراهيم : 26) فالمتكلّم بكلمة خبيثة اجتث من المجتمع البشري وكأنه غير موجود بين الأحياء . فهو حي ميت ، جسمه حي وجوده ميت ساقط .

أما فيما يعود إلى الاقتصاد ، فقد وضع الإسلام ميزان الإعتدال فلا بخل ولا إسراف ، ولا حرمان ولا تبذير . قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ (الاسراء : 29) .

والإسلام دين محبة وسلام ودين تواضع وأخلاق إنسانية عالية ، فقد رفض التكبر والتعالي على الآخرين وأمر بالتواضع . أما الذين في طبعهم رواسب من السوء فلا يستطيعون إخفاء ذلك ، وسرعان ما يظهرون على حقيقتهم عند النعمة أو عند النومة . قال سبحانه وتعالى فيهم : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بعجائبه وإذا مسه الشر كان يؤوساً . قل كل يعمل على شاكلته . . . ﴾ (الاسراء : 83) ولا يزال هذا المثل « كل ي العمل على شاكله » يجري على الألسن عند عامة الشعوب العربية .

٣ - حسن وقع الكلام : يقال لكل مقام مقال فللايجاز ضرورة عند المخاطبة ، وللإطناب ضرورة أيضاً عندما يريد الخطيب الشرح والتفصيل . وهذا هو سر البلاغة في اللغة العربية . فكيف إذا كان الكلام من رب العالمين وإذا كان صاحب الكلام النبي محمد (ص) سيد المرسلين ؟

ففي المواطن التي تستدعي الإطناب والشرح والتحليل نجد القرآن يشقق ألواناً من الكلام تميل إليها النفس وينصت لها الوجدان حتى إننا نرى قصة كاملة مفصلة تفصيلاً أدبياً رائعاً .

ففيما ورد في قصة النبي يوسف (ع) نلاحظ ألواناً شتى من الإنفعالات والعواطف ، والغضب والرضا ، والحب والخذلان والبغض والغيرة . ذلك كله نلمسه إثر الإطناب من أجل الإحاطة بالموضوع ودقة التصوير . قال تعالى : ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أباي إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتمهم لي ساجدين . قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أنها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربكم عليم حكيم . لقد كان في يوسف وأخوه آيات للسائلين إذ قالوا ليوسف وأخوه أخوه إلى أبيينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطروحه أرضاً يخل لكم وجه أيكم ونكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كتم فاعلين . قالوا يا أباينا ما لك لا تأمننا على يوسف وإننا له لنناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له لحافظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لثن أكله الذئب ونحن عصبة إنما إذا لخاسرون . . .﴾ (يوسف : ٤ - ١٤) .

وإذا تأملنا سورة الرحمن وجدنا التكرار في نهاية كل آية ﴿فبأي آلاء ربكم تكذبوا﴾ وذلك لتجديد الإقرار بالنعم التي أسبغها الرحمن على عباده والتي من واجبهم الشكر عليها .

وفي سورة المرسلات نجد التأكيد على إقامة الحجة والإعذار . يقول تعالى : ﴿فإذا النجوم طمست ، وإذا الساء فرجت ، وإذا الجبال نسفت وإذا الرسل أفتت ، لأي يوم أجلت ، ل يوم الفصل ، وما أدرك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم يهلك الأولين ثم تتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بال مجرمين ، ويل يومئذ للمكذبين﴾ (المرسلات : ٨ - ١٩) .

وهكذا تتوالى الآيات . . . وتنتهي ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ لتأكيد الحجة وإثباتها على الجاحدين لفضل الله وذلك حتى يرتدعوا عن غيهم أو يذوقوا عذاب الآخرة يوم الفصل حيث لا مجال للتبرير أو التراجع عنها اقترفوا من آثام في الدنيا ﴿ هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

هذه الموضع وأمثالها تستدعي الإطناب والتفصيل لأن المقام يتطلب مثل هذا المقال .

أما في الموضع التي تستدعي الإيجاز وتتطلب الاختصار والقصر ، فالقرآن الكريم ، المعجزة في البلاغة ، فقد وضع اللفظ بإزاء المعنى ، وأشار بالإشارة العابرة إلى ما لا ينتهي من المعانى السامية . ولا يخفى أن الإيجاز في موضعه ونكثيف المعنى من أدق المواطن التي تستعين بها بلاغة البلغاء ، وتبين قيمتهم الفنية ، وتسوّج قيمهم الأدبية . قال بعض النقاد : المعانى أجساد والألفاظ لباس لها ، ويجب أن تفصل الألبسة على مقادير الأجساد تماماً .

وقال البعض الآخر : الألفاظ أجساد والمعانى أرواحها والأديب البليغ هو الذي يوفق بين الأرواح والأجساد فتأتى منسجمة تمام الإنسجام ومتواقة على أكمل ما يرام .

واننا نجد القرآن الكريم قد أحكم وضع اللفظ بإزاء المعنى إحكاماً لائقاً منسجماً فيه الجمال الجميل والجلال الجليل حتى يكاد السامع يخسر ساجداً لهذا البيان المشرق ، والتعبير البليغ ، والأسلوب الخلاب . من ذلك نورد بعض الأمثلة على سبيل الذكر لا الحصر . قال تعالى : ﴿ ولهم في القصاص حياة يا أولي الألباب ﴾ (البقرة : 199) ولا ريب أن هذه الآية هي عنوان كبير في التربية والأخلاق ، ورصيد كامل شامل تتفق منه فصول مهمة في تربية أفراد الأمة .

وقوله سبحانه وتعالى مخاطباً النبي المصطفى عندما دعا الناس إلى الهدى فلم يسمعوا ولم يستجيبوا لنداء رب العالمين : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ (الأعراف : 198) . فتأمل هذا الإيجاز الذي ما بعده إيجاز غيره ، فعل أمر مع مفعول به وهكذا تتوالى ثلاث جمل موجزة مختصرة بأية واحدة هي آية في البلاغة والإيجاز .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (الإحراق : 13) .

وقوله تعالى : ﴿ فاصدح بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (الحجر : ٩٤) .
وتباع قوله تعالى مخاطباً رسول الله (ص) بما يعود على المشركين : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ (الحجر : ٩٥) .

وقوله تعالى في الهدية والضلالة : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌ وَمَنْ يَضْلِلْ فَلَنْ يَجِدْ لَهُمْ أُولَيَاءٍ ﴾ (الإسراء : ٩٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صَدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرُجَ صَدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء : ٨٠) .

وقوله أيضاً : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهْوًا ﴾ (الإسراء : ٨١) .

وكذلك نجد إيجاز الحذف والاختصار في كثير من الآيات لا يخصيه العدد مثل قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زَمِرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وُفِّتَحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ (الزمر : ٧٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنْ قَرَآنًا سَبَرْتَ بِهِ الْجَبَالَ أَوْ قَطَمْتَ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كَلَمْ بِهِ الْمَوْقِعَ . . . ﴾ (الرعد : ٣٣) لقد حذف الجواب وذلك حتى تذهب فيه النفس كل مذهب وتختار ما يناسب فكرها وضميرها من الجواب .

وهكذا يبدو لكل ذي بصر وبصيرة أن أسلوب القرآن الكريم قد تميز عن أساليب العرب المعروفة بما تهيأ له من حكم عالية ، وصور رائعة ، ومعانٍ سامية ، وارتباط وثيق بين سمو المعانٍ وعدوبيّة الألفاظ . ويكتفي فيه أنه أسلوب رب العالمين وخالق الخلق أجمعين ، جلت قدرته ، وعظم صنعه ، وسمت معجزته .

هذا ولم ينجز على مأثور نثر العرب المسجع الملزم ، ولا شعرها الموزون المقفى ، بل هو آيات وفواصل يشهد الذوق السليم وتفيد البلاغة العربية بانتهاء الكلام عندها . فتارة يكون سجعاً طبيعياً سائغاً ، وطوراً تكون موازنة ومطابقة وازدواجاً ، وأحياناً لا هذا ولا ذاك بل أسلوب قرآني وكفى والأسلوب القرآني نموذج فريد وقع على أسماع العرب المعروفين بفصاحتهم وبلاغتهم عند الأمم ، ونمط جديد من البلاغة والروع ، وحال ساحر من عبقرية التصوير وحال التعبير ، أسلوب جمع بين الجزلة والسلامة والقوة والعدوبيّة فضم البلاغة من كل أطرافها وكان المعجزة .

بلاغة القرآن الكريم

إنه أبلغ أثر أدبي عرفه العرب عبر العصور ، وأفصح كتاب سماوي نزل به الوحي على أبلغ العرب لساناً ، وأروعهم أسلوباً ، وأطبعهم على البلاغة والبيان . ليس في دنيا العرب كلام عربي يرتفق إلى منزلة القرآن في الفصاحة والبيان . على أن العرب اشتهروا بهذا الفن ، فن القول ، في الشعر ، والنشر ، والخطابة ، والقصص ، والحكم والأمثال ، والوعظ والوصايا ، ومع ذلك وقفوا عاجزين أمام سحره وبلاستيكته قبل نزول القرآن وبعد نزوله حتى اليوم ليس هناك كلام عربي يضارعه بلاغة وجماًلاً وسماء وجلاً .

وقد حاول كثير من أدباء العرب معارضته القرآن أو تقليده فعجزوا وذلوا ووقفوا أمام بلاغته حائرين . إلى مثل هؤلاء جاء قوله تعالى يخاطبهم متحدياً أن يأتوا ولو بسورة واحدة مثله :

﴿ وإن كتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كتم صادقين ﴾ (البقرة : 23) .

ومع ما وصل إليه علماء البلاغة حتى اليوم من معايير لقياس بلاغة الكلام وفصاحتته ، وبأي معيار عايروا القرآن يبقى كتاب الله في الدرجة العليا من البلاغة ، يهدى إلى ذلك الذوق والطبع . وقد ذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أن بلاغة الكلام في نظمها ، فالمزية هي لتأليف الكلام ، وضم بعض أجزائه إلى بعض ، وتحير كلماته وحسن مقاطعه ، مراعياً في ذلك كله مقتضيات الأحوال . والقرآن الكريم من ذلك كله في الطبقة العليا من طبقات نظم الكلام وحسن صياغة الأسلوب .

سمعه البلغاء فخرروا ساجدين لبلاغته ، والفصحاء فاذعنوا معجبين لفصاحتته وقالوا : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ (المدثر : 24) ولما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (النحل : 90) . فقال : والله إن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لغدق ، وإن أعلىه لثمر ، وما هو يقول بشر⁽⁶⁾ .

فعناصر البلاغة بكل دقائق بيانها وبكل أسرار ذوقها الأدبي تمثل جميعها في القرآن

(6) راجع تفسير الزمخشري في سورة المدثر ، ومغدق : كثير المياه .

الكريم . فوضوح في الكلام مع تلاؤم مفرداتها ، واستعمال أضرب الخبر في وجوهها ومقاماتها ، والخذف في موضعه والذكر في موضعه ، والتقديم والتأخير حسب مقتضى الحال والتعريف والتنكير في المكان المناسب ، كل في المقام الذي يستدعيه ثم تجد القصر ، والوصل ، والفصل ، والإيجاز ، والإطناب في الموضوع الذي يستدعيه . وكذلك تجد الإستعارة والتشبيه والكتابية والتمثيل ، والمجاز بكل ضروريه قد أتى كل منها على أدق ما يكون الكلام والطبق وال مقابلة ، والسجع والجناس ، قد استعمل استعمالاً لائقاً يسهل فهجمه ويصعب تقليله .

أما القسم فقد أتى أيضاً في موضعه على أتم ما تكون البلاغة . فتأمل قوله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

أو قوله تعالى : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ أو قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها ، والنهر إذا جلاها ﴾ أو قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهر إذا تحلى ﴾ و﴿ والتين والزيتون . . . ﴾ فسوف تجد جمالاً ساحراً يأخذ بباب العقول ، وبياناً عبرياً يتجاوز حد المعقول ، ولا عجب فهو كلام الخالق وليس بكلام مخلوق . كلام رب العالمين الذي نزل على الرسول المصطفى الأمين . الله أكبر ! ما هذا السحر الساحر ، وهذا النور الباهر ، كلام عجيب وسحر غريب ومنطق فريد .

وقد حلل النقاد والبلغاء بعض الآيات القرآنية الكريمة كالجرجاني والزخيري والسيد قطب وغيرهم ، من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جيعاً قبضته يوم القيمة والسماء مطويات بيسمته ﴾ (الزمر : 67) .

وقوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الفضب ﴾ (الأعراف : 154) .

وقوله تعالى : ﴿ رب إني وهن العظم مبني واشتعل الرأس شيئاً ﴾ (مريم : 3) .

وقوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجرها ومرساها إن رب لغفور رحيم ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادي نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال ساوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينها الموج فكان من المفرقين . وقيل يا أرض ابلغي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ (هود : 41 - 44) .

هذا غيض من فيض فهناك الكثير من المجازات والاستعارات ، والتشبيهات والكلنائيات كلها مصوغة ببلاغة فريدة نادرة تأخذ بمجامع القلوب بما فيها من بلاغة وفصاحة هذا الكتاب الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

القرآن حصن قوي للغة العربية :

بين ظلال القرآن الكريم والإسلام الرحيم تلازم قديم ، وبين انتشار الإسلام وازدهار العربية تلازم أيضاً . وقد أصبحت عالمية وخالدة بخلوده ، واتسعت شبكتها باتساع نفوذه . وبذلك كانت عوناً للإسلام كما كان عوناً لها ، وستظل أداة طيبة لنشر الفكر الإسلامي . جاء في كتاب للدكتور مازن مبارك :

« هل عرف العالم إسلاماً بلا قرآن؟ وهل عرف العالم قرآناً بغير العربية؟ ثم تابع قائلاً : إن ارتباط كتاب سماوي مقدس بلغة بعينها - كارتباط الإسلام باللغة العربية - أمر لم نعرفه لغير هذا الدين ولغير تلك اللغة ، وإذا كان غير القرآن من الكتب السماوية - كالإنجيل مثلاً - قد ترجم إلى لغات كثيرة وبقي على ما هو عليه من كونه كتاباً تعبدياً مقدساً ، فإن القرآن بلفظه ونصبه ، لم يتم ترجم ولا يمكن أن يتم ترجم ، وإن ترجمة أفكاره ومعانيه ، وإن أفكاره ومعانيه لا تسمى قرآناً ، ولا يصح أن تكون - في الإسلام - كتاباً تعبدياً لأن القرآن ليس قرآناً بأفكاره ومعانيه فقط ، وإنما هو بالمعنى والألفاظ والأسلوب ، بالنظم والأفكار جميعاً ، وإذا كانت لدى غير المسلمين صلوات تتلى بغير لغة الكتاب المقدس ، فإن الحكم الشرعي في الإسلام : « أنه لا صلاة بغير اللفظ العربي للقرآن »⁽⁷⁾ .

وكما يتضح لنا أن الارتباط بين العربية والقرآن أمر واقعي وفرض مقرر ، والمنفعة متبادلة بين انتشار الإسلام الذي أدى إلى انتشار العربية أو انتشار العربية الذي أدى إلى انتشار الإسلام .

والحقيقة أن الذين يدركون حقيقة هذا التلازم بين العربية والإسلام هم مسلمون ملتزمون بالإسلام ديناً وشريعة ومنهجاً ، مؤمنون بوحدة الأمة العربية الإسلامية ، ووحدة وطنها ، ووحدة فكرها ، يسعون إلى تحقيق ذلك كله على هدى وبصيرة . وبذلك يكتمل القول بتجرد موضوعية ، « إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله » .

وقد عبر عن ذلك الإمام والعالم المعروف ابن تيمية في كتابه : « اقتضاء الصراط

(7) راجع نحو وهي لغوي ص 125 .

المستقيم⁽⁸⁾ . ولا ريب أن الإسلام قد اتخذ العربية لغته الدينية الرسمية لأنها لغة الرسالة الشاملة وأداة الإسلام لنشر لعدالة والسلام بين أمم الأرض قاطبة .

وبذلك فالعربية ليست لغة الوحي فقط وليس لها النبي (ص) فقط بل هي لغة الوحيدة الشاملة الفعلية للأمة جماء المسلمين الناطقون باللسان العربي المبين ليسوا وحدهم مسؤولين عن تعزيزه ونشره وإذاعته ، بل المسلمين جميعاً - أيًّا ما تكن لغتهم⁽⁹⁾ - مسؤولون بالمستوى نفسه عن هذه القضية البالغة الأثر في الحياة الإسلامية . وذلك لتحقيق المهد للدين الحنيف ورسالة الإسلام . ولا يخفى ما للتطور الاجتماعي من أثر في أن القرآن الكريم والحديث الشريف أتاحا لهذا التطور الفرصة الذهبية لأخذ مجراه من بابه الواسع . فالإسلام أضفى على اللغة العربية طابعاً من « القدسية » حين اعتبرها وسيلة التعبير المثلى عن رسالته العالمية الخالدة . وهو وإن ظهر في بيته عربية خالصة لم ير منافساً لها لغة من اللغات الأخرى في البلدان الواسعة التي افتحتها .

والإسلام كما هو واضح في رسالته الإنسانية يرفض التمييز العنصري ويرفض القبلية والطائفية والحزبية ، ويصرح بعده آيات كريمات إلى دعوته العالمية ونزل القرآن باللسان العربي المبين . قال تعالى : ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ رُوحَ الْأَمِينِ عَلَىٰ قَلْبِكُمْ لَتَكُونُ مِنَ الْمُنْذَرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مَبِينٍ ﴾ (الشعراء : 193 - 195) . فالله سبحانه وتعالى يشيد بهذا اللسان العربي وهذا ما يوحى إلى كل العرب في أي زمان ومكان بالفخر والاعتزاز . يؤكد ذلك ما جاء في سورة النحل وسورة الرعد وسورة يوسف وسورة طه وسورة الشعراء ، وسورة فصلت كلها تصف القرآن بأنه نزل بلسان عربي .

وإذا راجعنا التاريخ وجدنا كل الواقع ثبت أن اللغة العربية في كل الأقاليم التي افتحتها الإسلام ، فرضت نفسها بصورة تلقائية ولم تحتاج بأي شكل لأي لون من ألوان الدعاية . والذي ساعد على ذلك أن الفاتحين الأوائل كانوا من العرب الخلص الذين لم تشب لسانهم أي شائبة أو لحن ، فيسر لهم هذا فهم اللغة القرآنية واستخراج الأحكام الشرعية من المصدر الإسلامي الأصيل . وكان لزاماً على غير العرب تعلم اللغة العربية واتقانها والتتفقه في أسرارها وصفاتها ومميزاتها .

قال في ذلك العالم المعروف ابن تيمية : « فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي ،

(8) اختصار الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم ص 96 .

(9) من رجال فكر وحضارة وتاريخ واجتماع وعلماء ولغة من غير المسلمين كالستشرقين ومنهم المستشرق الفرنسي ماسينيون الذي تأثر بابن تيمية وأخذ عنه .

وجعل رسوله مبلغاً عنه والحكمة بلسانه العربي ، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به ، لم يكن سبيل إلى حفظ الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان ، وصارت معرفته من الدين ، وصار اعتماد التكلم به أسهل على أهل الدين ، وأقرب إلى إقامة شعائره ومشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار⁽¹⁰⁾ .

ولم تقتصر إجادة العربية على العرب الأصيلين فقد برع فيها وأتقنها إتقاناً كاملاً العجم حتى أدركوا كنهها وصاروا من أئمتها . قال ابن خلدون : « إن عرض لك ما تسمعه من أن سبويه الفارسي والزنخشري وأمثالهم من فرسان الكلام ، كانوا أعجاماً مع حصول هذه الملكة لهم .. إنما كانوا عجباً في نسبهم فقط .. فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها ، وكأنهم في نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم ، حتى أدركوا كنه اللغة ، وصاروا من أهلها ، فهم وإن كانوا عجباً في النسب فليسوا بأعجمان في اللغة والكلام ، لأنهم أدركوا الملكة في عنوانها ، واللغة في شبابها » .

فاللغة العربية كانت أداة توحيد بين كل المسلمين وكل من تكلم بها وأتقنها . قال الإمام محمد رشيد رضا : « نودي بالصلة جامعة . واجتمع الناس وخطب فيهم النبي (ص) قائلاً : « أيها الناس ، إن رب واحد ، وإن الدين واحد ، وليس العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي »⁽¹¹⁾ .

وقال (ص) : « أحب العرب لثلاث : لأنني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة عربي »⁽¹²⁾ . ولعل من هذا الحديث استنتاج الفارابي في « ديوان الأدب » « هذا اللسان كلام أهل الجنة »⁽¹³⁾ .

تعلم العربية واجب :

العربية هي لغة القرآن وهي بالتالي شعار الإسلام وعلى العربي أن يجعلها لغته الأم ولا يفضل اللغات الأجنبية الأخرى عليها ، كما حدث في البلدان العربية التي احتلها المستعمرون وفرضوا لغتهم على العرب كالفرنسيين والإنجليز . ولا ريب أن التكلم باللغات الأجنبية ليس منوعاً أو حراماً ولكن تفضيل الأجنبية على العربية أمر مكرور .

(10) اقتضاء الصراط المستقيم ص 162 .

(11) الولي المحمدي ص 230 .

(12) اقتضاء الصراط المستقيم ص 75 .

(13) المزهري 1 ص 342 .

أكد فقهاء الإسلام من أنتمنا أن العربية لم تكن أداة توحيد بين المسلمين فحسب ، بل كانت أيضاً من الزاوية الشرعية ، اللغة الوحيدة التي يفضل الدين استعمالها .

من هؤلاء الفقهاء شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 هـ) كان من أشد العلماء حاسة لهذه القضية . فقد دعا بصوت عال إلى التعود على التكلم بالعربية ، والتعبير بها بيسر وسهولة . ورأى أنها الوسيلة الوحيدة التي تلقن للأطفال في البيت والمدرسة⁽¹⁴⁾ .

من هنا علينا أن نحذر الزوج بالاجنبيات اللوالي لا يعرفون التكلم بالعربية فيعلمون أولادهن بلغاتهم وتصبح العربية لغة أجنبية وبذلك يدخل اللحن إلى العربية ويفسد اللسان العربي ، وهذا ما حصل في العصور العباسية عند اختلاط العرب بالروم والفرس ، وهو ما يحصل اليوم عند شبابنا العرب الذين يتخصصون في بلاد الغرب فيأتون بشهادات أجنبية وزوجات أجنبيات وأولاد يلحنون . . .⁽¹⁵⁾ لذلك يرى ابن تيمية وغيره من علماء الإسلام أن تكون العربية وحدها لغة الدولة والجيش⁽¹⁶⁾ ، ويزيد قائلاً :

وإن من الإثم - البالغ حد النفاق - أن يتكلم مسلم بغير العربية ، وأن من أسوأ الأشياء ، في البيع والشراء ، أو عادلة الأصدقاء أو المذكرة في أمور الدين ، أن يتكلم المسلم بغير العربية⁽¹⁷⁾ .

وهذا ما يحصل في مجتمعاتنا المتطرفة حيث يعتبرون أن التحدث بالأجنبية في الاجتماعات والمهارات والحياة الاجتماعية هو من معايير التقدم والحضارة الحديثة . فنشأ عندهم جيل ينطق بالفرنكو- عربي Franco-arab . كما في الجزائر وتونس والمغرب ولبنان . . .

أما الصلاة ، وقراءة القرآن ، وذكر أسماء الله الحسنى ، فلا يجوز منها شيء بغير العربية ، إلا من كان عاجزاً عن فهم هذه اللغة عجزاً مطلقاً ، وتعلم العربية واجب على كل مسلم قادر ، ما دام فهم الكتاب والسنة متوقفاً عليها⁽¹⁸⁾ .

(14) الاقتضاء لابن تيمية ص 98 .

(15) الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

(16) المصدر نفسه ص 97 .

(17) المصدر نفسه ص 98 .

(18) المصدر نفسه .

ويفيدنا التاريخ أن العرب المسلمين لما افتحوا البلاد الأجنبية علموا العربية لأهلها ، ففي الشام ومصر كانت لغتهم الرومية ، وفي العراق وخراسان كانوا يتكلمون الفارسية ، وأما أهل المغرب فلغة أهلها البربرية . فقد عودوا أهل هذه البلاد على التكلم بالعربية ، مسلّمهم وكافرهم . ولكن أهل خراسان تساهل أهلها في أمر اللغة واعتادوا التخاطب بالفارسية حتى غلبت عليهم ، لذلك صارت العربية عند كثير منهم وكأنها مهجورة وهذا بلا ريب أمر مكروره .

لذلك قال ابن تيمية بهذا الشأن : « وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية حتى يتلقفها الصغار في الدور والمكاتب ، فيظهر شعار الإسلام وأهله ، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنّة وكلام السلف ، بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن يتقل إلى أخرى فإنه يصعب عليه .

واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً ، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشايعهم تزيد العقل والدين . وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنّة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب »⁽¹⁹⁾ .

والمشكلة التي نعاني منها اليوم في كل قطر من أقطارنا ، ازدواجية اللغة ، فلو رجعنا إلى عقائدهنا ومشاربنا لرأينا من الواجب علينا أن نتكلم بلغة عربية واحدة ، لأنها هي التي تصور شخصيتنا من الهجنة والمياغة والضياع ، فكما أن للإنسان أمّا واحدة ، فإن لغته الأم هي واحدة وليس لها لغتين . ولكن ، مع الأسف الشديد ، نرى فريقاً من أبناء بعض الأقطار العربية يصر على أن يجعل من اللغة الأجنبية لغة أم ثانية .

ففي لبنان مثلاً كما في تونس والجزائر والمغرب تغلغلت في مجتمعنا ثقافة الفرنسيين طوال فترة الانتداب ، كما تغلغلت ثقافة الإنكليز في أقطار أخرى كالعراق والأردن . . . حتى غدت لغتنا الأم « ثالوثاً » من اللغات الأمهات . وهذا بلا ريب أمر مكروره ومرفوض لأنه يضعف من وطنيتنا ويجهن لغتنا ، الرباط الوثيق بيتنا ، ويعيق سير حضارتنا التي هي جزء من الحضارة الإنسانية .

ونحن ننظر إلى أي لغة أجنبية كانت ، على أنها أداة لاكتساب المعرفة تتبع بها تيارات الفكر العالمي فنعني ثقافتنا بالإطلاع على الثقافات الأخرى دون أن نهمل لغتنا

(19) الاقتضاء ص 96 .

العربية الأم وسيلة المعرفة الختامية لعقيدتنا وديتنا ، وسبيل توثيق العلاقات بين صفوتنا ، وأداة معرفة تراثنا العربي العريق الذي كان وما زال نور هداية لنا ولسائر الأمم في العالم .

القرآن حصن قوي للغة العربية

إعجاز القرآن الكريم

لقد أيد الله خاتم النبيين والرسل محمد بن عبد الله (ص) بمعجزة حسية وعقلية خالدة ، وهي إِنْزَالُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ وَحْيًا مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، ذلك الكتاب لا ريب فيه لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه ، والذي لو اجتمع الناس والجهن على أن يأتوا بمثله لم يستطعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وكان عصره (ص) قد سما فيه البيان وجلت مكانته عند أهله الذين عرفوا باللسن والفصاحة والبيان والبلاغة والقدرة في الإبارة عن مشاعرهم وخوالج نفوسهم . وقد استمر الرسول يتحداهم بما كانوا يعتقدون في أنفسهم القدرة عليه ، فقرّعهم بعجزهم عن الإتيان بمثله ، أو حتى عن الإتيان بسورة واحدة أو آية واحدة . قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَ الْإِنْسَانُ وَالْجَنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتِيَا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء : 88) وقال تعالى أيضًا : ﴿ وَإِنْ كَتَمْتُمْ فِي رِبِّ مَا نَزَّلَنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَاتَّوْا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ وَادْعُوا شَهِداءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كَتَمْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : 23) .

إن القرآن معجزة باقية على الزمن ، والتحدي باق معها على الزمن فهو تحد لأهل كل عصر كما كان لعصر زمانه . وقد حبّا الله الرسول العربي برسالة الإسلام ، مؤيداً بدلالة على الأيام باقية ، وعلى الدهور والأزمان ثابتة ، وعلى عمر الشهور والسنين دائمة . يزداد ضياؤها على مر الدهور إشراقة ، وعلى مر الليالي والأيام اشلاقاً ومن الطبيعي أن يستكين العرب أمام هذه المعجزة التي علت على كل (20) معجزة من البلاغة والبيان ، وهي ذروة ليس لها في اللغة العربية سابقة ولا لاحقة تشتمل على مثل هذه الفصاحة والغرابة ، والتصريف البديع والمعانى العميقه ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة . فخرروا ركعاً حين سمعوا آية من آياته ، فباتوا مشدوهين بسحر بيانه . قال تعالى في وصف كتابه العزيز : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ

(20) راجع الطبرى في مقدمة تفسيره ج 1 ص 3 .

كتاباً متشابهاً مثاني تشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﷺ⁽²¹⁾.

قال الذين كتبوا في إعجاز القرآن : إن المعجز في كتاب الله هو ما تناول في ثناياه ، وما انبث في تضاعيفه من إخبار عن الغيب والتنبؤ بما سيقع . فقد تحدث القرآن عن أشياء لم تكن معلومة ومعروفة ، ولم تثبت الحوادث أن جاءت مصدقة لما أخبر به ، موافقة لما تحدث عنه . من ذلك قوله تعالى : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ مُحْلِقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمَقْصُرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمْتُمَا فَجَعَلْتُمْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا » (الفتح : 27) قال المفسرون أن رسول الله (ص) رأى في منامه قبل خروجه إلى المدينة كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ؛ فقصد الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا الرسول حق ، فلما تأخر ذلك أرجف المنافقون في المدينة ، وقالوا : والله ما حلقتنا أو قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت هذه الآية ، وفي العام التالي أتم الله على المسلمين فتح مكة ، فكان ذلك تحقيقاً لوعده الله وتصديقاً لما جاء في قول الله .

ومن ذلك قوله تعالى : « غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غُلْبِهِمْ سِيَغْلِبُونَ ، فِي بَضَعِ سَنِينَ ؛ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » (الروم : 2 - 5) .

والذي حدث واقعاً حسب ما يذكر المؤرخون أنه وقعت حروب بين الروم وفارس في أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ الخبر مكة فشق ذلك على المسلمين ، لأن فارس مجوس والروم أصحاب كتاب ، ففرح المشركون ، ومن ثم نزلت هذه الآية المباركة وقد انتصرت الروم على الفرس كما أخبرت هذه الآية ، وكان انتصارها في يوم بدر . إنه كلام الله ، والله بكل شيء عليم .

وجاء في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُتَّصِرٌ . سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولَوْنَ الدَّبْرَ . بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ . إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُرْعَ » (القمر : 44 - 47) .

روى المؤرخون أن أبا جهل بن هشام ضرب فرسه يوم بدر فتقدم في الصدف

(21) الزمر الآية 23 ، ومثاني مكرر ت فيه الأحكام والمواعظ وغيرهما .

وقال : نحن ننتصر من محمد وأصحابه ، فنزلت الآية تنفي ادعائهم : « سيمز
الجمع » .

وعن عكرمة : لما نزلت قال عمر أبا جعفر يهزم ؟ فلما رأى رسول الله (ص) يسب
في الدرع ويقول : « سيمز الجمع » عرف تأويلاها .

- ويرى الرماني (284 هـ) المعتزلي أن إعجاز القرآن بالصرف وهي أن الله تعالى
صرف نفوس العرب ورد همهم عن معارضته القرآن مع قدرتهم عليها ، وذلك خارج
عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة . وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز
التي تظهر منها للعقل » .

- البلاغة

وهي سبب هام من أسباب الإعجاز وقد قسمها الرماني إلى ثلاث طبقات وقال :
إن ما كان في أعلاها معجز ، وهو بلاغة القرآن . ثم عرف البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى
القلب في أحسن صورة من اللفظ وأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن .

والباقلاني (403 هـ) يقول : « وأما المتأهي في معرفة وجوه الكلام وطرق
البلاغة وبجميع فنون الفصاحة ، متى سمع القرآن عرف إعجازه » جاء في الحديث أن
جبير بن مطعم ورد على النبي (ص) وهو يقرأ سورة : « والطور وكتاب مسطور »
فأسلم⁽²²⁾ وذلك عندما سمعه : « إن عذاب ربك لواقع » فقال : خشيت أن يدركني
العذاب وفي حديث آخر أن عمر بن الخطاب عندما سمع سورة طه أسلم⁽²³⁾ وقد روي
أن قوله عز وجل : « فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » نزلت في شيبة وعتبة ابني
ربيعة وأبي سفيان وأبي جهل .

قيل : إن أبا جهل بن هشام قال في ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد فلو
التمست لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر ، وكلمه ، ثم أثانا ببيان عنه . فقال
عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما
يخفى علي ؟ ثم أتاه الشر ينبعث من عينيه ، وشياطين السوء تلعب برأسه فقال : يا
محمد : أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فيم
تشتم آهتنا ، وتسفه أحلامنا وتضل عقولنا ؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء

(22) البخاري ج 7 ص 249 .

(23) الإصابة لأبي حجرج 4 ص 280 .

فكنت رئيسنا وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغنى به ؛ يقول عتبة هذا رسول الله ساكت ، فلما فرغ حديثه قرأ عليه محمد (ص) قوله تعالى : ﴿أَنْ هُمْ ، تَنْزِيلٌ مِّنْ رَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فَصَلَّتْ آيَاتُهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بُشِّرَا وَنذِيرًا فَاعْرُضْ أَكْثُرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، وَقَالُوا : قَلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ مَا تَدْعُنَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانَنَا وَقَرْءَ وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ، قَلْ : إِنَّا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيْيَ أَنَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (فصلت ١ - ٧) .

ثم تابع (ص) إلى أن بلغ قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذِرْنِكُمْ صاعِقَةً مِّثْلَ صاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودٍ ، إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ ، قَالُوا : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (فصلت ١٣ - ١٤) .

وهنا خاف عتبة وارتعدت فرائصه وتساقطت نفسه رعباً وفزعياً ، وصاح قائلاً : نشدتك الرحيم يا محمد أن تمسك ، وأمسك بضم الرسول . لأن بلاغة القرآن ملكته فلم يستطع السماع بعد من الرسول فطلب إليه أن يكف .

فما الذي راعه ، وما الذي أشاع الرعب والوجل في قلبه ؟ إنها القوة القدرة ، والقوة الخارقة ، والأسلوب الحاسم الرصين ، والبلاغة المتداقة التي تحمل في ثنياتها الصدق والعزم والجلالة والإكبار .

عاد عتبة إلى أهله ، واحتبس ولم يخرج لقريش . عند ذلك قالوا له : ما جبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب ، وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بهيه وناشدته بالرحيم أن يكف ، وقد علمتم أن محمد إذا قال شيئاً لم يكن ذهب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .

من كل ذلك يتضح لنا أن إعجاز القرآن إنما جاء من جهة أسلوبه وما فيه من خصائص ومميزات يستحيل أن تهيا لبشر ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

ثم يعدد الباقلاوي في كتابه إعجاز القرآن وجوه الإعجاز الأخرى فتابع :

أ - الإخبار عن المغيبات وقد ورد ذكرها .

ب - ما جاء في القرآن من أخبار الأمم القديمة ، مع أمية الرسول .

ج - نظم القرآن وبلاعته .

وما يراه النقاد المحدثون وما نراه نحن أن إعجاز القرآن إنما يظهر في ثلاث نواحي هامة : أهدافه الإنسانية ، وبلاعته الأدبية ، في ألفاظه الفصيحة وأساليبه الفريدة ، وفي معانيه البعيدة الصائبة .

- فمن جهة أهدافه ومقاصده

نجد أنه قد تناول كل المواضيع التي تهم الإنسان في حياته الفردية وفي حياته الاجتماعية ، وكان غاية في الإصابة والجلاء وإرسال الأحكام والأمثال . فمن تشرع خالد وتتعليم جامع وتهذيب رفيع وأدب بلين وقصص ومواعظ إلى حكمة باللغة ووعيد ووعيد وغير ذلك من الأغراض والمقاصد .

وقد كان فحول البلاغة في عصر صدر الإسلام لا يبرز أحدهم إلا في ضرب واحد من ضروب القول . فمنهم من برع في فن الخطابة وما نبغ في الشعر ومن كان يحسن الرجز لا يجيد القصيدة ، ومن أجاد المهجاء لم يستعزب منه النسيب . ولم يعرف أحد منهم نبغ ويز في هذه الفنون جميعها .

- ومن جهة الألفاظ والأساليب

فكل من أعطى بعض القسط من بصر وبصيرة يجد عذوبة في اللفظ ، ودماثة في الأسلوب ، وتلاؤماً فريداً في التراكيب . كل ذلك إلى إجفال في خطاب الخاصة وتفصيل في إفهام العامة . فيه التلميح عند الحاجة وفيه التصریح عند اقتضاء الأمر ومها قيل يبقى القلم مقصراً والعقل قاصراً عن إكمال الصورة وإنما القول في أسلوب وألفاظ كتاب الله المعجزة .

- ومن جهة المعانى

هي قريبة التناول صادقة تطمئن إليها النفوس ، جاءت من غير معين العرب الذي منه يستقون وعلى غير مثاهم المعهود ، بدعة الابتكار فريدة الصياغة ، تهدف إلى إصلاح شؤون الأمة ، من حجج باهرة ، وأحكام مسلمة ، وبراهين قاطعة ، وتشبيهات رائعة ، وأمثال حكيمه تهدي المؤمنين وترشد المبصرين لعلهم يعقلون . والقرآن في جملته شفاء الصدور على مدى العصور ، كتاب خالد لا تبدل لكلماته ، ولا ناقض لأحكامه ، يهدي للتي هي أقوم قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنما له حافظون » (الحجر : ٩) .

القرآن والشعر

احتار العرب بالأسلوب القرآني أهو شعر أم نثر؟ فاتهموا الرسول (ص) بأنه شاعر وهو يسترق القول من رئي له كباقي الشعراء الذين كان لكل واحد منهم شيطان في وادي عبقر يلهمه القول. فالشاعر العقري الفذ يكون شيطانه أقوى من صاحب الشيطان الضعيف من هنا كان هجاء بعض الشعراء لمنافس له في القول: شيطانه أنتي وشيطاني ذكر وقد وصف شيطانه بالذكر لأن الذكورة أقوى من الأنوثة. وإن علاقة القرآن بالشعر بدأت بست آيات قرآنية ورد فيها ذكر الشعر والشعراء وكلها تشير إلى اتهام قريش للنبي محمد (ص) بأنه شاعر. أنها جاء في الأنبياء. وقال تعالى: « بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر فليسأتنا بأية كما أرسل الأولون » (الأنبياء : ٥).

قالت قريش إن ما ينزل على النبي (ص) أضغاث أحلام افتراءها هو أو أن ما يقوله هو شعر يستلهمه من شيطان له كبقية الشعراء، والأية الثانية وردت في سورة الشعراء:

قال تعالى: « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » (الشعراء : 224 - 226).

وفي الآية الثالثة يدافع عنه رب العالمين وينفي تعلمه الشعر، قال تعالى: « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (يس : 39).

حتى أن قريشاً اتهمته بالكهانة والجنون بالإضافة إلى قول الشعر، فنفى ذلك عنه سبحانه وتعالى وطلب إليه المضي في رسالته المباركة الكريمة قال تعالى: « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . ألم يقولون شاعر نترقص به ريب المنون » (الطور : 29 - 30).

وزيادة في التأكيد ونفي قول الشعر عن رسول الله (ص) نزل قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين » (الحقة : 41 - 43) .

ولكن عنادهم وتمسكهم الشديد بعاداتهم الجاهلية وعقائدهم الوثنية : « ويقولون أئتنا لتنا ركوا آهتنا لشاعر مجنون » (الصفات : 36) .

إن هذه التهمة لم يقتنعوا بها تماماً ، وأكثرهم شعراً وفصحاء وأهل بيان ، فدعوا إلى اجتماع واستقرار على تهمة أخيرة هي أنه ساحر ولكن القرآن يشير أن الرسول (ص) قد ضاق صدره من هذه التهمة الأخيرة ، تهمة السحر أكثر من ضيقه بنسبة الشاعرية إليه والآيات التي وردت بهذا الشأن أكثر من اثنين عشرة آية . جاء على لسان الكافرين الذين اتهموا الرسول (ص) بالسحر : « يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » (الأنعام : 25) .

وجاء وصفهم في سورة الأنبياء قوله تعالى : « لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتاؤن السحر وأنتم تبصرون » (الأنبياء : 3) .

وعندما تلى عليهم الآيات البينات : « قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبدون آباءكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » (سبأ : 43) .

والقرآن الكريم يعمم القاعدة على جميع الأنبياء الذين سبقو النبي محمد (ص) فيقول : « كذلك ما أقى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » (الذاريات : 52) .

والأيات التي ورد فيها اتهام قريش وغيرهم بالسحر هي : المائدة الآية 113 ، والأنعام الآية 7 ، وسبأ الآية 43 ، والصفات الآية 15 ويومن الآية 76 والآية 77 ، والنحل الآية 13 ، والأحقاف الآية 7 والأية 36 ، والقصص الآية 36 ، والزخرف الآية 43 ، والطور الآية 15 والقمر الآية 2 ، والمدثر الآية 24 ، والأعراف الآية 115 ، وطه الآية 58 و 73 ويومن الآية 81 ، والبقرة الآية 102 ، والأنبياء الآية 3 .

وقد أورد المؤرخون روایات عديدة تتهم النبي (ص) بالسحر ، وبالشعر أيضاً . جاء في رواية محمد بن كعب القرطبي تؤكد أن عتبة بن ربيعة قال للرسول (ص) : « وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا

فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه⁽¹⁾ والرئي
هو جنٌ أكثر ما يظهر للكهان ، والتابع أيضاً جنٌ أكثر ما يأتي للشعراء كما يزعم
القدماء⁽²⁾ .

أما رواية الخطابي (388 هـ) فتؤكد أن المعاندين من كفر بالإسلام وأنكر القرآن
صار يقول مرة أنه شعر لما رأوه منظوماً ومرة سحر إذ رأوه معجوزاً عنه غير قادر
عليه⁽³⁾ .

والأن يمكن طرح السؤال التالي : لماذا خلط الجاهليون بين القرآن والشعر حتى
قال شاعر الفلاسفة ، أبو العلاء المعري (449 هـ) على لسان رضوان خازن الجنة أن
الشعر مرآة إبليس⁽⁴⁾ ؟ ما سمعناه من النقاد القدماء جوابات متعددة نذكر أهمها :

أ - قال الخطابي أن القرآن كلام منظوم ، وهو لا يعني بالمنظوم ما كان موزوناً ، لأن
الموزون في القرآن قليل جداً .

ويرى الباقلاني أن ما ورد في القرآن جاء اتفاقاً غير مقصود ، وأحياناً مختلفاً
المروي ، وأحياناً أخرى على صورة الرجز ، وأحياناً نادرة في بيت واحد أو شطر من
بيت . وكل هذا خارج عن الشعر في رأيه⁽⁵⁾ فالخطابي يعني بالنظم حسن ترتيب الكلام
وتاليقه وتشاكله وانتظام أجزائه ، ووضع كل لفظ من الألفاظ موضعه الأخص به ، حتى
لتقوم للكلام « صورة في النفس يتشكل بها البيان » ويراه شيئاً غير المعنى ويرى أن نقشه
تفرق الأجزاء وتبعده الفصول ، والمنظوم هي الفنون الأدبية لا الأغراض ، أي هي
القصد والرجز والسجع وسائر الفنون⁽⁶⁾ .

فالنظم حسن التأليف الذي يكتمل بالبلاغة والبيان وال نحو حتى يقوم للكلام
صورة في النفس . وهذه النظرية تطرق لها عبد القاهر الجرجاني وهي تجعل الشعر في رأي
الجاهلين وفي تصور الخطابي كل كلام حسن التأليف صحيح بلين ، مع عدم اشتراط
الوزن والقافية له .

(1) السيرة لأبي هشام ج 2 ص 292 وما بعدها .

(2) المفصل لجوايد علي ج 9 ص 118 .

(3) إعجاز القرآن للخطابي ص 28 .

(4) رسالة الغفران ص 252 .

(5) إعجاز القرآن للباقلاني ص 51 .

(6) الخطابي بيان إعجاز القرآن ص 37 وما بعدها .

ب - ورأي آخر للباقلاني ورد في « إعجاز القرآن » يقول فيه قد يكون الكلام « محولاً على ما كان يطلقه الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر ، لدقة نظرهم في وجوه الكلام ، وطرق لهم في المنطق ، وإن كان ذلك الباب خارجاً عنها هو عند العرب شعر على الحقيقة »⁽⁷⁾ .

وهذا الرأي نراه قريباً من رأي الخطابي ، فثم نوعان من الشعر في رأي الباقلاني (403 هـ) : الشعر على الإطلاق وهو إدراك الصنعة اللطيفة في نظم الكلام ، والشعر على الخصوص ، وهو ما تقييد بالوزن .

وقال أيضاً في هذا المجال حين أكد أن الكفار نسبوا الرسول إلى الشعر بمعنى « أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام ، لا أنهم نسبوه في القرآن أي أن الذي أتهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعaries المحصورة المألوفة »⁽⁸⁾ وهذا الرأي قريب من رأيه الأول ، فشعر على سبيل الخصوص ، وشعر على سبيل المجاز .

ج - ورأي آخر قال به ابن رشيق 456 هـ أن سبب التهمة هو ما كان في قلوب الناس « من هيبة الشعر وفخامته ، وأنه يقع منه ما لا يلحق ، والمثار ليس كذلك » مع أن القرآن مثار وليس بشعر ولا خطبة ولا ترسل⁽⁹⁾ .

وما يبدو لنا أن جميع الذين تكلموا على الإعجاز وحاولوا رد تهمة قريش أو تفسير أسبابها على الأقل ، كانوا في موقف دفاعي ، فقد حاولوا البحث عن الأسباب والحجج التي تؤيد كلام القرآن وتنتفي قول الشعر . وهم بذلك يفتاشون عن المعنى بعيداً متجاهلين المعنى القريب ، المعنى الإصطلاحي المتعارف عليه .

والباقلاني يعد من بين المدافعين عن القرآن ، فهو بعد أن ينفي قول الشعر عنه ، ينفي عنه السجع أيضاً . فهو يرفض أن يكون القرآن سجعاً لأسباب تتعلق بالمعنى من جهة ، وبالشكل من جهة أخرى ، ولا لم يكن خارجاً على أساليب العرب الأدبية ولا معجزاً . والباقلاني يعتقد أن نفي السجع عن القرآن ، « أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر » لأن السجع كان مالوفاً من الكهان العرب ، والكهانة بالطبع تنافي النبوات ، وليس كذلك الشعر ، ولو كان القرآن سجعاً لم يتغيروا فيه إلى ذلك الحد . وفي رأيه أن القرآن بعض السجع ولكنه ليس سجعاً .

(7) إعجاز القرآن للباقلاني ص 51 .

(8) إعجاز القرآن للباقلاني المصدر نفسه .

(9) راجع العمدة ج 1 ص 20 .

وبيان ذلك أن المعنى في السجع يكون تابعاً للفظ ، في حين أن اللفظ في القرآن تابع للمعنى ، والسجع فيه قليل وغير مقصود إليه ، وإنما يقع أثناء الخطاب عفواً فحكمه حكم القليل من الشعر كالبيت الواحد أو البيتين من الرجز ونحو ذلك مما لا يعد شعراً . وإذا تفاوتت أوزان السجع واختلفت طرقه كان قبيحاً .

فلو كان الذي في القرآن سجعاً لكان مذموماً لأنّه على تلك الصورة . ويتهي الباقلاني إلى تسمية نهايات الآيات القرآنية فواصل ، مؤكداً أنه لا تناصب ولا تقارب البة بينها وبين سائر الكلام ولا تناصب⁽¹⁰⁾ . وهو ينطلق من رأي مسبق متعارف عليه عند الجميع وهو أن القرآن معجز ومخالف لكلام الكهان وجيل الأسلوب ، ولما كان السجع غير معجز ويشبه كلام الكهان فينبغي الا يدخل في أساليب القرآن بالرغم من أن صورته المتعارفة موجودة فيه .

أما أبو علاء المعري (449 هـ) فهو ينفي عن القرآن كل شبه وينسب الإعجاز إليه ويقول : القرآن المعجز مختلف عن الأمثال والقصيد والرجز والخطابة وسجع الكهنة⁽¹¹⁾ . وبصورة خاصة ينفيه عن الرجز ، الشيء الجديد عندهم ، كما ينفيه أيضاً عن سجع الكهان . وزد على ذلك ينفي عنه المقاطع المتشابهة الكثيرة والصور الغريبة جداً والغموض والرموز . وإن ورد سجع فيه فهو سجع قرآنٍ خاصٍ به .

وأبو هلال العسكري (395 هـ) ميز سجع الكهان من سائر السجع ، « بشدة الاختصار على كثرة المطابقة في الكلام ، ومخالفة كلام الخالق عن كلام المخلوق في تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء ومبaitته سجع الكهان بعيداً عن التكلف والتعسف⁽¹²⁾ .

وابن الأثير (637 هـ) ركز على السجع الذي قدمه على الشعر وقد وصفه بأنه « أعلى درجات الكلام » ثم حاول أن يدافع عن القرآن الذي ورد منه الشيء الكثير حتى أن سورة واحدة لم تخلي منه ، وكلام النبي نفسه (ص) ورد فيه سجع كثير . أما إنكاره على بعضهم كلامه المسجوع بقوله (ص) : « أَسْجُمَاً كَسْجُمِ الْكَهَانِ » فلم يكن المقصود به ، في رأي ابن الأثير كل سجع ، بل سجع الكهان حصرًا .

(10) إعجاز القرآن للباقلاني ص 57

(11) رسالة الغفران ص 472

(12) المثل الساتر 1 ص 198

ويشترط للسجع الألفاظ الحلوة التي يكون فيها اللفظ تابعاً للمعنى إلا أنه يبالغ في بعض الأحيان ، لكنه يستدرك أن القرآن قد تضمن غير المسجوع « لأنه أبلغ في باب الإعجاز من المسجوع »⁽¹²⁾ لكن نسبة السجع إلى القرآن عند ابن الأثير ليست ثمة ، بل مزية .

وبعد مضي فترة زمنية ليست قصيرة كان ابن خلدون (808 هـ) الذي حاول أن يخص القرآن بفن أدبي مستقل عن الشعر والثرفقال : « وأما القرآن ، وإن كان المشور ، إلا أنه خارج عن الوصفين ، يعني « وصف السجع ووصف الترسيل » وأنه لا يسمى مرسلًا مطلقاً ولا مسجعاً ، بل تفصيل آيات يتنهى إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام بعدها في الآية الأخرى ، ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً مشابهاً ، مثاني نقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ (الزمر : 23) . وقال : ﴿قد نضلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ (الأنعام : 97) . وتسمى آخر الآيات فيه فواصل ، إذ ليست أسجاعاً ، ولالتزم فيها ما يلتزم في السجع ، ولا هي أيضاً قواف . وأطلق اسم المثاني على آيات الله كلها على العموم ، واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ، وهذا سميت السبع المثاني »⁽¹³⁾ أي أن للقرآن في رأيه فناً خاصاً هو فن تفصيل الآيات الذي هو متصلة بين السجع والترسل ، وأخر الآية فيه يسمى فاصلًا ، وهي متصلة بين القافية والسجعة⁽¹⁴⁾ .

والخلاصة في نظره أن القرآن جنس رابع يكمل الأجناس الثلاثة الأخرى : الشعر والسجع والترسل . غير أن هذا لم يبعد الناقد المؤرخ عن التشبيه ، كما أن الفرق الذي وضعه بين نثر الناس ونثر القرآن غير واضح تمام الوضوح . فهل يبقى القرآن من حيث الأسلوب في الدائرة البشرية وابن خلدون يعلم أنه من المشور ، أو أنه يبقى في الدائرة الإلهية فلا يكون مثله شيء من كلام البشر وهو يعترف بأن كلام القرآن مرسل ، أي ككلام البشر ؟ .

لقد قيده بالفواصل التي تختص بكلام السماء ، وتحتفل عن كلام الأرض والسعقات والقوافي .

فما الفاصلة في نظر ابن خلدون ؟ إنها مقطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ،

(13) مقدمة ابن خلدون ص 0192 .

(14) هذا الرأي مأخوذ عن الباقلاني وكانت مفاجأة لا خيلة الجاهلين .

لكن الأذواق تختلف ، وشهادتها تختلف ، ويصبح الحكم على كلام القرآن نسبياً ! إن الذي أوصله إلى هذا المأزق لأنه أعطى كلمة التفصيل معنى وضع الفواصل ، مع أن معناها على الأرجح في مجال ابن خلدون هو التوسيع والتبيين .

ونختصر القول إن النقاد أرادوا أن يضعوا فاصلاً بين القرآن والشعر وكذلك بينه وبين السجع ، لأن الكفار اتهموا الرسول بالكهانة والشاعرية . فلماذا الخلط بين القرآن والشعر ؟؟

من المحتمل اشتغال القرآن على صور فنية رائعة تشبه بعض صور الشعر وقد أكثر النقاد من استشهاد هذه الصور في البلاغة ، واقتبس عدد من الشعراء منها . وتناولها المحللون بالدرس والتحليل وحسبنا شاهداً من شواهد عدّة ، جاء في سورة الإسراء قوله تعالى يوحى بالوالدين : ﴿ وَاخْفُضْ لِهَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (الإسراء : 24) .

أو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُثْلِ نُورِهِ كَمُشْكَاهَ فِيهَا مُصَبَّحٌ الْمُصَبَّحُ فِي زَجَاجَةِ الزَّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كُوكَبٌ دَرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مَبَارِكَةِ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتَهَا يَضِيءُ وَلَوْلَمْ تَمْسِسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مِنْ يَشَاءُ وَيُضَرِّبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور : 25) .

وما يجدر ملاحظته هنا أن الشعر الجاهلي لم يكن كله على صورته التي نعرف اليوم ، بل قد يكون قريباً من السجع الحسن الإيقاع ، والرجز الذي هو غناء بدائي . فعنصره الأساسي كان الغناء أو الإنجاد الذي يمثل مادته ، والأوزان الشعرية قد استبسط أكثرها في عصر التدوين ، وكان أقلها مستعملاً في صدر الإسلام مع عدم الإحساس بما سموه زحافات وعلل ، وعدم تمييز دقيق بين النثر والشعر ، ولا سيما بين السجع والشعر . ولا يخفى أن تطور الكتابة وتزايد المعرفة قد أديا إلى تزايد النشاط الأدبي وإلى القدرة تدريجياً على إقامة الوزن وتطويره وابتكر أوزان جديدة ، حتى كان الخليل بن أحمد واكتشف الأوزان العروضية ، وربما زاد أعاريفه استبطها بالقياس .

وهنا سهل الأمر لدينا ليقوى الشك عندنا بنسبة المطولات المنسوبة إلى الجاهلية ، وما يحسن الركون إليه هو القصائد القصار التي بنيت على أوزان قصيرة أو مجروأة .

مهما يكن من أمر فإن في الشعر المنسوب إلى الإسلاميين ما يوحى وجود نوع من المنافسة بين الشعر والقرآن . قال ابن الأثير : إنهم أضافوا إلى سعيد بن عدي شعراً فيه ترك الشعر والخمر إلى القرآن والصلة⁽¹⁵⁾ . كما رووا أن ليبدأ كتب سورة البقرة وقال :

(15) راجع المثل السائر ج 1 ص 198 .

أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ،⁽¹⁶⁾

أما حسان بن ثابت فيكاد يجمع بين القرآن والشعر من حيث المصدر فيزعم أنه يتلقى القوافي من السماء . ولكن هذا الزعم يجعل معركة نفي الشعر عن القرآن بغير معنى .

والخلاصة النهائية هو أن الله سبحانه وتعالى لم يشاً أن القرآن شرعاً وكفى ، فالأمر يتعلق بالإرادة الإلهية وحدها وليس بصفات الشعر وهذا هو التأويل الوحيد للأية الكريمة : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » (الحاقة : 41) . . .

وقد أومأ إلى ما يشبه هذا القول ابن رشيق حين بين أن كون الرسول (ص) غير شاعر ليس غضباً من الشعر ، كما أن أميته ليست غضباً من الكتابة⁽¹⁷⁾ .

أثر القرآن في الأدب واللغة والعلوم

لم يتيسر لأمة من أمم العالم كتاب كالقرآن الكريم ، من حيث البلاغة والتأثير في العقول والقلوب ، سواء حين يتحدث عن العقيدة الدينية ، عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وقدرته وجلاله . . . أو عن خلق السماوات والأرض ، أو عنبعث والحساب ، أو حين يشرع للناس نظم حياتهم الإنسانية الحضارية القوية على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين : الدنيا والآخرة . والرسول الكريم عندما كان يمضي في تلاوته كان يأخذ بمجامع قلوب سامعينه ويروعهم سواء كانوا من أنصاره أم أعدائه .

و واضح كما مر معنا أن أي القرآن تبادر كلام الإنس من فصائحهم كما تبادر كلام الجن الذي كان يدور على السنة كهانهم . فهو ليس بشعر موزون ، يقول به شعراً لهم ، ولا بسجع مفتقى يدور على السنة كهانهم وخطبائهم ، إنما هو نسيج وحده ، نمط قرآني خاص ، ففصلت آياته بفواصل تطمئن النفوس الخائفة التي تجد فيها روحًا وعنوية . إنه القرآن معجز بيانيه وبلاغته « قل لئن اجتمعـت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بهـله ولو كان بعضـهم لبعضـ ظهيراً » (الإسراء : 88) .

وفعلاً عجز العرب عن معارضته أو تقليده عجزاً تاماً ، وتمت بإذن الله المعجزة الباهرة فانتشرت في الآفاق القرية وال بعيدة أصوات الإسلام ، في الجزيرة العربية وفي

(16) المصدر نفسه ص 76 - 77.

(17) العمدة ج 1 ص 21 .

دروب العالم ورحاب الدنيا مما هيَ لانقلاب كلي في تاريخ اللغة العربية والأدب العربي .
وأول ثمرات هذا الدين الجديد أنه جمع قبائل العرب المختلفة اللهجات على لهجة
واحدة هي لهجة قريش ، أفعى لهجة وأعذب لغة .

ثم أخذت هذه اللهجة تعم بين القبائل متغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت
لا تزال تتكلم الحميرية ، ولما فتحت الفتوح ومصرت الأمصار أخذت اللهجة القرآنية
الموحدة تسود مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوة القرآن فرضاً مكتوباً على
كل مسلم حيث حث الإسلام على حفظه وترتيله . يقول جل وعلا :

﴿ ورتل القرآن ترتيلًا ﴾ (المزمول : ٤) . وقال تعالى أيضاً : ﴿ ومن أعرض عن
ذكرِي فإن له معيشة ضنكًا . ونحشره يوم القيمة أعمى . قال يا رب لما حشرتني أعمى
وقد كنت بصيراً . قال كذلك أنتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم ننسى ﴾ (طه : ١٢٤ -
١٢٦) .

ويذلك تحول جميع المسلمين كبيرهم وصغيرهم إلى تلاوة القرآن مما جعلهم
ينطبعون بطوابعه اللغوية .

هذا الحفظ لللهجة قريش أتاح لها أن تنتشر ليس في العالم الإسلامي فحسب ، بل
تخطت الحدود البعيدة واكتسحت ما لقيت أمامها من لغات ، فتكلمت بها شعوب لا حصر
لها ، وأصبح اللسان العربي هو اللسان الأدبي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي .
وكل من عاش على الأرض العربية أصبح يتكلم اللغة العربية يعبر بها عن فكره ومشاعره
 وخوالج نفسه . كل ذلك بفضل القرآن الكريم الذي حفظ العربية من الضياع وجعلها
لغة حية في جميع أقطار الأرض التي فتحها المسلمون .

- ومن آثار القرآن أنه جدد كثيرةً من الألفاظ ، فنقلها إلى معان إسلامية لم تكن
تعرفها من قبل . مثل : الصوم ، والصلوة ، والحج ، والزكاة ، والجهاد في سبيل الله ،
والإيمان ، والكفر ، والركوع والسجود ، والغسل والوضوء والتيمم ، والإشراك
والإسلام ، والفرقان وغير ذلك من كلمات الدين الخينف . ولم تكن المسألة مسألة تغيير
في الألفاظ فحسب وإنما كان تغييرًا جوهريًا في جميع ألوان الحياة الدينية والاجتماعية
والسياسية والاقتصادية . . . وقد عرضها بأسلوب تربوي راق ، مستعيناً دائمًا
بالوجوهات الغرائزية وبالعقل وما ينبغي أن يتهيأ لها من صواب الرأي ؛ ومتربقاً دائمًا
من معرفة الحواس إلى معرفة الأمور الفكرية وفي خلال ذلك شرع للناس ما ينبغي أن

تكون عليه حياتهم الإنسانية العادلة التي تسودها الأخوة والرحمة والمحبة . فلا أبيض ولا أسود ولا غني ولا فقير ولا عربي ولا أعمامي .

ونختصر فنقول أن كل ما كسبته العربية إنما هو من فيض القرآن الكريم ، ومعينه الغزير الذي كان وما زال لا ينضب ما فيه ولا يجف رواه .

- هذب القرآن الألفاظ العربية من الحوشية والغرابة ، فأقامها بأسلوب معجز في البيان والبلاغة ؛ وذلك بفضل درس المسلمين له ، وفهمهم إيه ، واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم منه . وقد حدث أن عدلوا عن الأساليب القديمة المعقدة إلى أساليب جزلة لها رونق وطلاوة مع وضوح في القصد للوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب عربي حديث ليس فيه فضول ، فاللفظ على قدر المعنى لا يرتفع عن العقول ولا عن القلوب .

وما لا شك فيه أن القرآن هو الذي ابتدع هذا الأسلوب البليغ المحكم ، بل هذا الأسلوب السهل الممتنع ، الذي تأنس الآذان حين تستمع له ، وترتاح الأفواه حين تنطق به ، وتبرد القلوب حين تصفي إليه . وهذا الأسلوب العربي البليغ هو الذي تمتاز به لغتنا العربية ، وهو الذي استطاع أن يفتح القلوب حينما فتح العرب الأمصار . فإذا بأهلها يهجرون لغاتهم الحوشية المعقدة ويعتمدون اللغة العربية الصافية العذبة الشفافة . اللغة المطوعة لكل ما يخطر في البال من خواطر وتعابير . فتأمل سهولة اللفظ ، ومتانة الأسلوب ، وسلامته من التكلف . فهذه ملاطفته عز وجل لرسوله المصطفى في سورة الضحى : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعاك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيمًا فآوى ووجدك ضالاً فهدي ووجدك عائلاً فاغنى . فاما اليتيم فلا تقهرا وأما السائل فلا تنهرا وأما بنتعمة ربك فحدث ﴾ وهذه صورة يوم البعث ، يوم الحساب التي جاءت ألفاظها متلائمة كل التلاقي مع معانيها ، فكأنها رسمت لها رسماً . يقول تعالى :

﴿ القارعة ما القارعة ! وما أدرك ما القارعة ؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المتفوش . فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فامه هاوية وما أدرك ما هيبة نار حامية ﴾ .

فتأمل القاف القوية مع الراء السريعة التحرك ، المزازة ، مع العين العناة ، ثم تأمل تكرارها ، ثم هذا الاستفهام الإنكارى كم يزيدتها قوة ورهبة . فقد أنت الألفاظ معبرة ومتاغمة مع معانيها .

وانظر إلى قوله تعالى في هذه المقارنة بين المؤمنين والمرجعات في سورة الحاقة :

﴿فَإِذَا نَفَخْنَا فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً . وَحَلَتِ الْأَرْضُ وَالجَبَالُ فَدَكَتِ الدَّكَةَ وَاحِدَةً . فِيهِ مِثْلٌ^{١٨} وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانْشَقَتِ السَّمَاوَاتُ فَهِيَ يَوْمَثِلُ وَاهِيَةً . الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَانِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَثِلُ ثَيَابَيْهِ . يَوْمَثِلُ تَعْرِضَتِهِنَّ لَا تَخْفِي مِنْكُمْ خَافِيَةً . فَأَمَّا مَنْ أَوْتَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَلْوَمٌ إِقْرَأُوا كِتَابِيَّةً . إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مَلَاقِ حَسَابِيَّةً . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَّةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَّةٍ . قَطَوْفَهَا دَانِيَّةٌ . كَلَوْا وَاسْرَبُوا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَّةِ . وَأَمَّا مَنْ أَوْتَ كِتَابَهُ بِشَمَائِلِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوْتُ كِتَابِيَّهُ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حَسَابِيَّهُ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَّةُ . مَا أَغْنَى عَنِي مَالِيَّهُ . هَلْكَ عَنِي سُلْطَانِيَّهُ . خَذُوهُ فَغَلُوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمُ صَلُوهُ ﴾

إننا لا نجد لا هنا ولا هناك كلمة معقدة أو لفظاً ركيكاً أو ضعيفاً ، وإنما نجد روعة الأسلوب وعدوينة الألفاظ ، ودقة العبارات واستيفائها لمعانيها وكأنها تغدو العقول برحيقها الصافي وتداوي النفوس بعليلها الشافي .

وهذا الأسلوب القرآني البالغ الروعة في بلاغته الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره . فعلى هديهأخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية ومن وحي آياتهأخذوا يستشهدون في وعظهم ومعاوراتهم ، حتى أصبح معجمهم الأدبي واللغوي الذي ساروا على هداء منها اختلفت أقطارهم وتباينت أعصورهم .

ويكفي أن نعود إلى معلقة من المعلقات كمعلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل بني هذيل ، أو شعر المخضرمين كحسان بن ثابت ، وكمعب بن مالك ، والحارث بن عبد المطلب ، لنرى بوضوح كيف تأثروا جميعهم بالفاظ القرآن وأساليبه وتشبيهاته وكنياته .

قال الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطيب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمعة أي من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام بهاء والوقار والرقابة وسلس الموقع ^(١٨) .

- ومن أثر القرآن في معانٍ الأدب العربي نذكر : هجر الكتاب والشعراء للمعنى البدوية والخشونة النابية واستعمال الأفكار الإسلامية الجديدة ، فقد تركوا المبالغة والفحش والتزموا الصدق والإخلاص ، وآثارهم الإسلامية في الشعر والنشر تدل عليهم

(١٨) البيان والتبيين ج ١ ص 118 .

كما أثر القرآن أيضاً في أغراض الأدب ، فلا نجد في شعر ونثر الأدباء المسلمين المبالغة في المدح والفخر ، ولا نجد الفحش في المجاءه ولا المجنون في الغزل . ولم يعد هناك من مبرر للدعوة إلى العصبية القبلية والانتقام والأخذ بالثأر . فلا كبير ولا صغير أمام القضاء الإسلامي ، ولا جاءه ولا مال يغيره من طبيعة الحقوق في موازين الإسلام العادلة . العدالة الاجتماعية هي التي تأخذ مجراها في الحياة العامة بين جميع الناس على حد سواء .

- والقصة بمفهومها الحديث نجد الكثير منها في القرآن الكريم ، أرسلت للعبرة والذكرى كقصص الأنبياء : يوسف ، نوح ... وبعض الملوك : فرعون ، عاد ، ثمود ... وهذا ما دفع بالمؤرخين المسلمين إلى درس تاريخ العرب البائدة والأمم الغابرة السامية وغير السامية وهكذا نجد كيف أن القرآن أحيا فتوناً أدبية جديدة ، كأدب القصة ، وأدب الحكمة ، وأدب الرزء ، والتاريخ بشعبه الكثيرة العدد ومباحته المختلفة .

- ومن القرآن ، المنهل الغزير لشتى العلوم والمعارف أخذ العلماء والمفكرون أصول العلوم والثقافة الإسلامية . لقد فرض الإسلام التطور على أهله فرضاً وحض على العلم بتوجيهه عناته إليه توجيهها خاصاً ، ذلك أن الشخصية الإنسانية لا يقمنها ولا يرقيها سوى العلم قال تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكرة أولو الألباب ﴾ (الزمر : ٩) .

دعوة الإسلام إلى الأخذ بالأصول التالية

لم يكتف الإسلام في الدعوة إلى العلم بل قرر أصولاً تمنع من الجمود العقلي والتحجر الفكري . من هذه الأصول التي قررها :

1 - الحجة والبرهان :

العلم لا يقول عن شيء أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع جاء في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تُلْكَ أَمَانِيهِمْ ، قُلْ هَاتُوا بِرَهَانَكُمْ إِنْ كَتَمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : ١١١) .

2 - والإسلام يدعو إلى اليقين لا الظن :

يمحذر العلم أن ينزل الظن منزلة اليقين ، وهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار قوة الحجة التي تشهد للقضية . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَتَبَعُ أَكْثَرَهُمْ إِلَّا ظَنًا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (يونس : ٣٦) فالظن تصور ولا يستند إلى دليل ، ويؤدي بصاحبها إلى وهم باطل .

3 - التجارب والمشاهدات :

العقل لا ينمو ولا يقوى إلا عن طريق التجارب والمشاهدات . قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْوَنِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْتَدَةَ لِعُلْمِكُمْ تَشَكَّرُونَ ﴾ (النحل : 78) .

إن ما يحصله الإنسان من علم إنما يكتسبه عن طريق السمع والبصر والعقل .

4 - الإسلام يدعو إلى تعلم العلوم الطبيعية :

الأيات التي تدعو إلى تعلم العلم الطبيعي كثيرة نذكر منها . قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلْقَاتِ الْمُتَحَلِّفَاتِ وَالْأَوْانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الروم : 22) .

و واضح من سياق الآية أن المراد بالعالمين هنا هم العالموں بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله فيها أشارت إليه الآية الكريمة .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ أَلمْ ترَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا هُوَ بِهِ ثَمَرَاتٌ مُخْتَلِفَاتٌ أَوْانِهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ بَيْضٌ وَحِرْمٌ مُخْتَلِفَاتٌ أَوْانِهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ . وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفَاتٌ أَوْانِهِنَّ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : 27 - 28) .

لا يعرف سر نزول المطر من السماء إلا بعلم الطبيعة ، ولا يعرف تركيبه وخصائصه إلا بعلم الكيمياء . ولا يعرف الإناث والأثار فيها إلا بعلم النبات ولا يعرف ما الجبال ولا طرائقها البيض والحرم والسود إلا بعلم طبقات الأرض ولا يعرف اختلاف أجناس البشر والدواب والأنعام إلا بعلمي أصل الشعوب والحيوان .

وفي تذليل الآية : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

فقد حصر الله الخشية الكاملة من الله في العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية . لأن العالم المؤمن يحمله علمه بأسرار الطبيعة على خشية الله خالق السماوات والأرض وما بينهما .

5 - علم الحياة (Biologie)

والقرآن يشير إلى الإنسان لينظر إلى نفسه وكيفية تكونه في الرحم وأطواره التي يمر بها . قال تعالى : ﴿ فَلَيَنْظُرْ إِنْسَانٌ مَا خَلَقَ . خَلَقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالترَابِ ﴾ (الطارق : 5 - 7) .

وجاء في سورة المؤمنون : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةِ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ

نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة عاقة فخلقنا العلقة مضافة فخلقنا المضفة عظاماً فكسونا العظام لها ثم أنشأه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (الطارق : 12 - 14 .

فمن نظر في أصل التكوين يتوصل الإنسان إلى علم الحياة وفيه من عجائب فهو الجرثومة الإنسانية وتحولها في أدوار الخلقة وتطورها حتى تصبح مادة خالصة قابلة للحياة .

6 - علم التاريخ والمجتمع

لم يكتف الإسلام بتکلیف المسلم النظر فيما يحيط به من الكائنات بل دفعه إلى البحث فيها كانت عليه الأمم السالفة من قوة وسلطان ، وغزو وعمران ، ثم ما آتوا إليه باتباع الشهوات من هلاك ودمار . قال تعالى : ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيُنَظِّرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدُّ مِنْهُمْ قَوْةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمِّرُوهَا أَكْثَرَ مَا عَمِّرُوهَا وَجَاءُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسُهُمْ يُظْلِمُونَ﴾ (الروم : 9) .

أفلا يؤدي التعرف في أسباب تكون الأمم وانحلالها ورقيتها وعمرانها وخرابها إلى البحث في علمي التاريخ والمجتمع ؟ لو سألنا ابن خلدون وأمثاله لأجابوا بكل تأكيد بالإيجاب .

7 - علم النفس

ورد الكثير من الآيات في القرآن الكريم تحت عنوان التفكير في النفس نذكر بعضها على سبيل المثل . قال تعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفْلَامٌ تَبَصَّرُونَ﴾ (الذاريات : 21) أليس النظر في النفس يؤول بنا إلى معرفة علم النفس بكل ما فيه من غرائز وميول ويساعد وأصول الحياة الإنسانية .

من هنا نجد العلماء والمفكرين قد عكفوا على وضع أصول العلوم والثقافة الإسلامية ، وذلك لتفهم معاني القرآن والوقوف على معارفه الوضعية والمجازية المختلفة ، كما حلّلتهم أيضاً على تبع الفاظ اللغة العربية الفصحى من العرب المؤثرة بخلوص عربتهم من الشوائب . فكان من ذلك ألف الرواية الذين جمعوا اللغة ودواوين الشعر والأمثال والوصايا والخطب والرسائل ، فألفوا منها مادة غزيرة ودسمة للأدب القديم التي صارت فيما بعد مواد أساسية للأدب العربي في موضوعاتها وأغراضها وصورها ومعانيها .

وما اكتسبه الشعراء والكتاب والأدباء من القرآن يتمثل في أقوالهم التي كانت تجري على ألسنتهم عفو الخاطر . كقول حسان بن ثابت :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريرص على أن يستقيموا ويهتدوا وجدنا هذا مقتبس من قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبه : 129) .
وقول الحطيئة وقد كان أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد وتقوى الله خير الزاد زخراً وعند الله للاتقى مزيد وقول معن بن أوس قال متأثراً بأدب القرآن :
فما زلت في لبشي له وتعطفني عليه كما تحنو على السولد الأم وخفظ له مني الجناح تألفاً لتدنيه مني القرابة والرحم فقد اقتبس قوله هذا من الآية الكريمة : ﴿وَاخْفَضْ هُنَّا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء : 24) .

ولا شك أن القرآن الكريم كان وما زال منهل أعلام البلاغة ، ومعين فحول البيان ، ومصدر إيحاء الأدباء والشعراء . وحين نأتي في سياق الكلام إلى كاتب ، أو شاعر ، أو خطيب ، نجد العبارة تضيء بنورها الخاص وكأنها الشهاب الساطع . وفي عصرنا لا يزال الأدباء والخطباء يستقون من فيض كتاب الله في كتاباتهم وخطبهم ، ويرصعون بالفاظه ما يقوم ألسنتهم ويزين خطبهم بدون تكلف أو تصنع لأن ذلك يورث الكلام البهاء والوقار ، والرقة في استهالة القلوب والعقول ، وأكثر ما كان يحدث ذلك أيام الحفل وأيام الجمع .

القرآن الكريم يدعو المؤمنين إلى الاتحاد

بعد أن دعا الله المؤمنين إلى التقوى ، دعاهم أيضاً إلى الاتحاد ليكونوا قوة صامدة في وجه الأعداء لا تغلب ولا تقهـر . قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفْرَقُوا، وَادْعُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذَا كُنْتُمْ أَعْدَاءَ، فَأَلْفُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْرَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حَفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذْتُمُوهُنَّا، كَذَلِكَ يَبْيَنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِعُلُّكُمْ تَهتَدونَ وَلَتَكُنْ مِّنَّا مَّا يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

المنكر ، وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم
البيّنات ، وأولئك لهم عذاب عظيم ۝ (آل عمران : 103) إذا تأملنا في مضمون هذه
الأية نرى أن الله عز وجل :

- يدعو المؤمنين إلى التمسك بحبل الله ، أي الإسلام أو القرآن ، ليحكموه في كل
أمورهم ويسترشدوا به في سلوكهم ، الفردي والإجتماعي فيكونوا يداً واحدة على
أعدائهم ، ويد الله مع الجماعة ، ولا تفرقهم الأهواء والطمع والجشع والأنانية ، ولا
تشتت شملهم الأحزاب والفرق ، وعليهم أن يذكروا فضل الله عليهم دائمًا الذي حولهم
بعونه ورحمته ، من أمة متفرقة ، وقبائل متباينة قلقة ، إلى جماعة متّحدة متّسخة في
الله . وبذلك أنقذهم سبحانه ما كانوا عليه من كفر وضلال كادا يؤدّيان بهم إلى شفا
حفرة نار جهنم لو لا رحمة الله التي تداركتهم بالإسلام .

- كما يدعوهم سبحانه إلى فعل الخير والأعمال الصالحة . فهم كما أراد سبحانه خير
أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . وهذا الأمر ليس مقصوراً على
جماعة معينة أو فرد معين من المسلمين فكل مسلم من واجبه الشرعي أن يكون بناء في
مجتمعه ، فإذا رأى الخير حبّ فيه وشجع له ، وإذا رأى الشر نهى عنه وقاومه بكل ما
عنه من قوة .

هذا وقد حذرت الآية الكريمة من الاختلاف بين المسلمين والتفرقة حتى لا يكونوا
كاليهود الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البيّنات من التوراة فأصبحوا شيئاً وأحزاباً ،
يكذب كل حزب منهم الحزب الآخر ، فضعف شأنهم في الدنيا وذهب ريحهم ،
 وخسروا أيضاً الآخرة فكان لهم فيها عذاب عظيم .

- لقد صورت الآية تصويراً رائعاً ودقيناً ما كان عليه الناس من ضلال وكفر بحيث
لو استمروا على كفرهم فكانهم يقفون على حافة هاوية من النار يكادون أن يسقطوا فيها
لو لا إنقاذ الإسلام لهم .

وقد أنت العبارات لتؤكد هذه المعانى فتأمل العطف بالفاء في قوله : فـأـلـفـ -
 فأصبحتم ، فأنقذكم ، تفيد أن الإسلام نقلهم بسرعة مما كانوا فيه إلى ما أصبحوا
عليه .

قال تعالى : ﴿ وَأَعْدُوا لَهُم مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تَرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعُدُوكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ؛ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . إِنَّ جَنَاحِوا لِلْسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال : 60 - 61)⁽¹⁹⁾ .

تبداً هذه الآيات الكريمة بفعل أمره « وأعدوا » وهو يناسب الحسم والحزم في الحرب والقتال فلا تردد ولا تباطؤ في الاستعداد لمواجهة أعداء الإسلام ، أعداء الله . بكل ما عند المؤمنين من قوة « ما استطعتم » حتى يتغلبوا على أعدائهم وتنتظر راية الدعوة الإسلامية ويدخل في تهيئتهم للحرب جميع آلات الحرب ومعدات الدفاع المناسبة كانت في الماضي السيف والرمح والنشاب واليوم أصبحت الطائرات والمدافع والدبابات الصواريخ والقنابل المختلفة . وكلها وسائل قوة . وقد ذكرت الآية الخيل لأنها قدماً كانت من أهم وسائل القتال . وبصورة خاصة الخيل العربية الأصيلة .

ثم قوله ﴿ تَرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ﴾ يبين هدف هذه القوة وغايتها فهي ليست للبغى والعدوان ، كما يحصل اليوم من قوة الدول الكبرى ، وإنما هي للتخفيف والسلام ودفع الشر والظلم . ذلك أن المسلمين عندما يعودون هذه القوة بخافهم العدو فلا يتجرأ على التعدي فيحسب لهم ألف حساب ثم يرهبهم ويخافهم فتحجج الدماء ولا تقع الحرب .

وقوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ يلفت نظر المسلمين بأن هناك عدواً ظاهراً مكشوفاً ، وعدواً خفياً مستتراً ، يساند العدو الظاهر ويقويه إما سياسياً وإما اقتصادياً ، وأما بالخبرة والتوجيه . وهذا العدو هو أخطر بكثير من العدو الظاهر فيجب أن يحسب حسابه بدقة وحذر كما تدعوا الآية إلى البذل والإإنفاق في سبيل هذه الدعوة النبيلة ، فسلك القرآن مسلكاً لطيفاً من أجل الإنفاق وهو الترغيب فالذي ينفق على الجيش الإسلامي لمقاومة العدو المحقق به ، ينفق في سبيل الله وسوف يوفى إليه لأن الله لا يضيع أجر المحسنين .

وقد آثر هذا التعبير بدل « في سبيل الحرب والقتال » ليؤكد أنها دعوة ربانية ، وليس أبداً لمطامع شخصية .

(19) رباط الخيل : طوائف الخيل المعدة للقتال . ترهبون : تخيفون العدو فلا يتجرأ على الاعتداء عليكم . من دونهم : من غيرهم . في سبيل الله : تبغي هنا الإنفاق في سبيل إعداد الجيش . جنحوا : مالوا .

ثم تعبير آخر «بأن» التي تفيد الشك في قوله : « وإن جنحوا للسلم » حق يكون المؤمنين على حذر تمام من نوايا الأعداء . لأن هناك فرقاً كبيراً بين الرغبة الحقيقة في السلام وبين التظاهر به من أجل التضليل والخداع ، وكم حصل مثل هذا بين المسلمين واليهود ! .

إن المسلمين المؤمنين في أي زمان ومكان يرحبون بالسلام عندما يكون هناك سبيل كريم لقبوله . ولكنهم يأبون الاستسلام أو السلام المضلل الخداع الذي يكون جنراً تحت الرماد حيث يظهرون السلام بالستهم ويضمرون الشر في قلوبهم .

هاتان الآياتان من سورة الأنفال نزلتا في المدينة بعد موقعة « بدر » الشهيرة ، أولى معارك المسلمين مع مشركي مكة . وقد انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً على أعدائهم وأعداء الله .

والاليوم التاريخ يعيد نفسه ففي كل حين معركة ، بل معارك ، بين المؤمنين وبين أعدائهم الملحدين ، وفي كل يوم بدر وخبيث وبني نضير وبني قينقاع . وقد ظهرت أطعاعهم في هذه الأيام وظهر نفاقهم وغدرهم وحقدتهم على المسلمين . فزحفوا بكل ما عندهم من أسلحة فتاكه تدميرية يحملون الصليب شعارهم ويبغون ضرب القوة القاهرة عند العرب ، العراق العريق بحضارته وشجاعته وعنفوانه . بلد حضارة ما بين النهرين الذي يأب الذل والهوان ، والمتمسك بعزته الإسلامية التي أرادها الله له سبحانه وتعالى . فقال : « ... والله العزة ولرسوله وللمؤمنين » (المنافقون : 8) . فعزّة المؤمن من الله تعالى تأتي بعد عزة الرسول ، وهذا تقدير عظيم وجليل للمؤمنين ، وعليهم المحافظة على هذه المرتبة الكريمة ولا يرضخون لأي قوة غاشمة ظالمة مهما كبرت وتجبرت ، لأن كرامة المؤمن لله وليست ملكه الشخصي حتى يضحي بها أو يتنازل عنها بل يبقى مرفوع الرأس على الجبين لا يطأطئ رأسه سوى رب العالمين . ولثقة عباده المؤمنين جعلهم سبحانه شهداء على الناس ، والشاهد ، كما هو معروف لا يكون إلا صاحب حق وعلم . ومكانة اجتماعية عالية محترمة . قال تعالى :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع من ينقلب على عقيبه ... » (البقرة : 143) .

فهل يسمع المسلمون هذا الثناء من رب العالمين ؟ وهل يتبعون كلهم الرسول ؟

القرآن الكريم يحذر من خيانة العهد

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثُمَّاً قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَا خَلَقْتَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَزْكِيَهُمْ ، وَلَمْ يَعْذَابْ أَلَيْمَ ﴾ (آل عمران : ٧٧) .

في هذه اللوحة يصور الله طائفة من أهل الكتاب كافرين يحاولون تضليل المسلمين فيلبسون الحق بالباطل ﴿ وَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦) فيحذر الله المسلمين ألا يؤمنوا إلا من اتبع دينهم .

هؤلاء الكفار ﴿ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال تعالى بصيغة الاستفهام الإنكارية : ﴿ بَلِّيْ مِنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ وَأَنْقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَقِنِ ، الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثُمَّاً قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَقْتَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَزْكِيَهُمْ ، وَلَمْ يَعْذَابْ أَلَيْمَ ﴾ (آل عمران : ٧٧) .

إنها قاعدة خلقية واحدة يقررها القرآن الكريم فمن راعاها وفاءً بعهد الله وشعوراً بتقواه أحبه الله وأكرمه وكان في الآخرة من الفائزين ، أما من اشتري بعهد الله وبأيمانه ثمناً قليلاً من عرض هذه الحياة الدنيا الفانية ، وهي متاع قليل ، فلا نصيب له في الآخرة ويكون من الخاسرين ، لأن لا رعاية له عند الله ولا قبول ولا زكاة له ولا طهارة ، وإنما له العذاب الدائم الأليم .

يرشح من هذه الآيات المباركة أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى ومن ثم لا يتغير في التعامل مع عدو أو صديق ، أو قريب ، أو بعيد ، وليس مسألة شخصية مزاجية ، إنما هو تعامل مع الله عز وجل . وهذه هي أساس نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة . في الوفاء بالعهد وفي غيره من الأخلاق .

التعامل هو أولاً تعامل مع الله ، يتتجنب به غضبه ويطلب به رضاه بعيداً كل البعد عن أعراف الجماعة وظروفها وأحوالها . لأن الجماعة قد ترווج في أوساطها المقاييس الباطلة فتنحرف عن الخط الإلهي المستقيم وتضل عن الصواب والهادية ، فلا بد والحالة هذه من خط ثابت ، ومقاييس عادل ترجع إليه الجماعة ويرجع إليه الفرد على حد سواء . هذا المقياس هو ثابت لا يتغير وقوى يستمد قوته من جهة عليا متزهدة عن الأخطاء والمصالح الشخصية المتغيرة بتغير مقتضيات الناس وظروف حياتهم ومصالحهم .

ولا يخفى أن في التشريع الإسلامي تستمد القيم الإنسانية والمقاييس العادلة من الله عز وجل؛ بمعونة ما يرضيه من أخلاق فاضلة، والتطلع بعين بصيرة، ونفس تقية، وقلب نظيف ظاهر. وبهذا يضمن الإسلام تطلع البشرية الدائم إلى أفق أعلى من طين الأرض، الذي منه تستمد قيمها الصالحة وموازينها العادلة والمتلائمة مع كل زمان ومكان.

أما الذين يخونون العهد ويغدرون بالأمانة، ويعيشون لدنياهم فقط فهم: «الذين يشترون بعهد الله وأيامهم ثمناً قليلاً» (آل عمران: 77). فالعلاقة هنا هي بينهم وبين الله قبل أن تكون بينهم وبين الناس ومن هذا المنطلق يخسرون نصيبيهم عنده في الآخرة، لأنهم بغوا المصالح الدنيوية الرخيصة، ونكثوا بالعهد فلا نصيب لهم ولا رعاية من الله يوم الحساب جراء استهانتهم بعهده سبحانه وتعالى، إلا وهو عهدهم مع الناس في الدنيا.

قال رسول الله (ص): «الناس كلهم عباد الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله»، ولا يمكن أن يكون نافعاً لعيال الله إلا أن يكون صادقاً في أقواله، وفيما في أعماله يتطلع إلى رضاه ويشعر بتقواه. ومن المعروف أن التاجر يشتري بضائعه بشمن متواضع وبيعها بشمن أعلى ليحقق ربحاً معلوماً ليزيد به رأس ماله، وهكذا دواليك حتى يحصل على ثروة كبيرة. فكيف بتجارة هؤلاء الكفار المنحرفين عن الخط الإلهي يشترون بشمن باهظ كثيراً وبيعون بسعر منخفض كثيراً، إنهم يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً !!

وهل يقدر عهد الله؟ وهل يقدر رضاه بشمن؟ فإذا ربع الإنسان جميع ما في هذه الدنيا الزهيدة الفانية وخسر الآخرة، خسر رضى الله ماذا يكون قد جنى؟ وما هي أرباحه التي حققها؟ لا شك أنه قد خسر خسارة كبرى لا تقدر بشمن.

ونلمح هنا في هذه اللوحة الرائعة، طريقة طريفة في التصوير، وأسلوباً رائعاً في التعبير، الأسلوب القرآني المعجز، يعبر عن إهمال الله سبحانه هؤلاء الفئة الضالة وعدم رعايته لهم، فلا يكلّهم ولا ينظر إليهم، ولا يطهرهم... وهذه كلها من أعراض الإهمال التي يعرفها الناس في حياتهم الدنيوية. وقد اتخذها القرآن الكريم وسيلة حسية ليصور بها الموقف صورة حية تؤثر تأثيراً بالغاً في الوجدان البشري أكثر مما يؤثر التعبير التجريدي.

وفي عصرنا اليوم، العصر الذي تسيطر فيه الماديات ويعيش أكثر الناس لدنياهم الزهيدة الرخيصة، نجد مثل هذه النماذج التي وصفها الله في كتابه العزيز، «يشترون

بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴿آل عمران : ٦٦﴾ . وهم لا يشعرون أن لا نصيب لهم من الخير ولا يحسن إليهم الله ولا يرحمهم !!

موقف الإسلام من الشعر

الشعر عامة هو وسيلة الشاعر الفنية لنقل تجربته في الحياة ، وهو تعبير عن حالة نفسية معينة يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة . ومن المسلم به أن الشعر الناجح هو الذي ينقل لنا صورة شعرية تمثل الفكر والعاطفة بدقة وأمانة . وهذا هو مقياسها الأصيل وكل ما نصفها به من جمال وروعة وقوة ، إنما مرجعه هذا التماض بينها وبين ما تصور من عقل الشاعر ومزاجه تصويراً دقيقاً خالياً من الجفوة والتعقيد⁽²⁰⁾ وليس هناك من حدث كبير إلا ونرى الشعر يواكبه ويرافقه . ودعوة الرسول ﷺ كانت من أكبر الأحداث ، دعا الناس إلى الإسلام فمن العرب من حسن إيمانهم فوققوا معه يدافعون عن الدين القويم ومنهم من استمر في غيه وضلالة فحاربوا الإسلام مما اضطر النبي ﷺ إلى حل السيف للذود عن الرسالة الإلهية . وكل ذلك نجده ماثلاً على السنة الشعراء .

ثم إن أقواماً ارتدوا ، فحاربهم الخليفة⁽²¹⁾ ومثل الشعر هذه الحرب وبعدها كانت الفتوح المجيدة والانتصارات العديدة على المشركين والكافرين ، فانطلق العرب ينشدون أناشيد الجهاد والنصر ، وتلت ذلك الفتنة الكبرى ، فتنة عثمان بن عفان وحرروب علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وعائشة ، ثم حرروب علي ومعاوية إلى غيرها من حرروب المخوارج وغيرهم عندها لا بد أن تعلو أصوات الشعراء ويسجلوا بأشعارهم كل ما يدور حولهم من أحداث .

والإسلام لم يهجن كل الشعر إلا الذي يحمل بين طياته المعانى التي لا تتفق مع جلالة الرسالة ولا تناسب مع وقار الإسلام وكماله . فكان يغض الشعراة الذين يبدون منهم من سمات وأخلاق لا يرضاهما الدين الحنيف والأخلاق الإسلامية الكريمة . قال تعالى : ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ (الشعراء : ٢٤٤) .

أما الشعر الذي لا يقف في وجه الدعوة فكان موجوداً في عصر صدر الإسلام حتى

(20) أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب ص 249 .

(21) كان ذلك في عهد أبي بكر الصديق .

أن النبي (ص) كان ينصلح إلى الشعر ويستمع إلى الشعراء . وكان يأمر حساناً أن يرد على خصوم الإسلام . وقد قال (ص) : « إن من الشعر حكمة » .

ويروى أنه وفد على رسول الله (ص) جماعة من بني تميم ، بعد فتح مكة ، ودخلوا المسجد وقالوا : يا محمد جئناك نفاحرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا ، فاذن لخطيبهم ، فقام عطارد بن حاجب بن زراة ، فأمر رسول الله (ص) قيس بن ثابت ، فرد عليه ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نَحْنُ الْكَرَامُ فَلَا حِيٌ يَعْدَلُنَا
مِنَ الْمُلُوكِ وَفِينَا يَقْسِمُ الرِّبْعُ
وَنَحْنُ نَطْعَمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مَطْعَمْنَا
مِنَ الشَّوَّاءِ إِذَا لَمْ يَؤْنِسِ الْقَزْعُ⁽²²⁾
وَلَا فَرَغَ الزَّبِرْقَانُ بْنُ بَدْرٍ
أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) حَسَانًا بِالرَّدِّ عَلَيْهِ فَارْتَجَلَ حَسَانٌ
قصيدته :

إِنَّ الْذَّوَائِبَ مِنْ فَهْرٍ وَأَخْوَتِهِمْ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَ سَرِيرَتَهُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَوا عَدُوَّهُمْ
قَدْ بَيْنُوا سَنَةً لِلنَّاسِ تَبَعُّ
تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

وَلَا فَرَغَ حَسَانٌ مِنْ قَصِيدَتِهِ قَالَ أَحَدُ رِجَالِ الْوَفْدِ ، الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ : « وَاللهِ إِنَّ
هَذَا الرَّجُلُ ، يَعْنِي مُحَمَّدًا ، مَلْوَقٌ لَهُ⁽²³⁾ ، وَلَخَطِيبُهُ أَخْطَبُ مِنْ خَطِيبِنَا وَلَشَاعِرُهُ أَشَعَرُ مِنْ
شَاعِرَنَا ، وَلَا صَوَاتُهُمْ أَعْلَى مِنْ أَصْوَاتِنَا » . ثُمَّ أَسْلَمُوا .

وَكَمَا يَبْدُلُنَا أَنَّ الشِّعْرَ حِينَ يَكُونُ هَدْفَهُ شَرِيفًا وَيَخْلُصُ فِي وَجْهِهِ يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ
مِنَ الْأَلْسُنَةِ الْمُجَاهِدَةِ فِي سَبِيلِ الدُّعَوَةِ . وَمِنَ الْأَسْلُحَةِ الْجَدِيدَةِ الْمُكافَحةِ فِي سَبِيلِ تَثْبِيتِ
دِعَائِهِمْ . وَبِذَلِكَ تَكُونُ رِسَالَةُ الشِّعْرِ لَا تَقْلِيلَ أَهْمَى مِنْ رِسَالَةِ النُّثُرِ إِذَا تَطَهَّرَ
الْقُلُوبُ ، وَتَصْلُحُ الْأَخْلَاقُ بِحُسْنِ الْأَدْبِ وَعَفَةِ الْلِّسَانِ زِجَّالِ الْخُلُقِ .

كانت رسالة الشعر في صدر الإسلام رسالة كريمة لا تعرف الفحش بالقول ، ولا
الجهر بالسوء ، ولا تخوض فيها حرم الله . لأنها رسالة سماوية مستمدّة من روح الإسلام
وتعاليمه السمحنة ، وأدابه القوية ، ودعوته الكريمة ، في معاملة الناس جميعاً ، والكل في
نظر الإسلام « أخوة في الدين وأسوة في الخلق »⁽²⁴⁾ . أما من بقي من شعراء هذا العهد

(22) القرع : السحاب .

(23) ملوق له : مسهل له في أمره .

(24) راجع نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب .

على تقاليد الجاهلية فيما يقول وينشد ، فقد نهى عليه الإسلام سلوكه وحاربه حرباً عنيفاً . وقد روي أن كعب ابن الأشرف ، من شعراء المدينة اليهود إنه شباب بناء المسلمين ، فأرسل النبي (ص) رهطاً من الأنصار مع محمد بن سلمة وقتلوه .

والشاعر صابء بن الحارث البرجمي أفحش في هجائه لبني جدول بن نهشل فحبسه عثمان بن عفان بسبب هجائه المقدع الفاحش .

وكذلك حبس عمر الشاعر النجاشي الذي هجا بني العجلان رهط ابن مقبل
بقوله :

وَمَا سُمِيَ الْعَجْلَانُ إِلَّا بِقَوْلِهِ
خُذِ الْقَعْبَ وَاحْلُبْ أَهْلَهُ الْعَبْدَ وَاعْجَلْ
وَكَذَلِكَ حُبْسُ الْحَطَبَةِ حِينَ أَفْحَشَ فِي هَجَاءِ الزَّبْرَقَانِ بْنِ بَدْرٍ وَهَدَدَهُ بِقَطْعِ لِسَانِهِ
لَوْلَا أَنْ فَزَعَ إِلَيْهِ وَاسْتَشْفَعَ عَنْهُ .

من هنا نرى كم كان للكلمة من تأثير بلغ في نفوس الناس ، حتى أنها كانت أبلغ من حد السيف . « والقول يفعل ما لا تفعل الأبر » .

وهكذا نرى كيف أن الإسلام عمل على إصلاح النفوس وتهذيب الألسنة موجهاً رسالة الشعر إلى أسمى الغايات وأنبل الأهداف .

أغراض الشعر في صدر الإسلام

الشاعر ابن بيته ، والشعر تعبير صادق عن الأفكار والمشاعر التي تنسجم مع قائلها ، وتتوافق مع تعاليم المجتمع الذي يعيش فيه ، وفي عصر صدر الإسلام نرى الشعراء قد هجروا لأغراض التي تتنافي وتعاليم الدين الإسلامي كالمجادلة المقدع ، والفخر الكاذب ، والغزل الفاحش . فالشاعر الذي يتجاوز حدوده كان يسجن كما حدث لابن الحارث والخطيبة وغيرها كما بطل القول في الموضوعات التي يرفضها الإسلام ويحررها ، كشرب الخمر ، ولعب الميسر ، والأخذ بالثار ، والنمية ، والتسيب ، والاستهتار ، والفحotor ، والرغبة في الانتقام ، وحياة البطولة والصراع . هذه الموضوعات أبطل الإسلام القول فيها ومنع ممارستها لأنها توهي العلاقات بين أفراد المجتمع ، وتعمل في هدمه وتخربيه ، كما انخر السوسة جذوع الشجر . ولكن كان كثير منها شديد الصلة بحياتهم في الجاهلية ، وقد قالوا فيها أجود أشعارهم الملوءة حياة وروعة وقوة . وهذا ما يفسر لنا بعض الحق فيما يقال من أن الشعر ضعف في صدر الإسلام . وهو نقد غير دقيق لأن ضعف هذه الأغراض سبب ثنو وإزدهار أغراض أخرى التي سوف

نافي على ذكرها أما الأغراض الشعرية التي ثبتت وترعرعت في ظل الدعوة الإسلامية فهي على التوالي :

1 - الدعوة إلى الإسلام الحنيف ومبادئه القومية ، ومقارعة خصومه بالرد عليهم . ومن أبرز هؤلاء الذين عن الدعوة المباركة ورسوها الأمين : حسان بن ثابت (54 هـ) و Kubab bin Malik (50 هـ) و عبد الله بن رواحة (9 هـ) .

وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام والرسول بشعرهم هبيرة بن أبي وهب (50 هـ) وأبو سفيان ، وضرار بن الخطاب ، وابن الزبوري .

فكان لا بد من الرد على هؤلاء دفاعاً عن الدعوة والرسول ومقارعتهم بسلاحيهم .

2 - هجاء أعداء الدعوة في عصر النبوة ثم هجاء المشركين والكافرین بعد عصر النبوة .

3 - رثاء الذين استشهدوا في غزوات الرسول في الغزوات الإسلامية من الخلفاء وكبار الصحابة ، ومن قتل ظلماً من المجاهدين في سبيل الدعوة الإسلامية من قبل المشركين والكافرین أعداء الإسلام .

4 - الفخر بالانتصار على جيوش الفرس والروم في آن معاً ، ومدح الأبطال المسلمين الشجعان ، ووصف آلات الحرب والمحصون والمعاقل وأنواع الحيوان الذي لم يروا مثله سابقاً ، كالفيلة التي حارب العرب عليها للفرس وانتصروا بعون الله وإرادته . قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .

وسوى ذلك مما ملئت به كتب المغازي والفتوح . وأكثر هذه الموضوعات تكلم عليها الشعراء في باب الأراجيز .

5 - المدح : في هذا الفن يتوضّح أثر الإسلام في معانٍ الشعر والفاظه ، وقد اشتهر من شعرائه : حسان بن ثابت ، و Kubab bin Zuhair ، والنابغة الجعدي ، والخطيبية ، و عبد الله بن رواحة .

6 - الحكمة : عرف الشعر الحكمي في الجاهلية قبل الإسلام ، ولكن في عصر صدر الإسلام كثُر هذا اللون الشعري وتغير مدلوله بتأثير الثقافة الإسلامية والقرآن الكريم ، والتجارب الخاصة والعمامة التي أفادوها من الحياة الجديدة . قال الخطيبية :

من يفعل الخير لا يعدم جوازه
وقال حسان :
لا يذهب العرف بين الله والناس
من الناس إلا ما جنى لسعيد
وإن امرأ يسي ويصبح سالماً
وقال كعب :
من دعا الناس إلى ذمه ذمه بالحق والباطل
7 - الزهد : من تعاليم الإسلام القوية عدم التكالب على المادة والتزهد في هذه الدنيا الفانية ، والوعظ والدعوة إلى تقوى الله ، وقد قال الشعراء في هذا الباب وأجادوا .

معاني وأساليب الشعر في صدر الإسلام

بدأت معانٍ الشعر في هذا العصر تتأثر تأثراً واضحاً بالقرآن الكريم ، وقد غالب عليها الطابع الإسلامي . وظهرت المعانى الإسلامية والعاطفة الدينية . قال عبد الله بن رواحة في مدحه الإسلام وهجائه لقريش :

فيينا النبي وفيينا ننزل السور
حي من الناس إن عزّوا وإن كثروا
على البرية فضلاً ماله غير⁽²⁵⁾
تشيّط موسى ونصرًا كالذى نصروا⁽²⁶⁾

تجالد الناس من عرض⁽²⁵⁾ فنأسهم
وقد علمتم بأن ليس غالباً
يا هاشم الخير إن الله فضلكم
فثبتت الله ما آتاك من حسن

كما أخذوا يهجرون الحوشى من الكلام والغريب المبتذل وتردد في شعرهم الكثير
من الألفاظ الإسلامية .

قال حسان في استشهاد حزة يوم أحد :

وامر الذي يقضى الأمور سريع
حيم معاً في جوفها وضربيع

فإن جنان الخلد منزله بها
وقتلام في النار أفضل رزقهم

(25) عن عرض : يزيد أنهم لا يبالون من يضربون .

(26) غير : تغيير .

(27) نصروا : يقصد الرسل .

وقال أيضاً في هجاء قريش أبا سفيان⁽²⁸⁾ :
 هجوت حمداً فاجبت عنه
 وإن أبي ووالده وعرضي
 أتهجوه ولست له بكافٍ
 وقد كثُر في شعرهم الاقتباس من القرآن الكريم :
 قال معن بن أوس :
 فما زلت في ليفي له وتعطفني
 وخفض له مني الجناح تألفاً
 ومن صفات شعر صدر الإسلام العمق والدقة وترتيب المعاني والأفكار .

قال كعب يوم أحد :
 فجئنا إلى موج من البحر ووسطه
 ثلاثة آلاف ونحن نصبة
 فراحوا سراعاً موجفين كأنهم
 ورحنا وأخرانا بطة كأننا
 أحبابيش منهم حامر ومقنع⁽²⁹⁾
 ثلاثة مثين إن كثنا وأربع⁽³⁰⁾
 جهاماً هراقت ماءه الريح مقلع⁽³¹⁾
 أسود علّ لحم بيضة ظلع⁽³²⁾

جمال السبك وعدوينة الكلام وسلامة الأسلوب

هذه السمات البارزة للشعر في صدر الإسلام ، ألفاظ عذبة تجري على كل لسان ، ليس فيها أي تقرؤ أو فحش ، ومعان عميقه ودقيقة وصائبة جليلة الوقع قرية المتناول .

وهذا حسان يمدح النبي (ص) يقول :
 من الله مشهود يلوح ويشهد
 إذا قال في الخمس المؤذن : أشهد
 فذو العرش محمود وهذا محمد
 اغرا⁽³³⁾ عليه لنبوة خاتم
 وضم الإله اسم النبي إلى اسمه
 وشق له من اسمه ليجله

(28) الاستيعاب لابن عبد البر ص 129 .

(29) أحبابيش : حلف من قريش تحالفوا عند جبل يسمى جيشاً .

(30) النصبة : الخبر والأشراف .

(31) موجفين : مسرعين والجهام : السحاب أفرغ ماءه .

(32) مكان كبير الشجر : بيضة . ظلع : سير بطيء .

(33) أغرا : أبيض الوجه .

من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
يلوح كما لاح الصقيل المهند^(٣٤)
وعلمنا الإسلام ، فـالله نـحمد
بـذلك ما عـمرت في النـاس أـشهد
سـواك ، إـهـا أـنت أـعلى وـأـمـجـد
فـإـيـاك نـسـتـهـدـي وـإـيـاك نـعـبد

نبی أنانا بعد يأس وفتره
فامسى سراجاً مستنيراً وهادياً
وأنذرنا ناراً، وبشر جنة
وأنت إله الخلق ربى وخالقى
تعاليت رب الناس عن قول من دعا
لك الخلق والنعماء والأمر كله

وقال أبو ذؤيب الهدلي شرعاً يرثي به أولاده السبعة تدل كلماته على معانيه ، وتسيل نفس الشاعر متذكرة من خلال هذه المعانى ، تصور بعمق وصدق ووضوح خواطر قائلها :

والدهر ليس بمعتب من يجزع
بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
وإدخال أني لا حق مستتبع
وإذا المنية أقبلت لا تدفع
الفيت كل نعمة لاتنفع
سملت بشوك فهي عور تدمع
أني لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا تردد إلى قليل تقنع
معانيها والمتالفة تمام التالف كأنما فصلت

أَمِنَ الْمُنْوَنْ وَرِبَّةَ تَفْجَع
أَوْدِي بْنِيْ وَاعْقَبُونِيْ حَسْرَة
فَبَقِيَتْ بَعْدَهُمْ بَعِيشَ نَاصِب
وَلَقَدْ حَرَصْتَ بِأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ
إِذَا الْمُنْيَةَ أَنْشَبْتَ أَظْفَارَهَا
فَالْعَيْنَ بَعْدَهُمْ كَانَ حَدَاقِهَا
وَتَجَلَّدِي لِلشَّامَتِينَ أَرْهَمْتُو
وَالنَّفْسَ رَاغِيَةً إِذَا رَغَبْتَهَا
فَتَأْمَلُ الْكَلِمَاتَ الْمُنْسَجِمَةَ انسِجاماً تَ
قَدْرًا بِقَدْرِ تَفْصِيلٍ مُحْكَماً رائعاً .

الشعراء المخضرمون ومدى تأثيرهم بالإسلام

طغى سيل عرم من الشعراء المخضرمين الذين تأثروا بالإسلام تأثيراً عميقاً وصدر جهور منهم في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها إيماناً راسخاً . وقد نلمس الكثير من شعرهم بين دفاتر كتب الأدب والتاريخ والسير . ولشعراء المدينة النصيـب الأولـيـة في هذا الميدان . لقد ناصـروا الرسـول (صـ) بكل ما عندـهم من قـوة ودافـعوا عن الدـعـوة الإـسـلامـية بكل ما أـمـدهـم اللهـ من جـهـد وصـبرـ ، يتقدـمـهمـ حـسانـ بنـ ثـابـتـ وكـعبـ بنـ مـالـكـ وعبدـ اللهـ بنـ رـوـاحـةـ . وكانـ إلىـ جانبـ هـؤـلـاءـ

⁽³⁴⁾ الصقلي المهد : السيف .

الثلاثة المبرزين شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية ، وقد رويت لهم
أشعار تظهر مدى إيمانهم العميق بالدين الإسلامي .

قال عبد الله بن رواحة في هجاء الكافرين :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وهذا الشاعر خاصة كان دائم الاستمداد من القرآن . وبتحول العقيدة تحول معها
القلب وتحول معه اللسان ، فشعراء قريش منذ فتح مكة دخلوا في دين الله وتابوا عن
الماضي ليكفروا عما قدمت ألسنتهم من شعر فيه طعن بالإسلام . فليس لهم إلا الإعتذار
للرسول لعل الله يقبل توبتهم . قال ابن الزبوري :

ومن الشعراء المشهورين إلى الشعراء الذين لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة مثل عبدة بن الطيب ، من شعراء الفتوح ، فقد روى له صاحب المفضليات قصيدة فيها الكثير من معاني القرآن الكريم كالتقوى ، والبر بالوالدين ، والحدن من النهان . يقول :

أوصيكم بثقلِ الإله فإنه
وببرِ والدكم وطاعة أمره
واعصوا الذي يزجي النهايم بينكم

يعطي الرغائب من يشاء وينع
إن الأبرُّ من البنين الأطوع
متتصحاً ذاك السُّلام المنقُع⁽³⁷⁾

وهذا سُوَيْدَ بْنُ أَبِي كَاهْلِ الْيَشْكُرِيُّ يَقُولُ قَصِيدَةً يَفْخِرُ فِيهَا فَخْرًا جَدِيدًا لَا عَهْدَ لَهُ
يَهُ مِنْ قِبَلٍ، فَخْرًا إِسْلَامِيًّا صَرَفَ.

كتب الرحمن والحمد له
واسأء للدنیات اذا
اسعه الأخلاق فینا والفضل
اعطى المکثه ضافکنیع

³⁵⁾ راجع ابن سلام الجمجم، ص 202 ورقة الفتوى: سلسلة بور: ضيال، هالك.

⁽³⁶⁾ مسن : طرق . مشور : هالك .

⁽³⁷⁾ يزجي : يدفع . السلام : السم . المنعم القاتل .

(38) رابع الشعراء ج 1 ص 384 وحديث الأربعاء لطه حسين ص 190 . والفصل : الأضطلاع بالامر

(39) المكتور : المغلوب . كتم : خضم .

ويناءً للمعالي إنما يرفع الله ومن شاء وضع
نَعْمَ اللَّهُ فِينَا رَبِّهَا وَصَنَعَ اللَّهُ، وَاللَّهُ صَنَعَ⁽⁴⁰⁾

ثم يضي مستلهماً من آيات قرآنية معانٍه فنراه يصف بعض النّاهمين الذين يغتابون
الناس ويظاهرون أنهم أصدقاء . قال :

بَشْ مَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابِنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌ وَدَاءٌ يُذْرِعُ⁽⁴¹⁾
وَيُحِبِّنِي إِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتْعَ⁽⁴²⁾

ولا يخفى أنه اقتبس المعنى من الآية الكريمة : ﴿ وَلَا يَغْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيْحَبُ
أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلْ لَحْمَ أَخِيهِ مِنْتَأْ فَكَرْهَتْمُوهُ ﴾ .

ومنهم من أسلم في آخر عمره وهو كبير السن مثل الحصين بن الحمام زعيم بني مرة
الذبيانيين قال :

لَبَسْتُ إِلَى الرَّفْعِ سَرِيَالَهَا⁽⁴³⁾ دِسْمَ تَسْعَرْ فِيَهِ الْحَرُوبِ
وَنَفْسٌ تَعْالِجُ آجَالَهَا فِلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَاكَ إِلَّا التَّقْنِيَ
مَقَادِيرٌ تَنْزَلُ أَنْزَالَهَا⁽⁴⁴⁾ أَنْزُورَ مِنَ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ
تَ يَوْمَ تَرَى النَّفْسَ أَعْيَالَهَا أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْمُخْزِيَا
وَخَفْ المَوَازِينَ بِالْكَافِرِينَ زَلْزَالَهَا

فالصلة واضحة بين هذه الأبيات وأي الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَقِنِينَ ﴾ ﴿ فَمَنْ اتَقَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ بِحَزْنٍ نَّوْنَ ﴾ . ومنه قوله
تعالى أيضاً : ﴿ وَإِنْ مَنْ شَيْءَ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَانَتِهِ وَمَا نَزَلَهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ ﴾ وقوله جل
وعلا :

﴿ إِذَا زَلَّتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا ﴾ ﴿ فَمَا مِنْ نَقْلَتِ مَوَازِينَهُ فَهُوَ فِي عِيشَةِ رَاضِيَةٍ
وَأَمَا مِنْ خَفَتِ مَوَازِينَهُ فَأَمْهَى هَاوِيَةٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ وقوله تعالى أيضاً :
﴿ وَوَفَيتَ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

(40) ربها : أئتها . صنع : هنا صفة أي أن الله قادر على أن يصنع .

(41) وَخَمٌ : غير منظور . يُذْرِعُ : يلبس .

(42) رَتْعَ : أكل بهم .

(43) تَسْعَرْ : تتقى . السِّرِيَالُ : الدرع راجع الأغاني ج 14 ص 14 .

(44) أَنْزَالَهَا : منازلها .

ولا يخفى أن الشعر في صدر الإسلام تعولت مدلولاته ومعانيه عنها كانت عليه في الجاهلية ، ولانت ألفاظه ، وشعر الأنصار من الأوس والخزرج يدل على ذلك . وقد علل النقاد أسباب هذا التحول فعزوه إلى سببين .

الأول : إن الإسلام نزع كثيراً من بواعث الشر التي تثير التغوس وتشعل الأحقاد كالأخذ بالثأر ، والنشوة بالخمر ، والمعصية الجاهلية وحب الإنتقام ، والتروي في حل الأمور بما يسكن النفس ويزيل عنها احتدام الشر والغضب .

وأمر آخر وهو إن كثرة تلقיהם آيات القرآن المعجز ونزوله بينهم كل حين بما يسحرهم ويأخذ بمجامع قلوبهم ، قلل من شأن شعرهم وصغر قيمته في أعينهم فاستضعفوا أسلوبهم ومعانيهم إلى أسلوبه ومعانيه ، فهبطت قوة شعرهم عنها كانت عليه . ومثلوا لذلك بقوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الإسلام .

يروي الثعالبي فيقول :

« كان حسان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ويغير في نواصي الفحول ويدعى أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء . »

ويقول مثل قوله في بني جفنة ملوك غسان⁽⁴⁵⁾ :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريمة المفضل
بيض الوجوه كربة أحبابهم شم الأنوف من الطراز الأول
فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان ملكاً ، وكان التحول في العقيدة والقلب
واللسان ، تراجع شعره وكاد يركض في قوله ليعلم أن الشيطان أصلح للشعر وأيق به
رذهب في طريقه من الملك .

ولا ريب أن تغير البيئة من الوبر إلى الحضر ومن الجاهلية إلى الإسلام يغير الطياع ويغير طريق الحياة ويمحو الإنسان فكراً وقلباً ولساناً . فالبيئة الإسلامية غيرت حياة المسلمين تغييراً جذرياً في فكرهم وسلوكهم وعقيدتهم ، وسياستهم ومجتمعهم .

فعمرو بن أهر الباهلي يرضي فيتوجه إلى رب داعياً⁽⁴⁶⁾ :

إليك إله الحق أرفع رغبتي عيادةً وخوفاً أن تطيل ضمانياً⁽⁴⁷⁾

(45) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام عن الثعالبي خاصه الخاص ص 173 .

(46) الشعر والشعراء ج 1 ص 315 والإصابة ج 5 ص 114 .

(47) الفهان : ما يصيب الإنسان في جسده من مرض .

فإن كان بُرءاً فاجعل البرء نعمة وإن كان فيضاً فاقض ما أنت قاضياً⁽⁴⁸⁾
فمن غير شك أنه كان يستهدي في هذا آي الذكر الحكيم التي تدعوا إلى البرء من
الله بعيداً عنها كان يستدعي به الجاهليون من الأصنام .

ومن الشعراء الذين عرفوا بصدق عاطفهم الدينية نهشل بن حري⁽⁴⁹⁾ في مراثيه
لأخيه مالك ، وكان قد قتل في معركة صفين قال⁽⁵⁰⁾ :

فأؤدوا بعد إلف واتساق
موليةٌ تهيا لانطلاق
أعاذل قد بقيت بقاء قيس
وما حيٌ على الدنيا بباق

أناس صالحون نشأت فيهم أرى الدنيا ونحن نعيش فيها
ومنهم من عرف برقة عاطفته الإسلامية ومع ذلك فحين تتعقب شعرهم نجد فيه
بعض اللمسات الإسلامية تظهر من حين إلى حين .

من هؤلاء عبد بن المحسحاس⁽⁵¹⁾ شاعر الغزل الإباحي ولعل قتله من قبل قومه
بسبب قوله غزلاً مفحشاً . قال في بعض أبياته :
عميرةً ودفع إن تمهرت غازياً كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا
ومثل هؤلاء يروي ابن سلام عن الشاعر ابن مقبل :
« إنه كان جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية »⁽⁵⁴⁾ ومع ذلك
رشحت على لسانه أبيات يظهر فيها ما يدل بوضوح على تأثيره بالدين الحنيف مثل قوله :
هل الدهر إلا تارتان فم منها أموت وأخرى أبتغي العيش أكدرخ
وكلاها قد خطط لي في صحيفة فلا الموت أموى لي ولا العيش أرُوح
يبدو من هذين البيتين تأثر الشاعر بالأية الكريمة : « ما أصاب من مصيبة في
الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها أن الله على ذلك يسيراً »
(الحديد : 22) .

(48) فيضاً : موتاً .

(49) الشعر والشعراء ج 2 ص 619 والإصابة ج 268 .

(50) أمالي المرتضى ج 2 ص 226 .

(51) الأغاني ج 20 ص والشعر والشعراء ج 1 ص 156 وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .

(52) ابن سلام ص 120 والحيوان للمجاحظ ج 3 ص 48 .

كما تجد في شعره خيوطاً إسلامية تظهر في نسجه فيقول في الذين همهم الحياة وجمع الذخائر المادية الفانية ، وما الذخيرة الباقية إلا لصالح الأعمال . يقول في ذلك⁽⁵³⁾ :

الناس همهم الحياة ولا أرى طول الحياة يزيد غير خيال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
وهذا القول مقتبس من الآية الكريمة : ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً﴾ (الكهف : 46) .

القرآن الكريم والمحيط الإسلامي أثراً تأثيراً واضحاً في نفوس المخضرمين حتى في كبار السن منهم .

يتبيّن لنا أن الإسلام أضاء نفوس العرب بتعاليمه ، وتعمقت هذه التعاليم الإنسانية القوية إلى شغاف قلوبهم ، فغيرت نظرتهم إلى الحياة وبدلتهم مثالبهم فيها كانوا يحبون ويرغبون ، وقد ظهر ذلك بيناً واضحاً في أشعارهم : المديع ، والهجاء ، والزهد ، والحكمة ، إذ نرى الصفات الدينية والتعابير الإسلامية تتلألأ في قصائدهم وقد زهد فريق منهم في حطام الدنيا فتحول يتبتّل إلى ربه ، ويناجيه في شعره ويهجو الشيطان الذي كان يستلهم منه القول في العصر الجاهلي ، وأخذ يحذر الناس من الوقوع في حبائله .

وقد شاع بين الأدباء الباحثين من مستشرقين وعرب حذوا حذوهم إن الإسلام لم يترك آثاراً عميقاً في نفوس المخضرمين وخاصة أهل البدية وعلى رأس هؤلاء النقاد المستشرق الفرنسي نالينو⁽⁵⁴⁾ . نقول لنالينو وأتباعه أن أشعة الإسلام النيرة نفذت إلى أعماق قلوبهم ، وليراجعوا أشعار حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، ولبيد والخطيبية ، والنابغة الجعدي ليروا بعينهم ويتأملوا ب بصيرتهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام ، وليتتأكدوا أن هذا التأثر لم يقف عند شعراء المدينة ومكة فقط بل نفذ إلى شعراء البدية مثل لبيد والنابغة الجعدي . . .

وكتب الأدب تزخر بما نظم من أشعار في صدر الإسلام ، وهي أشعار كثيرة نلقاها في كل ما يصادفنا من أحداث العصر . وليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر . ولا ريب أن أكبر الأحداث وأعظمها كانت دعوة الرسول (ص) إلى الإسلام . ومضى

(53) راجع تاريخ الطبرى ج 5 ص 29 .

(54) تاريخ الأدب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ص 95 .

الشعراء ينظمون في هذا العصر مع أنفسهم وقبائلهم وليس مع أحداث العصر ، متأثرين إلى حد كبير بهدي الإسلام . فالشعر لم يتخلف ولم يتوقف في هذا العصر ، عصر الدعوة الإسلامية المباركة ، لكنه غير مغراه ومسراه .

وعلى هذا النحو لا تزال تلقانا إشعاعات إسلامية مختلفة عند الكثير من الشعراء المخضرمين الذين آمنوا بالإسلام وهدّيه وناصروا الرسول ونافحوا عنه ، ولا ريب أن هذه الإشعاعات تسيل على السنة أهل المدينة أكثر مما كانت تسيل على السنة النجديين وغيرهم .



الحديث النبوي

لقد أوتي النبي المصطفى من اللسان والفصاحة والبلاغة ما ملك به قلوب سامعيه وعقولهم وكأنما كانت المعاني والألفاظ موقوفة بين يديه ، واللغة العربية يملك ناصيتها أفضل تملك ، فيختار منها ما تهش له الأسماع ، وترتاح له النفس ، وتصفي له الأفئدة . وال الحديث النبوي هو كل ما حكى عن النبي محمد (ص) من قول أو فعل أو تقرير ، ولم يكن جميعه أقوالاً له ، بل يؤثر عنه ويكتب ويحفظ . جاء في طبقات ابن سعد عن صالح بن كيسان قال :

« اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم فكنا نكتب السنن ، قال : وكتبنا ما جاء عن النبي (ص) ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سنة ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فنكتب ولم أكتب ، فأنجح وضييعت »^(١) ولا يخفى ما للحديث من أهمية في جميع مناحي الحياة ، ذلك أن القرآن يذكر أصول الدين الإسلامي وأحكامه بجملة دون تفصيل والحديث يفصلها لتصبح سهلة الفهم للخاصة وال العامة . فالقرآن مثلاً ذكر الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وكلها من أركان الإسلام ، ولكنه لم يفصل القول ، فجاء الحديث وفصل أوقات الصلاة ومستلزماتها وكيفياتها ، كما فصل القواعد التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها وكذلك الصوم والحج . فالنبي (ص) بين أحكام الشريعة وصورها عملياً ، كما صور المبادئ الأخلاقية والإجتماعية والإنسانية التي جاء بها الإسلام . وبذلك أصبح الحديث النبوي مكملاً للقرآن ، وخاصة حين تجعل الأحكام . فقد روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه لما أرسل ابن عباس لي حاج بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه حال أوجه ، ويحمل معانٍ مختلفة ، وبأن يكون عهده السنة فلا يجدوا منها مخرجاً »^(٢) .

(١) بيج البلاغة ج 2 ص 146 .

وفي حياة الرسول (ص) كان الصحابة يروون الحديث وكان هو نفسه يشجعهم على ذلك . روي عن ابن عباس قال : « اللهم ارحم خلفائي فلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس » وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واحبروا بها من وراءكم من العشائر .

وقد تكرر حته على رواية الحديث ففي حجة الوداع المشهورة قال (ص) : « لا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » كما كان يرسل رسالته في القبائل ليعلموهم القرآن وسته ولما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تقضي ؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسوله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أرى رأي واجتهد .

فالحديث كان متداولاً في حياة الرسول وكان (ص) : يأمر بنشره بين الناس وإذاعته بين الملاٌ حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه في حياتهم الإجتماعية والدينية والسياسية وكل ما يحتاجون إليه من أحكام ونظم وأداب .

ولما توفي وانتقل إلى الملاٌ الأعلى وانتشر الصحابة في الأمصار الإسلامية أخذوا يبلغون الرسالة معتمدين على كتاب الله وسنة رسول الله . ولا يترون لا كبيرة ولا صغيرة من أقواله وأفعاله إلا أحصوها وتناقلوها . وبعد الصحابة خلفهم التابعون يروون ما سمعوه منهم وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل . يقول المحدث : سمعت من فلان أو حدثني أو أخبرني أو أنباني . وبذلك تكون سند الحديث من الرواية جيلاً بعد جيل . وبسبب تفرق الصحابة فقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند . وبذلك تعددت طرق روایة الحديث ، كما تعدد الرواية وأصبح يحتوي متناً وسندًا يطول أو يقصر .

وقد سمي حديثاً لأنه يعتمد على الرواية والتحدث ، وهو يسمى أيضاً السنة ، ويقصد بها العادة المقدسة التي رويت عن النبي (ص) وصحابته وهي تستعمل في القرآن : تقاليد الأسلاف الأولين . قال تعالى :

﴿ ... ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سُنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ (فاطر : 43) وقد حوّلها المسلمون فيما بعد إلى التقاليد التي حكّيت عن الرسول و أصحابه .

وما يجدر بيانه أن بعض أحاديث الرسول (ص) دون في حياته ، وقد رخص لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، روي عن رافع بن حدیج قال : « فلنا يا رسول الله إنا

نسمع منك أشياء أفنكتها؟ قال : اكتبوا ولا حرج ⁽²⁾ . وفي بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا للرجل يعني خطبة سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية ⁽³⁾ . وعلى أي حال كانت كتابة الأحاديث النبوية في حياته محدودة جداً .

ويقى الحال على ما هو عليه ولم يدون الحديث تدويناً رسمياً عاماً حتى خلاة عمر بن عبد العزيز (99 هـ - 101 هـ) فأمر بتدوينه رسمياً وعمم في الأمصار الإسلامية .

الصحابة والتابعون كانوا يؤدون الأحاديث لفظاً وبأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات . . حتى خيف عليها الدروس ، وأسرع الموت في العلماء من حفاظها . عندها أمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الخزمي والي المدينة وكتب إليه : « انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه » ⁽⁴⁾ وتوفي عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم في هذا الصدد .

وفي سنة 124 هـ ظهر تدوين ابن شهاب الزهري ، ثم أخذ التصنيف والتاليف في الحديث يكثر بعد وتوسيع رقعته . فظهر موطاً مالك ثم تابعت صحاحه مثل صحيح البخاري و صحيح مسلم .

ومن الطبيعي أن التأخير في التدوين جعل الرواة يزيدون أو ينقصون في عبارته ، فقدموا في بعض كلماته وأخروا ، وأبدلوا ألفاظاً بالفاظ . من أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والköفـة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونوها ، لأن الأحاديث لم تكن تروى بالفاظها كما جاءت عن الرسول ، إنما كانت تروى في أكثرها بمعانيها . من أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد روایاتها .

والقاعدة الأساسية لمعرفة الحديث الصحيح سجلها لنا صاحب الأحاديث (ص) فقال : « إن الأحاديث ستكثر بعدي كما كثرت على الأنبياء من قبلي ، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهوعني قلته أم لم أقله » .

ومن أقواله (ص) التي سارت مسير الضوء في الظلم قوله للأنصار : « أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » .

(2) تقدير العلم ص 72 .

(3) المصدر السابق ص 86 .

(4) المؤطرون أكناها : المتواضعون .

وقوله : « المسلمين تكafaً دماً لهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . قوله : « لا تزال أمتى صالحاً أمراها ما لم تر الأمانة مغنىً والصدقة مغرياً » . قوله : « ما أملق تاجر صدوق » . « المستشار مؤمن » .

وقوله : « المسلمين تكafaً دماً لهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

فهل يسمع المسلمون هذا الحديث وأين هم والإسلام الصحيح ؟ ! قوله : « لا تخن يمينك على شهالك » .

فهل يعقل أن تخني يدك اليمين على يدك الشهال وهما عضوان في جسد واحد ؟ .
نعم ما نراه اليوم قد حصل أن العربي يخني على العربي ، والمسلم يخني على المسلم ،
ودولة عربية مسلمة تخني على دولة عربية مسلمة . وهذا ما يؤسف له حقاً .

وقد رسم لنا الطريق لرضاه ومحبته فقال (ص) :
« إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيمة أحاسنكم أخلاقاً الموطنون ⁽⁴⁾
أكناها الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم عني مجالس يوم القيمة
الثئارون المتفقهون » ⁽⁵⁾ .

وقوله لمحبي المال الذين يفنون حياتهم بجنيه وإذا بالموت يدركهم . « يقول ابن آدم : مالي ملي ، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنت أو لبست فأبليت أو وهبت فأنمضيت » .

ثم أعطى الحكمة مثلاً واقعياً حسياً ليعتبر منه كل ذي بصر وبصيرة .

قال : « إن قوماً ركبوا سفينتين في البحر فاقتسموا فنصار لكل رجل موضع فنقر رجل موضعه بفأس : فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع به ما شئت ، فإن أخذوا على يديه ⁽⁶⁾ نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلکوا » وما أحوجنا نحن العرب اليوم إلى تطبيق هذا المثل الحكيم إذ لا يحق لأي فرد رئيساً كان أم مرؤوساً أن يخرق السفينة العربية بفأسه لأن له بها موضع ، وذلك ليحافظ على كرميه وثرواته !!

وقال : « حصّنوا أموالكم بالزكاة ودواروا مرضيكم بالصدقة » . قوله : « من ذب عن لحم أخيه بظاهر الغيب كان حقاً على الله أن يحرّم لحمه على النار » .

(5) المتفقهون : التشدقون بالكلام .

(6) أخذوا على يديه : منعوه .

وقال : إن الله يرضي لكم ثلاثة ويكره لكم ثلاثة : يرضي لكم أن تعبدوه ولا شركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبله جيئاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولأه الله أمركم . ويكره لكم ! قبل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » .

وقال : أوصاني ربِّي بتسع : « أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، وبالعدل في الرضا والغضب ، وبالقصد في الغنى والفقير ، وأن أغفو عن ظلمني ، وأعطي من حرموني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكرأً ونظري عبرأً » .

وقال ينصح متكلّم : « رحم الله عبداً قال خيراً فغنمت أو سكت فسلم » هذه الأحاديث رویت بالتواتر ، ومن ينظر لصياغتها يعرف أنه عليه السلام أوفي جوامع الكلم ، وحقاً ما قاله الجاحظ من أنه :

« لم يتكلّم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد وسر بال توفيق »⁽⁷⁾ فتأمل هذه الأحاديث التي كثفت تكثيفاً إذ قل عدد حروفها وكثرت معانٰها ، وأشارت بآثارها البهية وصياغتها الفريدة .

وكما كان للقرآن الكريم أثر في اللغة والأدب كذلك فإن للحديث النبوي الشريف أثراً أيضاً فيهما . ولا غرو فإن قائله هو أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم لساناً وأقدرهم حجة وأسلفهم تعبيراً .

وقد ظهرت فائدة الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب في أنه عاون القرآن الكريم في انتشار العربية ، وتوسيع المادة اللغوية بما أشاع من الفاظ مستحدثة لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص .

وقد أقبل الأدباء العرب في مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأزمان يدرسوه ويخفظونه ويستبطونه منه . وقد استمد الأدباء العرب من هذا الكنز في رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها رونقاً وطلاؤة . ومن أثر الحديث في اللغة والأدب إن بدأت المؤلفات المختلفة حول غريب الحديث ، وتصنيف الحديث ، وعلوم الحديث ، ومصطلح الحديث ، والموطأ والصحاح إلى غير ذلك من المؤلفات التي استوحى من الحديث ومن تأثيره أيضاً نشأت الكتابة التاريخية في السيرة النبوية وتراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم ، فكانت طبقات ابن سعد ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، والإستيعاب وميزان الاعتدال

للذهبي . وغيرها من المؤلفات العديدة في التفسير والشروح ..

فالحديث يكون قد فتح باب التأليف والكتابة العربية وهي لظهور مؤلفات عديدة في كل فن في علوم الحديث والفقه مما يبشر بقيام نهضة علمية مباركة .

ولا يخفى ما في الحديث النبوى من قوة التأثير ، والأسلوب البليغ الجميل ، وما فيه من الحكمة وضرب المثل ، واستخلاص العبرة ، وروعة التعبير والتوصير ولا عجب فقد ولد النبي (ص) في بني هاشم ، واسترضع في بني سعد ، ونشأ في قريش وكان له من الوحي معين لا ينضب . قال تعالى : ﴿ وَمَا يُنْطَقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم : ٣ - ٤) .

خصائص البلاغة النبوية

كان (ص) أفعى العرب لساناً وأبلغهم بياناً وأعدّهم أسلوباً وأروعهم حكمة قال الرافعى : « والبلاغة النبوية تلي في منزلتها الأدبية الذكر الحكيم ، وهي هذه البلاغة الإنسانية التي سجّلت الأفكار لأيتها ، وحضرت العقول دون غايتها ... إن خرجت في موعظة قلت أنين من فزاد مقرؤح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، في متزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتند فينسزو بالدموع ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء إلى الأرض ، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء^(٨) وجميع من في أرض العرب من الأدباء والبلغاء وقفوا مبهوتين أمام هذه البلاغة الباهرة .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للرسول (ص) : « لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذي هو أفعى منك فمن أدبك ؟

وقال هلي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقد سمع الرسول (ص) يخاطب وفداً بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال (ص) : أدبني ربى فأحسن تأدبي » وقد وصف الجاحظ بلاغة النبي محمد (ص) فقال :

« كلامه (ص) هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثير عدد معانيه وجل عن الصنعة ، ونزعه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص : ٨٦) .

(٨) إعجاز القرآن للرافعى ص ٣١٤

فلا جرم أن يكون المأثور عنه من الحديث صفة القول بعد القرآن الكريم من الفاظه يكتسب الأديب ، ومن بلاغته يتتفع كل بلغى ، ومن أثره يستمد مفسر القرآن ، ومن شروح حديثه يستكمل الفقيه الأحكام الشرعية ، ومن كلمه يشيد اللغوى صرحاً حصيناً للغته ، ومن حكمته يستثير الحكيم بأنوار حكمه ، إذ كان صلوات الله عليه « وما ينطق عن الهوى » كل غايتها توضيح القرآن ، وهداية الناس إلى الحق ، وتنفيرهم من الشر وإرشادهم إلى دينهم ودنياهم .

وجاء وصف بلاغته (ص) في الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام فقال : « وكان (ص) فصيح المنطق ، سمح البيان ، سلس الأسلوب ، قوي العبارة ، لامع الرونق ، رائع الحكمة ، موفق المثل ، مونق اللفظ ، مشرق المعنى ، يحس المرء بكلامه حلاوة العسل ، إذا تكلم خفت الأصوات ، وأنصت الأذان ، وخشت الجوارح ، وامتلأت القلوب بجلال العبرة وسمو الموعظة »⁽⁹⁾ .

من غريب كلامه

روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : « ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا سمعتها من رسول الله (ص) وسمعته يقول : مات حتف أنفه ، وما سمعتها من عربي قبله يزيد : مات على فراشه »⁽¹⁰⁾ .

وقد يتصرف العرب في اتساع اللغة عن طريق المجاز والاشتقاق فينتزعون بعض الألفاظ من بعضها ، أو يخترعون فكرة أخرى ، أو يتبعون بعض المعاني من معانٌ آخر ؛ ولكن ذلك كله يتم في حدود الموجود المتعارف عليه ولا يتجاوزون إلى أبعد من ذلك . أما المأثور عنه فهو من ابتداعه (ص) وغير موجود عند العرب . فقد كانوا يعجبون لأنفراده بها ، وهم عرب مثله ، على أنه باق بين أظهرهم ، لم يفارقهم ، ولم يستقل عن بلدتهم .

من ذلك روي عنه (ص) أنه قال لأبي تميمة : إياك والمخيلة !!

(9) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ص 103 .

(10) جاء في القاموس : خص الأنف لأن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه . وجاء في النهاية : كان العرب يتخيّلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرحت خرجت من جراحه . كما جاء في إعجاز القرآن للرافعى « إن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال أمر كانوا يأنفسون له والخلف : الملائكة صاحب هذه الميّة إنما ماتت إنفه وكبر ياؤه فلم يرفع الموت إنفه في القوم ، بل أذله وارغمته فكان به هلاكه ، لأن حياته كانت في عزته ، وعزته كانت في إنفه وأنفه هو الذي كبه على الموت وإنما عجاذ العبارة كما يقال في الكبير : ورم أنفه . وفي العزة : حي إنفه راجع الرافعى في إعجاز القرآن ج 1 ص 11 .

فقال : يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ قال (ص) : سبل الإزار ، أي الكبر .. فعدم معرفة أبي تغيمة ، قوله نحن قوم عرب ، دليل أن هذا اللفظ قد اخترعه النبي (ص) ولم يسبق إليه .

وقوله (ص) كذلك لا نجاشة وهو يحدو الإبل ويطرُب في صوته فتسرع الإبل وتهابيل الهوادج بالنساء « رفقاً بالقوارير » فالقارورة هي القطعة من البلور الرقيق الشفاف ينكسر بسهولة ويجب الاعتناء بها ونقلها برفق وهدوء لتسليم من العطب . فتأمل هذه الاستعارة الفنية الرائعة التي انفرد بها أبلغ العرب لساناً وأفصحهم بياناً .

ومن أقواله الفريدة التي يعرف مثلها العرب قوله (ص) : « إياكم وخضراء الدمن » فقالوا : وما ذاك يا رسول الله فقال : المرأة الحسنة في المنبت السوء ، فهي أشبه بالشجرة أو النبتة الناضرة وسط الدمن ، (وهي كومة أو ساخ الإبل) .

وقال (ص) : « نحن الأنبياء أولاد عَلَات لا أولاد أخِياف » معنى القول أن الأنبياء دينهم واحد وأمهاتهم مختلفة . أما أولاد الأخِياف فأمهم واحدة وأباهم مختلفون .

فالأنبياء دينهم واحد وأمهاتهم مختلفة ، يعني أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة .
وبنوا الأعيان هم الأخوة لأم وأب واحد . قال علي بن أبي طالب : « يتوارث بنو الأعيان من الأخوة للأب إذا اجتمعوا معهم .

قال ابن بري : يقال لبني الضراير بنو علات . ويقال لبني الأم الواحدة بنو أم .
وأبناء علات لأب واحد وأمهات مختلفة . قال عبد المسيح :
والناس أبناء عَلَات ، فمن علموا أن قد أفل ، فمجفوٌ ومحقر
وهم بنو أم من أمى له نسب فذاك بالغريب محفوظ ومنصور
وقال آخر :

أفي الولائم أولاداً لواحدة وفي المآتم أولاداً لعَلَات

(11) جاء في القاموس العلال : الخلب بعد الخلب ، قيل استيğاب الفرع للخلب بكثرة اللبن . والعَلَلة . ما تعللت به أي لموت به . والعَلْلُ : الذي يزور النساء . والعَلَّة ، الضرة . وبنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شقي سمعت بذلك لأن الذي تزوجها على أولى قد كانت قبلها ثم عَلَّ من هذه ، قال ابن بري : إنما سمعت علة لأنها تعلّ بعد صاحبتها من العلل .

وقال (ص) :

بعثت في نفس الساعة ، أي قريباً منها . وكأنه أحسها كما يحس الإنسان أنفاس من يقاربه .

وقال (ص) في الحرب :

الآن حمي الوطيس . فالوطيس التنور ومجتمع النيران ، يعني بذلك شدة الحرب ، فقد استعار نارها والتهاب شررها .

وقال (ص) :

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » قال هذا القول الذي جرى مثلاً على الألسنة لأبي عزة الشاعر ، وكان يحرض عليه ، ويؤليب الناس ضد الدعوة الإسلامية المباركة . فأسره يوم بدر ثم من عليه وأطلقه فعاد إلى سيرته الأولى في التحريض ضد المسلمين إلى أن تم أسره ثانية يوم أحد . فسأل النبي (ص) أن يمن عليه ثانية فقال له (ص) « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

يقول الرافعي : فما ندرني أي ذلك أعجب أن ينفرد الرسول بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه من ليس ذلك في لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية ، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها وخالفوا العرب وسمعوا مناطيقهم حين يتواجدون إليهم في موسم الحج ، وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه ، ولا يرددونه في ألسنتهم ، ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشاؤن عليه من السباع والمحاكاة ، حتى كان هذا الباب فيه (ص) باباً على حدة وهكذا كان رسول الله يتميز بالفطرة القوية ، والطبيعة الملهمة ، والموهبة البينانية المبدعة ، واللسان الذرّب ، والقول الفحل ، والمنطق الفصل ، مما لا يفهم سره ولا يعرف أمره إلا على أنه معجزة من الله لنبيه وختاره ومصطفاه .

خصائص الأسلوب النبوى

أفضل تعريف للأسلوب النبوى هو السهل الممتنع ، أي أنه إذا سمعه أي إنسان فهمه وظن أنه يحسن مثله .

يمثل الأسلوب النبوى البلاغة القرية والبعيدة وهو نمط فريد وطريقة محكمة ونسيج وحده . كان (ص) يوجز القول فتأتي كلماته جوامع وحكماً يكره الفضول والباس الباطل ثوب الحق ، وربما أطال في بعض خطبه فيكون كلامه للإرشاد والوعظ

وتبلیغ الرسالة . ولكن الغالب كان مقتضداً في الفاظه ، محظاً بمعانیه ، هذا إلى إحكام الأسلوب في غير تعقید ولا تکلف ، مع رونق وعذوبة وجلاله ، ومع قوة وإشراق وجزاله . ومع تجنب سجع الكهان الذي كان فاشياً في تلك الأيام .

أما الفاظه :

نرثت عن اللحن والخطأ والقصور ونفي منها الحوشی والمبتدل والساقط لأن الذي اختاره الله سبحانه وتعالى ، المصطفى ، اختار بطبيعته المتمكن وفطنته السليمة الفاظاً بليةنة مشرقة عذبة صاغ بها كلمات رشيقه وقوية وجليلة تنطق عن قوة الملكة وسلامة الذوق .

وأما معانیه (ص) :

فهي الأدب الرفيع في صياغته ، والحكمة الصادقة في مدلولها ، والنور المشرق إلى الهدایة ، والحق المترze عن الشك والريب ، والإلهام الذي وهبه إيه رب العالمين ليهدي الناس إلى الصراط المستقيم .

موضوع الحديث النبوی

- 1 - من أولى اهتماماته (ص) تبلیغ الدعوة الإسلامية . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بِلْغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعُلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة : ٦) .
- 2 - شرح القرآن الكريم وبيان أحكامه مفصلة المجمل منه تفصيلاً واضحاً ليسهل فهمه وتوضيح مدلولاته .
- 3 - تشرع النظم الدينية والإجتماعية والسياسية والإدارية لا صلاح الفرد في مجتمعه واصلاح المجتمع العربي والإنسانية بصورة عامة . ذلك أن الرسول الأمين جاء رحمة للعالمين قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : 107) .
- 4 - نعي المشركين والوثنيين وتقبیح ما كانوا عليه من ضلال وبهتان وتوجیہهم إلى الهدی بالبيان الواضح والحجۃ القوية .

- 5 - تقریر الإيمان بالبعث واليوم الآخر والأنبياء المرسلین والملائكة بـالأدلة النقلية والعقلية للناس جمیعاً من جميع الأصیاق المختلفة ليوضح لهم بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى ينال فيها الإنسان جزءاً أعملاه إن خيراً فخیر ، وإن شرًا فشر .

لقد كانت غایته أن يغرس فيهم هذا الشعور ليسعد من يسعد عن بینة ويشقى من يشقى عن بینة .

ومهما قيل عن البلاغة النبوية يبقى القلم قاصراً عن استجحاع جوانبها إنها ببلاغة من صنع الله حسب رأي الزيات قال :

«إن بلاغة الرسول من صنع الله ، وما كان من صنع الله ، تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن قياسه ، فنحن لا ندرك كنه وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره ، هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ، وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ، وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالحلال والروعة . إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية . وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فإن البلاغة صفة محمد وحده »⁽¹²⁾ .

الحديث النبوى يدعو إلى المساواة

قال رسول الله (ص) : «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » كان العرب في الجاهلية يقدسون القوة ويجلون القوي ويرهبونه ، فإذا ما تعدد حدوده فلا يجرأ أحد على محاسبته أو إظهار عيوبه .

أما الضعيف فكانوا يرمونه بالتهم ويقيمون عليه الحد وينشرون كل ما عنده من معايب . هكذا كانت بيئتهم ومحيطهم وعاداتهم ، فوضى إلى أبعد الحدود في كل مناحي الحياة . لذلك كانت نهاية المجتمعات القديمة التي مارست مثل هذه الأعمال ، فتغاضت عن أخطاء السادة ولم تخاسبهم ، وقامت على الضعفاء والمساكين فأقامت عليهم الحد ، الهاك والفناء .

ولما جاء الإسلام بعدلاته السمحاء ، ساوي بتشريعاته القومية بين جميع الناس ، ونظر إلى الخلق نظرة واحدة لا فرق بين عبد حبشي وبين زعيم قرشي . فالناس في الميزان الإسلامي سواسية كأسنان المشط وما يتميزون به هو «التقوى» تقوى الله العلي العظيم فلا ينظر نظرة خاصة إلى القبيلة والعشيرة ، ولا إلى القريب والحسيب ولا الصديق ولا الولد أو الأخ أو الأب . . . قال رسول الله (ص) «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

(12) من وحي الرسالة ج 2 ص 79

ولا يخفى ما لهذا المبدأ من أهمية كبرى في إصلاح المجتمعات ، ومن تأثير في توثيق العلاقات الإجتماعية بين الأفراد . فهم دائمًا يتطلعون إلى رؤسائهم وحكامهم بالتزامهم بالمبادئ ، ورعايتهم لحرمة القوانين ، فيتخدونهم أسوة حسنة ، ويسرون على نهجهم .

وفي ظل المساواة هذه يرضي الإنسان بحياته ويطمئن ، ويسلك سلوكاً متزناً هادئاً ، وبذلك يضمن السعادة له والتقدم لمجتمعه .

ومن خلال هذه الحياة الهدئة المطمئنة يسود التعاون بين أفراد المجتمع الواحد ، ومن التعاون التعاطف ، ومن التعاطف المحبة ، روح الحياة وهدف الأحياء . وعنده ذلك تخييم السعادة وينمو المجتمع ويتقدم .

وفي ذلك قال (ص) :

« مثل المؤمنين في توادهم ، وترابعهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكت منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

فما أحراانا نحن اليوم ، وفي كل يوم ، إلى التمسك بهذا الحديث الشريف والعمل به في هذه الظروف الأليمة . حيث العدو يتربص بنا ويدمر ويخرب ويسفك الدماء الطاهرة . ما أحراانا إلى التمسك بحبل الله تعالى إنه سميع مجيب .

الحديث النبوي يدعو إلى الإشتراكية

قال (ص) : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »⁽¹³⁾ .

لو طبق المسلمون هذا الحديث بطريقة عملية لذابت الفوارق الإجتماعية بينهم وبذلك تتوثق العلاقات الإجتماعية بينهم وتقوى صلة الأفراد بعضهم ببعض . فالحديث كما هو واضح منه يدعوا إلى تأكيد العلاقات الإجتماعية ويحث المسلمين على أن يوزعوا ما زاد عن حاجتهم من مال ، أو طعام ، أو وسيلة من وسائل المواصلات لأبناء المجتمع المحتاجين ، الذين لم تسعدهم الظروف بمثل ما أسعدت إخوانهم .

ولا شك أن هذه المثالية تقضي على الطبقية وتذيب كل الفوارق الإجتماعية فلا

(13) الفضل : الزائد عن الحاجة - والظاهر : ما يركب من دواب وماشية ونحوه فليعد به على من لا ظهر له : فليعطيه مساعدة وعوناً لمن لا يملأه وقد عبر بالظاهر لأن الدواب كانت وسيلة المواصلات قديماً فعبر بالظاهر عن الدابة .

وجود لطبقة مترفة تنعم بكل شيء ، وأخرى بائسة لا تجد شيئاً وإذا ما فعل المسلم ذلك وأحس مع أخيه المسلم فأعطيه ما فاض عنه من خير فإنه يكون قد قام بواجبه الإنساني ولا حق له في الفضل ، فالإسلام جعل ما يدفعه القادرون لإخوانهم المحتاجين واجباً يلزم أداؤه ، وليس تبرعاً ومنة ، بل زكاة ماله ، وأجرأ يثبيه الله عليه « والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

من هنا كانت الزكاة في الإسلام ، وهي نظام اجتماعي ثمرته حفظ التوازن بين طبقات الأمة الواحدة ، وبذلك يكون الإسلام أول من سبق العالم إلى وضع هذا النظام⁽¹⁴⁾ ، وخصوصاً الشرائع التي عاصرت نشأته . وحسبك أن تعلم أن القانون الروماني كان يسوغ للدائن أن يسترق المدين .

ولا يفهم من هذا الحديث أن بعض الناس يتظرون ما يقدم إليهم من الأغنياء انتظاراً موقوتاً ، أو أنهم سوف يحترفون التسول من ذوي القلوب الكريمة . فإن الإسلام قد شجع على العمل وباركه ، وجعله أساس الجزاء في الدنيا والآخرة . قال تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله . . . » (الجمعة : 15) وقال رسول الله : « اليد العليا خير من اليد السفل »⁽²²⁾ فالعليا التي تعطي والسفلي التي تأخذ . هذا في زمن السلم ، فكيف في زمن الحرب لا شك هو واجب مؤكد .

الحديث النبوى يدعو إلى تربية الفرد

قال رسول الله (ص) : « لا يكن أحدكم إمْعَة يقول : « إنما مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساووا أساءت ، ولكن وطنوا أنفسكم⁽¹⁵⁾ إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساووا أن تجتنبوا إساءتهم » يدعونا هذا الحديث إلى تربية الشخصية الفردية للمسلم فلا يكون (إمْعَة) سلبياً في مجتمعه لا رأي له ولا دور ، يسير وراء الآخرين بغير اقتناع ، ويعمل بإيحاءاتهم وإرشاداتهم ولا حول له ولا طول فإذا تغير رأي غيره تغير معهم حتى ولو جاء مخالفًا لما يعتقد ويرضى يكون منقاداً لا رأي له في مجتمعه .

إن أمثال هؤلاء يضرون أنفسهم أولاً ويسينون إلى مجتمعهم ثانياً لأن المسلم الحقيقي إنسان إيجابي له رأيه وله دوره الفاعل والمعرفة يتبع الناس إن كانوا محسنين

(14) راجع سورة التوبة الآية 60 .

(15) إمْعَة : الذي لا رأي له يتبع كل أحد على رأيه ولا يثبت على شيء .

(16) وطنوا أنفسكم : توطين النفس تمهدتها والمقصود تعويذها .

ومصيّبين فيها يقولون ويفعلون ، ويخالفهم إن كانوا خطئين أو مسيئين .

وقد نشاهد الكثير من هذه النهاذج في مجتمعنا الحاضر ، فيقصر أحد الناس في أداء الواجب فتسأله وتلومه فيقول لك : مبرراً تقصيره بتقصير غيره ، فلان فعل الفعل نفسه فلماذا تلومني وحدى ؟ !

كالترهل الذي نلقاء في مدارسنا وجامعاتنا ، والإهمال بالقيام بالواجب والتأخير في الحضور والتحصيل ، وهذا هو الطالب الإمعة .

وفي المجتمع أكثر الناس يقولون بغير ما يعتقدون ، ويرتكبون الأخطاء والأئم فيشربون المسكرات ، ويتجرون باسم الحرية والديمقراطية ويلبسون ثواباً مزيفة ، وينقلون الشائعات المغرضة ، وغير ذلك من العادات الضارة والسلوك المشين ، وإذا طلبت إليهم أن يكفوا عن سلوكهم السيء ، ومارساتهم الخاطئة يكون جوابهم : إن ما تفعله يفعله سائر الناس !! فلماذا تلقون اللوم على عاتقنا هؤلاء يقصدهم الحديث الشريف ويطلب إليهم أن يكون عندهم شخصية فردية مستقلة ورأي خاص مستقل فلا يعملون إلا ما يقتتنون به ولا يسيرون وراء غيرهم دون قناعة منهم ، سواء أكان خوفاً من عقوبة أو طمعاً بكافأة . إن المسلم الحقيقي يأبى أن يكون تابعاً دائماً لا رأي له بين قومه ، ولا دور له في مجتمعه بل عليه أن يكون سند نفسه فيقول (لا) عندما يجب قوله ، ويقول نعم عندما يقتضي بها ويراهما في مكانها المناسب .

النثر في عصر صدر الإسلام

« الخطابة »

لا يخفى أن الحياة في صدر الإسلام قد تبدلت تبلاً تاماً بجميع أوضاعها وأحدثت انقلاباً جذرياً في الجوهر والمظهر في السلوك والأخلاق ، والعقائد والشيم وكل مناحي الفكر والقول .

كانت الحياة الفكرية في الجاهلية تعتمد على الشعر في أغلب الأحيان في مفاخراتهم ، ومنافراتهم ، وخصوماتهم ، وغزواراتهم ، ومحاوراتهم . ولسانهم كان المبر عن كل ما يجيش في صدورهم من أفكار ، ويختلخ في خواطرهم من أحاسيس .

ولما جاء الإسلام أذهب عنهم كل ما عندهم من تناحر وتنافر ، وما تشحنه صدورهم من أحقاد غادرة وأضغان شائرة ، وخصومات منكرة ، وقضى على الحمية الجاهلية ، وبغض إلهم التفاخر بالأباء والأنساب .

وبذلك احتلت الخطابة المنزلة الأولى وكان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع للألوانها ؛ فنبه شأنها وارتفع ذكرها ، وعلت مكانتها ، وعظمت منزلتها . وقد كانت أداء الدعوة إلى الدين الحنيف واللسان الناطق بالرسالة الإسلامية .

اعتمد عليها رسول الله (ص) لبيان للناس معاني الإسلام الروحية التي تقوم على تأكيد وحدانية الله سبحانه وتعالى ، والترغيب في العمل الصالح ، والإيعان بأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يجد فيها المرء جزاء ما عمل إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر . ﴿ كُلُّ يَدٍ مَا كَسْبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَهِ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يُرَهِ ﴾ .

ثم انتقل (ص) إلى المدينة (يُثرب) وأقام مجتمعاً جديداً يشرح للناس بحسن بيانه الحلول والمشكلات التي كانوا يعانون منها ، كمشكلة الرقيق ، وتوزيع الثروة ، والعلاقة بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشكلات . كما كانت تجبيه وفود العرب في خطب في كل وفد ، يدعوهم إلى الدين ، ويبيّن لهم الأحكام الشرعية والأداب الاجتماعية ، والفتاوی الدينية كما أمر رب العالمين جل وعلا . « وأنزلنا إليك الذكر لتيين للناس ما نزل إليهم » وهذا كانت الخطابة متممة للذكر الحكيم .

من هنا كانت فرضاً في صلاة الجمع والأعياد ، ومواسم الحج ، وقد قضت على كل لون قديم لا يتفق وروح الإسلام .

وظهر إلى جانب الخطيب الدينية الخطيب السياسية استجابة للمواقف التي كانت تطأ على الدولة من حين إلى حين .

وكانت الفتوح وأخذ الخلفاء من بعد النبي يرسمون بخطبهم سياسة الدولة في رعاياهم ، ويخذلون دساتيرهم التي يلتزمونها في حكم الناس ومعاملاتهم ، فيحضرون فيها على غزوة أو جهاد .

ومضت الخطاب في التجاھين أساسين : الموعظ الدينية ، والخض على الجھاد .

ثم نشببت المعارك بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وتكاثر الخطباء بين أنصار لعلي وأنصار لمعاوية ، وجرت بين الفريقين مناظرات ، ورسائل ، ومحاورات ، عما دعاها الجدل المستمد من نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

وهكذا أدت الأحداث وتابعتها إلى ازدهار الخطابة ورقها .

أسباب ازدهارها

احتاج الإسلام إلى الخطابة ، في سبيل « الدعوة إلى الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحميس الجند على الجهاد في سبيل الله ». وقد احتاج إليها الخلفاء من بعد ، والأمراء في الجيش والولاة ، لإعلان سياسة الدولة وتبلیغ أوامرها .

قال الدكتور عمر فروخ « فكان الرسول (ص) والخلفاء الراشدون وأمراء الجيوش وولاة الأمصار والقضاة من الخطباء ضرورة غير أن بعضهم كان أخطب من بعض ، فعلي بن أبي طالب كان خطيباً موهوباً فوق عثمان بن عفان وعمر بن الخطاب ،

ولا غرو فكلام علي يأتي في مراتب البلاغة بعد القرآن والحديث ^(١).

ولعل الذي مكن للخطابة هذا التمكين وجعلها مرفوعة الذرى ، منشورة الرأية هو ما أسبقه الإسلام على المجتمع الإسلامي الجديد من حرية واسعة ، وما غرسه فيه من صراحة يستطيع من خلالها الإنسان أن يناقش ويراجع ويخاخص ويعاور ، حتى الحاكم يؤيده أو يخذه . وهذه الحرية قد اتسع مداها وامتد أفقها ، حتى شملت النساء ، فالمرأة المسلمة لا تسكت عما تظن أنه حق لها . وقد كانت تتحدث وتجادل وتح خطب .

يروى أن امرأة ذهبت إلى رسول الله (ص) وقالت : يا رسول الله ، إني وافدة النساء إليك ، ثم ذكرت ما للرجال من أجر ، ثم تساءلت : فما لنا من ذلك يا رسول الله ؟ فقال (ص) : أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة الزوج ، واعترافاً بحقه ، يعدل ذلك ، وقليل منك من يفعله » .

وكانت امرأة تعرض طريق عمر بن الخطاب وهو يخطب فتراجعه حتى لقد يرجع عن رأيه ، ويقول : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » وهذا لعمري منتهي الحرية والصراحة في أفضل عصر متحضر .

وأم الحير بنت الحريش الباروقة كانت من أنصار علي كرم الله وجهه في سياساته . وقد خطبت في ذلك خطباً ألهب النفوس وأثارت الحماس ، ودفعت الناس دفعاً إلى مقابلة أعدائهم وال Kerr عليهم بسيوفهم ورماتهم ، حتى أنها أوفدت إلى معاوية وإلى الشام ، بعد أن استتب الأمن له والسلطان ، فسألها عن كلامها حين قتل عمار بن ياسر ، فقالت : لم أكن زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة ، فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فقلت ، فقال معاوية : لا أشاء ذلك .

هذه بعض آثار الحرية على الخطابة في ظل الإسلام العادل السموح . وتغضي الخطابة في ازدهارها مع الخلفاء الراشدين ، فكثرت خطب الجمع والأعياد التي كانت فرعاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحلونه ثم كانت الفتوح وبدأ الحضن على الجهاد في سبيل الله وما يستلزمها من تحفيز الناس له ، وتحريضهم عليهم ، لنشر الدين الحنيف في أطباقي الأرض . من هؤلاء قواد الجيوش في كل قطر يخطبون في الجند ليحثوهم على الصبر في القتال حتى الاستشهاد ، وهم إن لم يخلدوا في هذه الدنيا فسوف يخلدون في

(١) تاريخ الأدب العربي ج ١ ص 256.

جනات النعيم عملاً بالأية الكريمة : « ولا تحسين الذين قتلوا في سبيل الله أسوأ مما بل أحباء عند ربهم يروزقون » (آل عمران : 169) .

وما شجع الخطابة في عصر الخلفاء الراشدين هو السياج لخطابة الوفود في مجالسهم ، تستمتع لاقوامها وتذكر حاجتها . ومن هؤلاء نذكر الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، وأحد قواد الفتوح ، اشتهر بغير خطبة ألقاها بين يدي الخليفة⁽²⁾ .

وقد حللت الخطبة الدينية مع المسلمين في البلاد التي فتحوها ، وكان هذا بلا شك عاملاً من عوامل نوها حيث رغب الناس في ترددها وصياغتها مستلهمين من القرآن الكريم وخطب الرسول (ص) فيما يعظون به الناس من موعظ حسنة . من هؤلاء نذكر عبد الله بن مسعود في إحدى موعظاته . خاطب فيها أهل الكوفة :

« أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد (ص) ، وشر الأمور مستحدثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قل وكفى خير ما كثروا على .. خير الغنى غنى النفس . الخمر جماع الآثام . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية .. مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عفي عنه . السعيد من وعظ بغيره .. أحسن الهدي هدي الأنبياء »⁽³⁾ .

وفي هذين الإتجاهين : الموعظ والإرشاد ، والحضور على الجهد في سبيل الله مضت الخطابة حتى أواسط خلافة عثمان بن عفان . ولما أشعل الثوار النار عليه ، أمثال الأشتر النخعي في الكوفة ، ومحمد بن أبي بكر في مصر ، وأندلعوا يؤلبون الناس توالت الحوادث وقتل عثمان ، وتولى علي بن أبي طالب مقاليد الخلافة ، فاجتمعت السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وقرروا الخروج عليه ، وقصدوا البصرة ، مما اضطر علي إلى أن يتبعهم وينزل الكوفة وكانت موقعة الجمل التي انتصر فيها علي وتم له بيعة أهل العراق .

ولا ريب أن مثل هذه الظروف تستدعي كثرة الخطب بين أنصار علي وخصومه . ثم حدثت معركة صفين على حدود الفرات بين علي ومعاوية « وكان علي خطيباً مفوهاً ، وكان بجيشه غير خطيب من أمثال : عمار بن ياسر ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وعدوي بن حاتم الطائي ، وعمر بن الحمق ، وشبيث بن ربيع . وقبل اندلاع الحرب

(2) البيان والتبيين ج 2 ص 144 وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب .

(3) البيان والتبيين ج 2 ص 56 .

كان يتبادل على ومعاوية الوقود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديها ^(٤) وترجع كفة على رجحانًا واضحًا ، فيلجلأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة إذ يرفعون المصاحف على أسنة رماحهم مطالبين بالاحتکام إلى كتاب الله ^(٥) .

ولما توقف جنود علي عن الحرب ، مانعهم فهذدهو بأن يصبح مصير عثمان فنزل على إرادتهم فخرج عليه فريق من جيشه من رفضوا التحكيم ، ونزلوا معسكراً في حرروراء بالقرب من الكوفة ، فسموا بالحرورية ، ثم عرفوا باسم الخوارج . فحاول علي وعبد الله بن عباس إقناعهم ورجوعهم إلى سواء السبيل فقامت بينهما مناظرات في مسألة التحكيم ، وكان عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف . من هنا ارتفع عالياً سهم المناظرة عالياً ولما لم يسمع الخوارج كلامه ولم يطعوا اضطر علي إلى حربهم ، وفتكت بهم فتكاً ذريعاً في موقعة التهروان . وكانتوا يظهرون بسالة غريبة يدفعهم إلى ذلك خطباً لهم من أمثال عبد الله بن وهب الراسي ، وحرقوص بن زهير السعدي ، والمستورد بن علقة ، ومن يرجع إلى خطبهم يجدوها تقد حاسة وعنفاً وحبيبة ^(٦) .

واتهى التحكيم بهزلة خلع علي ، ثم امتدت يد آثمة من أيدي الخوارج إليه وطعنته طعنة غادرة .

بعد هذا الاستعراض السريع ، يتضح لنا كيف ثبتت الخطابة في هذا العصر نمواً واسعاً ، وذلك بتاثير الإسلام ويتكرر الأحداث وتتابعها ولا يخفى ما أدت هذه الخطابة من فوائد جل للغة العربية لم يكن للغربية عهد بها . فقد حلت معانى الدين الحنيف ، وأدت الرسالة النبوية ، وكل ما تحوي من عبر وتعاليم . فكل خطيب كان يحمل قبساً من هذه التعاليم يستضيء بها في كل ما يخطب ابتناء التأثير على الناس ، وخاصة في خطبه الدينية الخالصة في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج .

ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سنة في كل خطبة حتى الخطبة السياسية ، أما الخطبة التي كانت تخلو منه فسموها خطبة بتراء ، والتي تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلة على الرسول (ص) شوهاء ^(٧) .

(٤) الطبرى ج 2 ص 501 .

(٥) تاريخ الأدب العربي شوقى ضيف ص 110 .

(٦) راجع في ذلك الطبرى ج 4 ص 54 .

(٧) راجع البيان والتبيين ج 2 ص 6 .

أما عن السجع في خطابة صدر الإسلام فقد كان شيئاً عارضاً ، «إذ كان الرسول (ص) لا يسجع في خطابته ، وكان ينفر منه حين يلهج به أحد محدثيه »⁽⁸⁾ للتشبه بالكهان في سجعهم . وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلة الصحابة .

يروى أن صحاراً العبدى وفد على عمر بن الخطاب فادماً من غزو مكران في بلاد فارس ، فأراد عمر أن يسألها عن شأنها وشأن العرب هناك فأجابه⁽⁹⁾ : «أرض سهلها جبل ، وما زها وشل ، وثمرها دقل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل . إن كث الرحمن بها جاعوا ، وإن قلوا بها ضاعوا» ولما سمع الخطبة انكر على الخطيب السجع وقال له : «أسجع أنت أم مخبر» .

وما يلاحظ بشأن الخطابة في صدر الإسلام أنها أصبحت ذات موضوع محدد واضح يجول فيه الخطيب ليتحقق الهدف الذي يعنيه ، وليس كما كانت في الجاهلية تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينها .

ويمكتنا القول أن الخطابة في هذا العصر ثمت ثواباً سرياً ، ونهض معها النثر نهضة واسعة ، بما أضافه الخطباء من معانٍ للإسلام ، فولدوا فيها ما استطاعوا وفرعوا ما أرادوا فأجادوا إجادـة مشكورة ، ونحن نقف بكل تقدير وإجلال أمام خطابة الرسول (ص) وخطابة الخلفاء الراشدين لتبني خطوات التطور التي خطتها النثر العربي بأساليبه ومعانيه في ميادين البلاغة والبيان .

خطابة الرسول (ص)

الرسول الأمين على هدى القرآن الكريم كان يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الهدى السماوية ، إنه المصطفى الذي أدبه ربـه فأحسن تأديبه ، أوقي من حلاوة اللسان ، وأعلى درجات الفصاحة ما ملك به قلوب سامعيـه ، وكأنما معاني الكلام ومتانة الأساليـب موقوفة بشخوصها بين يديـه ، امتلك ناصية العربية وأخذ يختار منها ما تأنـس له الأسماع وتصفيـ لـه الألباب .

وأكثر الخطب التي وصلت إلينا أطراف قليلـة من خطـب طـويلـة كانت تطول أحياناً

(8) صحيح مسلم ج 5 ص 111 .

(9) الطبرى ج 2 ص 257 ووشـل : قـليل ودـفل : ردـي .

إلى ساعات^(١٠) . وأغلب هذه البقايا من خطبه (ص) قالها بعد الهجرة من وحي الآيات التي كانت تنزل عليه «إذ نراه تارة واعظاً، وتارة مشرعاً، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغي رائع . وهذه أول خطبة خطبها بالمدينة حين صل بالناس في دخوله إليها صلاة الجمعة وهي غضي على هذه الشاكلة»^(١١) .

«الحمد لله أحمده واستعينه واستغفره وأستهديه وأؤمن به ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والوعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلاله من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصها فقد غوى وف्रط وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يخضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل بها على وجل ومحافة من ربه ، عنون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد . والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خلف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : ﴿ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾ فاتقوا الله عاجل أمركم وأجله ، في السر والعلانية ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرأ ﴾ ومن يتق الله فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقته ويوقى عقوبته ، ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله تبيض الوجوه ، ويرضى رب ويرفع الدرجة ، خذوا الله بحظكم ، ولا تفرون في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويزعم الكاذبين فاحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداء ، ﴿ وواجهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ﴾ وساكم مسلمين ﴿ ليهلك من هلك عن بيته ويحيي من حي عن بيته ﴾ ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم » .

(١٠) إعجاز القرآن للباقياني ص 62 .

(١١) تاريخ الطبرى ج 2 ص 115 .

يفيض من هذه الخطبة مواعظ رائعة عظيمة :
استهلها الرسول (ص) بتقرير وحدانية الله ، وقد أسبغ نعمه على الناس
فأخرجهم من ضلالة الجاهلية ليدخلوا في رعايته الإلهية .

وعليهم أن يعملوا ما يرضيه ليدخلوا في جناته ، فاما الجنة وشفيعها العمل
الصالح ، وأما النار ويشن القرار .

كما عليهم الجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية في أطراف الأرض .
والرسول في كل ذلك يستوحى من كتاب الله ويستمد منه ما يضيء به كلامه فتشعر كما
يشع نور الشمس في السماء .

وأحياناً كان ينتقل بسرعة من الوعظ الروحي إلى التشريع ليتم بناء المجتمع
الإسلامي فيعيش المسلم متعاوناً مع جماعته في سبيل الخير ، وهو خير عميم بجنات النعيم
ما بعده خير ، وإلى جانب هذا هو خير للبشرية جمعاً من كل جنس وعرق ولون .

وهذه خطبة أخرى قالها عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع⁽¹²⁾ هي خطبة من
كلمة (ص) يتمثل فيه صحة الطبع ، وتنجل السهولة مع كثافة المادة ، وإذا كانت
الخطب محل إطباب ، كما قالوا ، فإننا نرى أن الإيجاز هنا زاحم الأطباب وتغلب عليه ،
مع تحقيق الغرض المطلوب ، وذلك أمر لا يتيسر إلا مثل الرسول ، خير ناطق من العرب
من أوتوا الحكمة وفصل الخطاب . قال (ص)⁽¹³⁾ :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعتذر بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له . ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، واستفتح بالذي هو
خير .

أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أين لكم ، فإني لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد
عامي هذا في موقفي هذا .

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة

(12) كانت في السنة العاشرة من الهجرة وهي السنة التي توفي فيها ابنه إبراهيم (ص) .

(13) البيان والتبيين ج 2 ص 31 والسيرة النبوية ج 4 ص 250 والعقد الفريد ج 4 ص 57 .

يُوْمَكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، أَلَا هُلْ بَلَغْتَ ؟ اللَّهُمَّ اشْهُدْ . فَمَنْ كَانَتْ عَنْهُ أُمَانَةً فَلِيؤْدِهَا إِلَى الَّذِي اتَّمَنَهُ عَلَيْهَا وَإِنْ رِبَا الْجَاهْلِيَّةَ مَوْضِعٌ^(١٤) ، وَإِنْ أُولَى دَمَ رِبَا أَبْدَأَ بِهِ رِبَا عَمِيَّ الْعَبَاسِ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ . وَإِنْ دَمَاءَ الْجَاهْلِيَّةَ مَوْضِعَةٌ ، وَأُولَى دَمَ أَبْدَأَ بِهِ دَمَ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْخَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ . وَإِنْ مَآثِرَ الْجَاهْلِيَّةَ مَوْضِعَةٌ ، غَيْرَ السُّدَانَة^(١٥) ، وَالسَّقَايَة^(١٦) ، وَالْعَمَدَ قَوْد^(١٧) ، وَشَبَهُ الْعَمَدَ مَا قُتِلَ بِالْعَصَابَةِ وَالْحَجَرِ وَفِيهِ مَائَةُ بَعِيرٍ ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهْلِيَّةِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَشَّسُّ أَنْ يُعْبَدَ فِي أَرْضِكُمْ هَذِهِ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيهَا سَوْيَ ذَلِكَ مَا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّا النَّبِيُّ^(١٨) زِيَادَةً فِي الْكُفَّارِ يُضَلِّلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَحْلُونَهُ عَامًا وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا لِيَوَاطِئُوا عَدَةً مَا حَرَمَ اللَّهُ فَيَحْلُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ .

إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهْيَتِهِ يَوْمَ خَلْقِ اللَّهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِنْ عَدَدُ الشَّهُورِ عَنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِنْهَا أَرْبَعَةُ حِرَمٍ : ثَلَاثَةُ مَتَوَالِيَّاتُ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ ذُو الْقَعْدَةُ وَذُو الْحِجَّةِ وَذُو الْمُحْرَمِ وَرَجْبُ الَّذِي بَيْنَ جَهَادِي وَشَعْبَانَ . أَلَا هُلْ بَلَغْتَ ؟ اللَّهُمَّ اشْهُدْ .

أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًا ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ ، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَا يَسْوِطُنَّ فَرَاسُكُمْ غَيْرُكُمْ ، وَلَا يَدْخُلُنَّ أَحَدًا تَكْرِهُوهُنَّ بِيَوْنَتِكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ . وَلَا يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِيِّنَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْنَ لَكُمْ إِنْ تَعْضُلُوهُنَّ^(١٩) وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرَبًا غَيْرَ مَبِرَّ^(٢٠) فَإِنْ انتَهَيْنَ وَأَطْعُنُوكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكَسْوَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . إِنَّمَا النَّسَاءُ عِنْدَكُمْ عَوَانَ^(٢١) ، لَا يَمْلِكُنَّ لِأَنفُسِهِنَّ شَيْئًا أَخْذُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلُتُمُ فَرُوْجَهُنَّ بِكُلْمَةِ اللَّهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النَّسَاءِ ، وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا ، أَلَا هُلْ بَلَغْتَ ؓ اللَّهُمَّ اشْهُدْ .

(١٤) مَوْضِعٌ : حِرَمٌ وَسَاقِطٌ .

(١٥) السُّدَانَةُ : خَدْمَةُ الْكَعْبَةِ .

(١٦) السَّقَايَةُ : سَقَايَةُ الْحَجَاجِ .

(١٧) الْعَمَدُ : الْقَتْلُ الْمُتَعَمِّدُ ، الْقَوْدُ : قَتْلُ الْقَاتِلِ بْنَ قَتْلٍ .

(١٨) النَّبِيُّ^١ : شَهْرُ الْمُحْرَمِ كَانُوا يَحْرُمُونَهُ عَامًا وَيَحْلُونَهُ عَامًا إِنْ أَرَادُوا الْإِغْرَافَ .

(١٩) تَعْضُلُوهُنَّ : تَضَيِّقُوْهُنَّ عَلَيْهِنَّ .

(٢٠) ضَرَبُ غَيْرِ مَبِرَّ : ضَرَبُ غَيْرِ نَفْلِيْلِ .

(٢١) عَوَانُ : جَمْعُ عَانِيَةٍ وَهِيَ الْأَسِيرَةُ ، أَيُّ اسِيرَاتٍ .

أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحيل لأمرىء مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لأدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله علیم خبیر ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتفوی ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثالث . والولد للفراش وللعاهر الحجر⁽²²⁾ .

من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل⁽²³⁾ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يبدو واضحاً أن الرسول (ص) بعد الحمدلة والتسليم والوصية بالتفويی انتقل مباشرةً بين طائفتين من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف حدوداً بين الجاهلية والإسلام .

ولكي يقضي على الثأر وكل أسباب المخروب رد دم القتيل إلى الدولة فهي التي تعاقب عليه ، ثم حرم النهب والسلب تحريراً قاطعاً ثم بدأ بتشريعات لا بد للمجتمع إلا أن يأخذ بها ليعيش في سلم ووثام ومحبة . فأعلن :

إن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وإن رد الأمانة واجب شرعاً على صاحبها . وحرم الربا لأنه استغلال غير شرعي وأعطى مثلاً حياً من عشيرته ، عممه الموسى عباس بن عبد المطلب . كما أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يشار لقتيل له ، وبدأ بعشيرة فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

ولم يبق من آثار الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج وأوجب في قتل العمد القود ، أي قتل القاتل بن قتل . لأن ذلك أصبح من مسؤولية القضاء في الدولة . ثم حدد دية القتيل غير العمد بمائة بعير ليحفظ للجماعة وحدتها وتعاونها بمحبة

(22) للفراش : أي لصاحب . والعاهر الحجر : أي أن هذا متفق به رغم أنها أول علم بشير إلى رجها وهذا نراه أصوب .

(23) الصرف : التوبة والعدل : الفدية .

ووثام . ثم حذر الرسول (ص) من وساوس الشيطان وغواياته ، عمرماً التلاعب بالأشهر الحرم ، واضعاً تقوياً قمراً لا يتغير .

ثم رفع من شأن المرأة التي كانت مظلومة في الجاهلية وجعل لها حقوقاً وعليها واجبات داعياً إلى التعاطف والتراحم بينها وبين الرجل والتعامل برفق وإحسان .

ثم يعود (ص) إلى علاقة الفرد مع الجماعة ويعلن أن المؤمنين أخوة لكل أخ على صاحبه واجبات التعاون والتآزر والتحاب إلى ما فيه الخير والصلاح ، فلا نهب ولا بطش ، ولا ظلم ولا سفك دماء ، وهذا عهد بين المسلمين المؤمنين من نفسه عد كافراً آثماً ، لأن عهد الجاهلية ولن وانقضى ولا تنازد ولا تفاخر فالناس كلهم سواسية ولا عربي عدناني ولا عربي قحطاني ولا عربي ولا أعجمي فالناس كلهم لأدم وأدم من تراب . لقد وضع قواعد جديدة وموازين جديدة ولم يعد للنسب والحسب من دور يذكر في ميزان التاريخ الاجتماعي ، إنما الميزان الجديد الذي يخضع له كل كبير وصغير ويعمل به في الحياة هو « التقوى » .

ويلفت الرسول (ص) إلى ما قرره القرآن في الميراث وأنصبه ، وفي شرعية الأبناء والذين كانوا ينسبون لغير آبائهم من النساء العواهر ، فحرم ذلك تحريماً باتاً .

وبهذا يبين رسول الله في خطبته هذه ما ينبغي أن يأخذ به المسلم نفسه في علاقاته مع أبناء مجتمعه وفي علاقاته مع أسرته حتى تزكي نفسه وتتصفو سيرته ولا ينحرف قلبه عن المحجة بل يترقى في مراتب السلم الإنساني والكمال الحضاري .

هذه الخطبة وغيرها من الخطب النبوية صيغت بأسلوب نبوي فريد عرف به (ص) دون غيره من سائر البشر وقد وصف أسلوب خطابه الجاحد وصفاً دقيقاً فقال إنه :

« جانب التقييب⁽²⁴⁾ ، واستعمل المسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغم عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بال توفيق ، وهو الكلام الذي ألقى عليه الله المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجع له بين المهابة والخلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له

(24) التقييب : التكلم بأقصى قعر الفم .

خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يسأل الخطيب الطوال بالكلم القصاب ولا يتلمس إسكات الخصم ، ولا يحتاج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلح⁽²⁵⁾ إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى ، من كلامه (ص)⁽²⁶⁾ .

ثم أضاف الجاحظ في وصف الأسلوب النبوى المشرق البليغ :

فهو الذى فتق معانى هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله فهو الذى رسمها ، وفجّر ينابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمه إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبيته في الدلالة ، يسعفه في ذلك ذوق مرهف وحس دقيق نتبينهما فيما روى عنه من قوله : « لا يقولن أحدكم خبشت نفسى ولكن ليقل : لقست نفسى »⁽²⁷⁾ .

ما يدل أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار بعيد عن كل مستكره .

خطابة الخلفاء الراشدين

حفلت كتب الأدب والتاريخ بقدر ليس بالقليل من خطب الصدر الأول والخلفاء والصحابة ، ونأخذ منها « أدب الجهاد » لتتعرف من نماذجها على تلك الأداب والأخلاق التي كان على المجاهدين في سبيل الله أن يأخذوا بها ، ذلك أن أدب الجهاد يكشف عن روح الإسلام وجوانب كثيرة من قيمة الإنسانية ومثله العليا . وطالعنا هذه الروح ممثلة في الخطابة .

خطابة أبي بكر الصديق

خطبة أبي بكر في وصيته إلى أسامة بن زيد وجيشه حين سيره إلى الشام . يقول فيها :

« يا أيها الناس ، قفووا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عنى :
لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً

(25) الفلح : الفوز .

(26) البيان والنبيان ج 2 ص 17 .

(27) الحيوان ج 1 ص 335 ولقست النفس : غشت .

كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقرنوا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مشمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لأكلة ، وسوف تغرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوههم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بأنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسكم وتركوا حوالها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله ... ⁽⁸⁾ .

يتوضّع من هذه الخطبة كيف لقن أبو بكر المجاهدين آداب الحرب وشرف القتال ، فصور أخلاق المسلمين وهم في سبيل الجهاد ، وحذرهم من كل ما يعييهم ويشهوه سمعتهم الإسلامية النبيلة .

حذرهم من الغدر والخيانة والتمثيل بقتل الأعداء ، والبعد عن أذى الأطفال والشيوخ والنساء ، وكذلك عدم المس بالنبات والثمار والأنعام لأن هذه حرمتها ، فقد جعل الله فيها رزقاً لعباده . ثم يحذّرهم عن أدب المصلين واحترام المتعبدين من أهل الكتاب . فالإسلام دين السماحة والرحمة ، فلا ينبغي أن يتعرض المجاهدون لأهل الذمة من اليهود والنصارى في صوامعهم بسوء . ومن آداب الطعام يذكرهم بذكر اسم الله على كل ما يأكلون . وفي الوصية الأخيرة يأمر المجاهدين بضرب المخادعين الذين يدعون الزهد بمظاهرهم الخادعة ويرتدون لباس الدين ليستروا به عيوبهم ، يدعون الدين والدين منهم براء .

جملة من الآداب تشتمل الوصية ، لأن المجاهد المسلم يرفض منطق القوة المبنية على الباطل ويعضي في سلوكه حسبما تقتضيه المثل الإسلامية النبيلة . فالقتال في نظر الإسلام لا تثيره روح العصبية الحمقاء ، وإنما تكتنفه روح التعلق الذي يرعى لكل شيء حرمته فيعرف المجاهد كيف يستعمل سيفه استعمالاً لائقاً به وبكرامته .

خطابة عمر بن الخطاب

لعل هذه الخطبة أول صيحة لعمر في الحث على الجهاد وهو على أبواب الخلافة . قال للمجاهدين :

« إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين

(28) تاريخ الطبرى ج 3 ص 226 أما العقد الفريد فيذكر أن هذه الوصية موجهة إلى يزيد بن أبي سفيان ج 1 ص 129 .

الطَّرَاءُ الْمَهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ اللَّهِ ! سِيرُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمُ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثُكُمُوهَا ، فَإِنَّهُ قَالَ : « لِيَظْهُرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » وَاللَّهُ مَظْهُرُ دِينِهِ ، وَمَعْزُ نَاصِرِهِ ، وَمَوْلَى أَهْلِهِ مَوَارِيثُ الْأَمَمِ . أَيْنَ عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ »⁽²⁹⁾ .

فَسَارُوا فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ عُمَرُ وَاسْتَجَابُوا لَهُ وَلَا وَعْدَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ . وَحِينَ اجْتَمَعُوا وَلِي عَلَيْهِمْ أَبَا عَبِيدِ بْنَ مُسْعُودَ وَوَعَظَهُمْ بِالشُّورِيِّ وَبِالرُّوْيَةِ فَقَالَ :

« اسْمَعُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (صَ) ، وَأَشْرِكُهُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَلَا تَجْتَهِدْ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ ، فَإِنَّهَا الْحَرْبُ ، وَالْحَرْبُ لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيتُ الَّذِي يَعْرِفُ الْفَرَصَةَ وَالْكَفَ »⁽³⁰⁾ .

خطابة عثمان بن عفان

يستمرُّ الجَهَادُ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَيَضِيُّ المجاهِدونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَمَتدُّ رَقْعَةُ الإِسْلَامِ فِي الْأَرْجَاءِ . وَلَكِنَّ لَمْ تَرُدْ عَنْ عُثْمَانَ خَطَابَ تَشْرِيحِ آدَابِ الْجَهَادِ ، وَإِنَّ أُثْرَتْ عَنْهُ خَطْبَ قَصَارٍ فِي جَهَادِ الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ فِي لَحْظَاتِ الْمُحْنَةِ إِذَا الْفَتْنَةُ الْكَبِيرَى الَّتِي أَثَارَهَا الثُّوَارُ وَأَهْلُ الشُّقَاقِ فِي أَوَّلِ حُكْمِهِ . وَقَدْ كَانَ أَقْلَى قَدْرَةً فِي الْخَطَابَةِ مِنْ أَبِيهِ بَكْرَ وَعُمَرَ ، يَرَوِيُّ أَنَّهُ ارْتَجَعَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَقَدْ أَرَادَ الْخَطَابَةَ فِي النَّاسِ فَقَالَ⁽³¹⁾ :

« إِنَّكُمْ فِي دَارِ قُلْعَةٍ وَفِي بَقِيَّةِ أَعْمَارٍ ، فَبَادِرُوا أَجَالَكُمْ بِخَيْرِ مَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ، فَلَقَدْ أَنْتُمْ ، صَبَحْتُمْ أَوْ مَسَيْتُمْ . أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا طُوِّيَتْ عَلَى الْغُرُورِ فَلَا تَغْرِنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغْرِنَّكُمْ بِاللهِ الْغُرُورُ . اعْتَبِرُوا مِنْ مُضِيِّ ثُمَّ جَدَّوْا وَلَا تَغْفِلُوا ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِلُ عَنْكُمْ ، أَيْنَ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا وَإِخْرَانُهَا الَّذِينَ آثَرُوهَا وَعَمِّروهَا وَمَتَعُوا بِهَا طَوِيلًا ؟ أَلَمْ تَلْفَظُهُمْ ؟ ارْمُوا بِالدُّنْيَا حِيتَ رُمِيَ اللَّهُ بِهَا ، وَاطْلُبُوا الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا ، فَقَالَ عَزُّ وَجَلُّ : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيًّا تَذَرُّهُ الرِّياحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ، الْمَالُ وَالْبَنُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكُمْ ثُوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلَاً » .

وَقَدْ جَاهَدَ حَتَّى الرَّمْقِ الْأَخِيرِ مِنْ حَيَاتِهِ وَكَانَتِ الْثُورَةُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَنْحِرِفْ بِلَ ظُلْ صَابِرًا يَتْلُوُ الْقُرْآنَ وَيَدْعُ النَّاسَ إِلَى الْوَحْدَةِ وَعَدَمِ فَتْقِ الْفَرَقَةِ وَهُوَ بِذَلِكَ أَخْذٌ يَعْظِمُهُمْ حَتَّى

(29) تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ج 3 ص 444 .

(30) العَقْدُ الْفَرِيدُ ج 1 ص 128 وَالْطَّبَرِيُّ ج 3 ص 445 .

(31) الطَّبَرِيُّ ج 3 ص 305 وَالْقُلْعَةُ : أَيْ أَنَّهَا لَا تَدُومُ .

لا تبترهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقي على ما فني فيتخاذلوا ويصبحوا أحزاباً .

خطابة علي بن أبي طالب

كان علي كرم الله وجهه « خطيباً مفوهاً لا يشق غباره »⁽³²⁾ ولعل أقوى خطبه تعبيراً عن jihad ، خطبته عن jihad⁽³³⁾ قال :

« أما بعد ، فإن jihad باب من أبواب الجنة فتحه الله خاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجتنس الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه البسه الله ثوب الذلة وشمله البلاء⁽³⁴⁾ ، وسيم الخسف ، ومنع النصف⁽³⁵⁾ إلا وإن دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسرأ وإعلاناً قلت لكم : « أغزوهم قبل أن يغزوكم » فوالله ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا . فتساكلتم وتخذلتم حتى شنت الغارات عليكم ، وملكت عليكم الأوطان . وهذا أخوه غامد وقد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكري ، وأزال خيلكم عن مسالحها⁽³⁶⁾ .

فيما عجبأ : « والله ، يحيي القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم . فقبحا لكم وترحا⁽³⁷⁾ حين صرتم غرضاً يرمي⁽³⁸⁾ يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ، وبعصى الله وترضون فإذا أمرتكم بالسير إليهم في الصيف قلتم هذه حرارة القيظ ، أمهلنا حتى يسبخ⁽³⁹⁾ عنا الحر . وإذا أمرتكم إليهم في الشتاء قلتم هذه صباررة القر⁽⁴⁰⁾ أمهلنا حتى ينسليخ عنا البرد . كل هذا فراراً من الحر والقر . فأنتم والله ، من السيف أفر .

يا أشباه الرجال ولا رجال . حلوم الأطفال ، وعقول ربات الرجال⁽⁴¹⁾ وددت لو

(32) البيان والتبيين ج 2 ص 52 .

(33) فاما حين أغار سفيان بن عوف الأزدي على الأنبار وعليها حسان البكري فقتلها وأزال تلك الخيل عن مسالحها فخرج عندها علي وألقى هذه الخطبة .

(34) الجنة : الوقاية . شمله البلاء : عنته المصائب .

(35) النصف : الأنصاف . الخسف : الذلة .

(36) أخوه غامد : سفيان بن عوف أرسله معاوية لشن غارات على أطراف العراق .

(37) الترح : الحزن .

(38) هدفاً يرمي : هدفاً للهجمات والاعتداء .

(39) حرارة القيظ : أشدده . يسبخ : ينفخ .

(40) صباررة القر : شدة البرد .

(41) حلوم : عقول . ربات الرجال : النساء .

أني لم أركم ولم أعرفكم . معرفة ، والله ، جرّت ندماً ، وأعقبت سدماً⁽⁴²⁾ . قاتلوكم الله ، لقد شحتم صدرى غيظاً ، وأفسدتكم علي رأي بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بالحرب . الله أبوهم ! وهل أحد منهم أشد لها مراساً⁽⁴³⁾ ، وأقدم فيها مقاماً⁽⁴⁴⁾ مني ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها أنا قد ذررت على الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع » .

- سمع علي قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين ، فخطب فيهم وقال : «إن أكرهكم أن تكونوا سبائين . ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حائم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر . ثم قلت لهم مكان سبكم إليهم : اللهم احقن⁽⁴⁵⁾ دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيتنا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من هجع به⁽⁴⁶⁾ .

- وكان الخوارج يتندرون للاجتماع بقولهم : «لا حكم إلا لله» ، وهم يبغون إضعاف سلطة الإمام علي ، إذ يعنون أن لا سلطة للإمام علي عليهم لأن السلطة الحقيقة هي لله . لما سمع الإمام علي قوله هذا قال : كلمة حق يراد بها باطل ! نعم ، إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله . وأنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع بها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعف من القوي حتى يستريح بر ويستراح من فاجر .

بدأ الإمام علي بتأكيد معنى الجهاد في أدق تعبير يمكن أن يوصف به باعتباره الطريق إلى الجنة ، فكلما جد المجاهد سعيه في الجهاد في سبيل الله أسرع به الطريق إلى الجنة .

ثم يضي في تصوير الجهاد فلا يصف المجاهدين وما هم عليه من خلق يكون مثالاً للمجاهدين يحتذونه ، وإنما الذي يصوّره هنا هو الصورة المعاكسة لذلك تماماً ، صورة الراغبين عن الجهاد ، الراضين بالذل والخسف نتيجة لتخاذلهم وانصرافهم عن نصح قائهم ، وما أدى إليه ذلك من صور الهزيمة . فقد صور الجهاد من وجده المسلوب وهذا

(42) السدم : الأسف .

(43) المراس : المعاناة والتمرّن .

(44) ذررت : زادت سني على الستين .

(45) حقن الدم حبسه .

(46) أرعوي : رجع . الغي : الضلال . هجع الشيء : أولع به .

يُعرج في تصويره لهذه السلبية أيضًا على خصومه الذين دعا للجهاد ضدهم والذين خرّجوا في قتالهم على كل المثل الخلقية الإسلامية . فالمرأة المسلمة قد فضاعت هي الأخرى عند الخصوم حرمتها .

وَهُنَا يَبْرُزُ عَلَى صُورَةِ رائِعَةٍ مِنْ قُوَّةِ الإِيمَانِ وَشَدَّةِ الْحَسَاسِيَّةِ وَعَمْقِ الْآَلَمِ وَالْمُحْسَرَةِ فِي قَلْبِ الْمُسْلِمِ الْمُلْتَزِمِ بِأَصْوَلِ الْجَهَادِ الْخَلُقِيَّةِ تِلْكَ الْأَصْوَلِ الَّتِي تَخْلِي الْقَوْمَ عَنْهَا ، وَتَقْاعِسُ آخَرُونَ عَنْ مَوَاجِهَةِ هُؤُلَاءِ وَرَدْهُمْ . وَلَمْ يَقِنْ غَيْرُ الْأَسْفِ ، وَالتَّقْرِيرِ وَالتَّأْنِيبِ إِلَى آخر الخطبة ، وَعَلَيْيِ بنِ أَبِي طَالِبٍ مِنْ أَعْظَمِ فَصَحَّاءِ الْعَرَبِ ، وَأَقْدَرِهِمْ خَطَابَةً ، يَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ بِقُوَّةِ أَسْلُوبِهِ ، وَجَاهَ مَعَانِيهِ ، وَرَوَانِعَ حُكْمِهِ ، يَبْرُزُهَا بِقُوَّةِ حَجْتِهِ وَتَرَابِطِ أَفْكَارِهِ ، وَقُوَّةِ اسْتِدَالِلَةِ . قَالَ الدَّكْتُورُ فَرُوْخُ : « عَلَى أَنَّ الَّذِي لَا رِيبَ فِيهِ عَلَى أَنَّ عَلَيْهِ كَانَ خَطِيلًا قَدِيرًا وَمِنْ مُشَاهِيرِ الْخُطُوبِ ، تَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ خَطَابَهُ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي كِتَابِ الْأَدْبِ وَخُطَابِهِ الْمُجْمُوعَةِ فِي « نَهْجِ الْبَلَاغَةِ » مُوجَزَةً ، قَصِيرَةُ الْجَمْلِ ، مُتَبَيِّنَةُ التَّرْكِيبِ جَامِعَةً لِأَوْجَهِ الْبَلَاغَةِ ، وَاضْحَىَ الْمَقَاصِدُ تَكْثُرُ فِيهَا الْكَلْمُ الْجَوَامِعِ »⁽⁴⁷⁾ .

خطبة عدي بن حاتم

لَا قُتِلَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِي 18 ذِي الْحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ 35 هـ أَيْ فِي 18/6/656 م اضطُرَّ عَلَيْيِ بنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَمُ اللَّهُ وَجْهَهُ إِلَى قَبْوِ الْخِلَافَةِ وَعِنْدَهَا كَانَ الْأَحْوَالُ مُضطَرِّبَةً جَدًّا . سَارَ عَلَى الْحَزْمِ وَالْعَدْلِ ، لَكِنْ عَصِيَّانُ مَعَاوِيَةِ الَّذِي كَانَ وَالْبَأْسُ عَلَى الشَّامِ آنَذَاكَ ، وَالْمَطَالِبُ بِالْاِقْتِصَاصِ مِنْ قَلْتَةِ عُثْمَانَ⁽⁴⁸⁾ شَغَلَاهُ عَنْ تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ مِنْ خَطْلَتِهِ ، وَبِتَأْثِيرِ ذَلِكَ تَوَقَّفَتِ الْفَتوَحَاتُ وَقَدْ تَخَلَّفَ عَنِ الْبَيْعَةِ أَيْضًا عَائِشَةَ وَانْضَمَ إِلَيْهَا طَلْحَةُ وَالْزَّبِيرُ . وَسَارَ الْثَّلَاثَةُ مَعًا إِلَى الْعَرَاقِ يُحْرِضُونَ النَّاسَ عَلَى عَلَيِّ ، وَيُشَرِّوْنَهُمْ ضَدَّهُ . وَلَا عِلْمَ بِذَلِكَ تَوَجَّهَ إِلَى الْبَصَرَةِ مَعَ أَنْصَارِهِ ، فَأَقْبَلَ عَدِيُّ بنُ حَاتَّمٍ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْذِنَ لَهُ بِاستِدَاعِ بَنِي طَيِّءِ قَبِيلَتِهِ ، لِيَكُونُوا عَوْنَانِ لَهُ . فَأَذِنَ لَهُ عَلَيِّ . وَحِينَ وَصَلَ عَدِيُّ إِلَى قَوْمِهِ جَعْهُمْ ، وَخَطَبَ فِيهِمْ قَائِلًا : « يَا مَعْشِرَ طَيِّءِ ! إِنَّكُمْ أَمْسَكْتُمْ عَنْ حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) فِي الشَّرْكِ ، وَنَصَرْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى الرَّدَّةِ ، وَعَلَيْيَ قَادِمٌ عَلَيْكُمْ ، وَقَدْ ضَمِنْتُ لَهُ مَثْلُ عَدَةِ مَنْ مَعَهُ مِنْكُمْ فَخَفَوْا مَعَهُ »⁽⁴⁹⁾ . وَقَدْ كَتَبْتُمْ تِقَاتِلُونَ

(47) تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ ج 1 ص 309 .

(48) « المطالبون بدم عثمان هم الذين كانوا قد قتلوا أو حضروا على قتله » راجع تاريخ الأدب العربي د . عمر فروخ ج 1 ص 307 .

(49) خفوا معه : أسرعوا النصرة .

الجاهلية على الدنيا فعند الله مغائم كثيرة ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنت عنكم الوفاء⁽⁵⁰⁾ ، وباهيت بكم الناس⁽⁵¹⁾ ، نأجبيوا قولي ، فإنكم أعز العرب داراً لكم فضل معاشكم⁽⁵²⁾ وخيلكم ، فاجعلوا أفضل المعاش للعيال⁽⁵³⁾ ، وفضول الخيل للوهاد ، قد أظللكم على والناس معه من المهاجرين والبدريين ، والأنصار ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فإن هذا سبيل للحي فيه الغنى والسرور ، وللقتيل فيه الحياة والرزق فصاحت طيء : نعم . . . نعم . حتى كاد أن يضم من صياحهم⁽⁵⁴⁾ .

مضمون الخطبة :

اشتملت هذه الخطبة على الأفكار الرئيسية التالية :

- أراد عدي ترغيب قومه بالجهاد ودفعهم إلى الوقوف في صف علي بن أبي طالب لأنه هو خليفة المسلمين وصاحب حق . فأثار فيهم النخوة والرجلة وذكرهم بمواقفهم حين نصروا الله ورسوله أيام الردة .

- قارن بين موقفين متناقضين تماماً ، موقفهم في الجاهلية حيث كانوا يقاتلون من أجل الدنيا ، وموقفهم الحالي مع علي حيث يقاتلون من أجل الآخرة .

- بين لهم بكل وضوح أن موقفهم وجهادهم مع علي يحققان لهم الفضيلتين معاً : إحداهما في الدنيا وهي الغنائم والأسلاك مع النصر ، والثانية في الآخرة وهي الخلود والجنة . لذلك حثهم على القتال في سبيل الحق .

- ولكي يستجيبوا له ، ولا يختلفوا عن رأيه ، أثار العزة في نفوسهم فذكرهم بأنهم أعز العرب داراً وأمنعهم جانبأ .

- والحقيقة أنه كان خطبته صدى مسموع في نفوس قومه ، وقد أصاب منهم الهدف الذي يعيشه فاقعهم وأثارهم حتى وافقوا جميعهم وصاحوا صيحة عالية : نعم . . . نعم !

(50) ضمنت عنكم الوفاء : تعهدت أن تدخلوا في طاعة علي .

(51) باهيت : فاخترت .

(52) فضل معاشكم : زيادة في المال والخيل .

(53) العيال : من يجب الإنفاق عليهم .

(54) أن يضم : يصاب بالصمم .

تحليل الخطبة :

يعد عدي خطيباً ناجحاً في هذه الخطبة ، لأنه استطاع أن يقنع قومه وأن يشيرهم ، وهذه هي الخطبة الناجحة التي تعتمد على إقناع العقول والتأثير في النفوس . لقد ذكرهم بفاحرهم الماضية حيث أنهم لم يحاربوا الرسول قبل أن يسلموا ، ثم وقفوا موقفاً محايداً ضد لهم . ولم يسكتوا عن المرتدين ، بل حاربوا هم وقضوا عليهم .

وتجاه هذه المواقف النبيلة فإن الله سبحانه وتعالى قد وسع عليهم في المال والخيل . وسيكون لأولادهم فضل المال إذا استشهدوا ، كما ينبغي أن يكون فضل الخيل للجهاد . ثم بين لهم أنهم أعز العرب داراً ، وأمنعهم قوة ، مع وفرة الخيل والمال . واقنعتهم بأن موقفهم الجديد مع علي سيضيف إليهم شرفاً آخر فوق ما عندهم ، فهم يحاربون أعداءه لأنه هو على حق وهم على باطل فيكسبون بذلك فضلين واضحين فضل الدنيا وكسب المغانم في الحرب ، وفضل الآخرة وهو للشهيد حياة أبدية خالدة ، وجنة وافرة الشمرات والخيرات .

وكتب آخر لهم وهو أن علياً ليس وحده في المعركة ، بل معه خلق كثير وبخاصة المهاجرين والأنصار وأهل بدر ، وبذلك يكونون قد حفروا مزيداً من الفخر ومزيداً من المجد المشرق في الدنيا والمسعد في الآخرة وهذه الخطبة تعكس بوضوح الحالة السياسية التي كانت سائدة آنذاك ، والإضطراب الحزبي ، والخطيب هنا لم يعتمد على العاطفة الدينية وحدها في الحث على الحرب ، بل أضاف إليها دوافع أخرى هامة في حياتهم ، منها : إثارة العصبية القبلية التي تذكرهم بفاحر الجاهلية ، والإغراء بالمنافع الدنيوية كالغنائم والأسلاب .

وتكشف الخطبة عن قضايا هامة وهي : القتال في الجاهلية على الدنيا والمكاسب الزائلة ، والقتال في الإسلام على الآخرة الباقة .. وللحجي في مسيرة الجihad نصيب للشهيد في طريق الجنة النصيب الأكبر ، ثم الإمساك عن الحرب في شرك الجاهلية ، والانتصار للإسلام ولرسوله في الإسلام ، وقد استجابوا له وحقق هدفه .

صدر الإسلام : عصر الخطابة الذهبية

من خلال هذه النماذج الرفيعة من الخطاب في عصر صدر الإسلام يتبين لنا أن أزهى عصور الخطابة كان هذا العصر الذي شاهد مولد الدين الحنيف ، وشرق النبوة ، ونزول القرآن ، وانتصار الدعوة الإسلامية .

إن حياة الجهاد التي شملت الأمة العربية ، وكثرة الأحداث والفتن ، التي يطول فيها الجدل ويختدم النزاع ، وتجهيز الجيوش للمجهاد في سبيل الله ونكبة عثمان ، وانقسام جماعة المسلمين أيام علي ومعاوية أحزاباً وشيعاً كل ذلك جعل للخطابة دوراً هاماً في الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية ، فكانت أدلة المحتاورين ، ووسيلة المتجادلين ، يوضح كل منهم بها مذهبها ، ويدلي بحجته ، ثم جعلها الدين شعار المجتمعات الرسمية . أيام الجُمُع والعيدان ومواسم الحج . كما كانت سلاح القوم عند قيود الوفود والبقاء الصدوق .

أنواع الخطب في صدر الإسلام

اعتمد المسلمون في عصر صدر الإسلام ثلاثة أنواع من الخطب وهي :

1 - **الخطب الدينية** : وهي التي اعتمدت في الدعوة إلى الإسلام ، وشرح العقيدة ، وتبين الأحكام ، وفي الوعظ والإرشاد ، كخطب الجُمُع والعيدان ، وموسم الحج ، ورسائل الوفود . ومن هذا النوع كانت أكثر خطب النبي (ص) .

2 - **الخطب السياسية** : وهي التي اعتمدها الخلفاء والولاة والقواد في شرح المسائل السياسية : كاستحقاق الخلافة وولاية العهد ، وبيان المناهج السياسية كالخطب التي أوردننا نماذج منها من الخلفاء الراشدين ، أبو بكر وعمر وعلي .

3 - **الخطب العسكرية** : وهي التي قاها قواد الجيوش والأمراء عند الزحف والبقاء الصدوق عند القتال . فكان لا بد للقائد من إلقاء خطبة يوصي بها الولاية ، ويوضح لهم هدفهم ويعظمهم إلى ما فيه نجاحهم بما كان يلقى من الحماسة في قلوبهم . كخطب علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد .

وكما نلاحظ أن ميادين الخطابة أخذت تتسع باتساع الفتوحات الإسلامية وهي في كل أنواعها تستمد مادتها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بكل ما فيها من المعاني الرفيعة والأساليب البليغة ذات البهاء والرونق والإشراق .

خصائص الخطابة في عصر صدر الإسلام

تمتاز أساليب الخطابة في صدر الإسلام بصفات عدة أبرزها :

- تفتح الخطبة بحمد الله تعالى والصلوة على النبي محمد (ص) .
- تختتم بما يناسب المقام من الدعاء للمخاطبين ، أو السلام عليهم ، أو بمجيد الله والثناء عليه أو نحو ذلك ..

- اقتباس ما يناسب موضوع الخطبة من آيات القرآن الكريم ، أو أحاديث نبوية .
- حرص الخطيب على انتقاء الألفاظ الجزلة بعيدة عن خشونة البداوة والمنسجمة مع معانٍها فلا إطناب ولا إيجاز وإنما مختصر مفيد ، وإذا وجد بعض الأطباب أو الإيجاز فهذا يعود إلى الخطيب حسب مقتضى المقام من هنا كان القول المأثور لكل مقام مقال .
- أسلوب قوي وجميل ، شديد التأثير يصل إلى أعماق القلوب ويمتلك زمام العقل والوجدان ، فيهذب الطياع الخشن ويلين القلوب القاسية بالمحجة والبرهان مدللاً بالأيات المحكمة والأحاديث الصائبة وقصاري القول أن اللغة العربية لم تشهد عصرًا حافلاً بكثرة الخطباء ووفرة الخطيب مثل هذا العصر ، والخطابة وصلت إلى أرفع درجاتها وأرقى منازلها لما بتأثير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

الكتابة في صدر الإسلام

لقد نوه القرآن الكريم بالكتابة والقراءة في أول آية نزلت على الرسول (ص) ، فقال عز وجل : ﴿ اقرا باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرا وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق : ١ - ٥) .

كما نوه سبحانه وتعالى بالقلم ، أداة الكتابة الأساسية منذ عرفت الكتابة جاء في سورة القلم قوله تعالى : ﴿ ن . والقلم وما يسطرون ﴾ (القلم : ١) .

لقد قسم سبحانه وتعالى بالقلم الذي كانوا يسطرون به في رق وفي كتاب . قال تعالى :

﴿ والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ﴾ (الطور : ١ - ٣) جاء القسم بالكتاب المسطور في رق . حيث كانت الكتابة في أول عهدها على الرق ، وهي الحجارة المرفقة وعلى جلود الحيوان كما ورد أيضاً من أدوات الكتابة في القرآن الكريم : القرطاس ، والصحف ، واللوح ، وترددت الكتابة في كثير من الآيات قال تبارك وتعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهراً ﴾ .

وقوله أيضاً : ﴿ بل هو قرآن مجید في لوح محفوظ ﴾ .

والرسول (ص) شدد على نشر الكتابة بين أصحابه ، وتشجيعاً لذلك نراه يجمع فداء بعض أسرى قريش من حذقوا الكتابة تعليم عشرة من صبيان المدينة^(٥٥) .

(٥٥) الطبقات لأبي سعد ج 2 ص 14

ولأن الكتابة عامل هام في تسهيل المعاملات الاجتماعية وعنصر لا بد منه في ترقية الحياة الإنسانية ، حث القرآن على استخدامها في المعاملات يقول عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايْتُم بَدِينَ إِلَى أَجْلٍ مُسْمَى فَاکْتُبُوهُ وَلَا يَكْتُبُ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبْ كَمَا عَلِمَ اللَّهُ فَلَا يَكْتُبْ وَلَا يُمْلِلُ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلَا يَنْقُضَ اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ (البقرة : 282) .

وانطلاقاً من هذه الآية كانت الكتابة هي الوسيلة الوحيدة إلى نشر القرآن وتعلمها ، فالصحابة كانوا يكتبونه حتى يتحفظوه .

وكان هناك جماعة يكتبون آياته بين يدي الرسول مثل عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، حتى بلغ عدد كتابه (ص) ثلاثة وأربعين كتاباً . كان يكتب له في حتوائجه خالد بن سعيد بن العاص ، ويكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة ، والحسين بن ثمير ، كما كان يكتب لهم في قبائلهم عبد الله بن الأرقم ، والعلاء بن عقبة ، الحضرمي . وكان حنظلة بن الربيع مختلف كل كاتب من كتاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقب الكاتب⁽⁵⁶⁾ .

وفي العهد النبوي كتب القرآن الكريم ، وكتبت رسائل النبي إلى الأقبال والأمراء والملوك ، وكتبت أيضاً عهود الصلح بينه وبين قريش وغيرهم من دخل في ذمة المسلمين .

وكان كتابه (ص) نوعين : كتاب وحي ، وكتاب أعمال . . . من بين كتاب الأعمال الزبير بن العوام وجهم بن الصلت ، كانا يكتبان الصدقات ، والمغيرة بن شعبة ، والحسين بن ثمير كانوا يكتبان التدابير والمعاملات ، وحذيفة بن اليمان كان يكتب خرس النخل .

يتوضح مما تقدم أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تستخدم على نطاق واسع ، لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهم أمور المسلمين في معاملاتهم وعقودهم .

نماذج من الكتابة في صدر الإسلام

هذه معايدة أمر الرسول بكتابتها بينه وبين أهل نجران وفيها يبين ما عليهم من خراج يقول (ص) « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على

(56) الوزراء والكتاب للجهشاري ص ١٢ .

أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانه وليس عليهم دية ولا دم جاهلية .. ومن سأل منهم حقاً فيهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » .

ومن كتبه أيضاً (ع) كتابه إلى هرقل في السنة السابعة من الهجرة . أرسل الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلمتني . أسلم يؤتك الله أجراً مرتين . فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسين »⁽⁵⁷⁾ .

﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً . ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون ﴾ (آل عمران : 64) .

ولما تولى أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة ارتد كثير من العرب ، فوجه لهم الجيوش وبعث مع قادتها كتاباً مفتوحاً يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدین الله ، وأن من استجاب وكف وعمل صالحاً قبل منه ، ومن أبى فعلن يعجز الله وقوتل حتى يقر بالحق .

ثم اتبع ذلك بعهد آخر لأمراء الأجناد ضمنه هذه المعاني نفسها وأن يستوصوا بال المسلمين في حسن الصحبة ولبن القول .

ـ زال يتراسل معهم حتى رئب الصدع وتتحول الأجناد مع أمرائهم إلى الفتوح . وكان آخر ما كتبه عهده لعمير بن الخطاب .

وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بُرْ وعدل فذلك علمي به ورأي فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ، ولكل أمرٍ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينتقلون »⁽⁵⁸⁾ .

وولي عمر بن الخطاب ، وقت في عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تفتح كان يولي عليها الأمراء والولاة ، ولا بد لل الخليفة من مراسلتهم وتوجيههم ، سواء

(57) الاريسين : هم العمال والفلاحون لأنهم تبع لسادتهم .

(58) تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي لشوقى خبف ص 227 عن الوثائق السياسية .

فيها يعود لتنظيم الجيوش والتأهيل للحرب ، أو فيها يعود إلى طرق معاملة أهل البلاد المفتوحة وما أثر عنه في هذا الجانـب رسالتـه إلى أبي موسى الأشعـري وـالي البـصرـة . جاءـ فيها :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَمَا بَعْدُ : إِنَّ الْقَضَاءَ فِرِيْضَةٌ مُحَكَّمَةٌ وَسُنْتَةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا أَدْلَى إِلَيْكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ التَّكَلُّمُ بِحَقِّ لَا نَفَادَ لَهُ . أَسَّ(٥٩) بَيْنَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِكُمْ وَوِجْهِكُمْ ، حَتَّى لَا يَطْعَمُ شَرِيفَ حِيفَكُمْ ، وَلَا يَخَافُ ضَعِيفَ مِنْ جُوْرُكُمْ . الْبَيْنَةُ عَلَى مَنْ أَدْعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ . وَالصَّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صَلْحًا حَرَمَ حَلَالًا أَوْ أَحْلَالَ حَرَامًا . وَلَا يَمْنَعُكُمْ قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ بِالْأَمْسِ فَرَاجَعَتْ فِيهِ نَسْكُ وَهُدُوتُ فِيهِ لِرَشْدِكُمْ ، أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ إِلَى الْحَقِّ ، إِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ ، وَمَرَاجِعُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّهَادِيِّ لِبَاطِلٍ . الْفَهْمُ الْفَهْمُ عِنْدَمَا يَتَلَجَّلُجُ فِي صَدْرِكُمْ ، مَا لَمْ يَلْفَكُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا فِي سَنَةِ النَّبِيِّ (صَ) إِعْرَافُ الْأَمْثَالِ وَالْأَشْبَاهِ ، وَقَسُّ الْأُمُورِ عِنْدَ ذَلِكَ ، ثُمَّ اعْمَدُ إِلَى أَحْبَبِهَا إِلَى اللَّهِ وَأَشْبَهُهَا بِالْحَقِّ فِيهَا تَرَى . وَاجْعَلْ لِلْمَدْعُوِّ حَقَّاً غَائِبًا أَوْ بَيْنَ أَمْدَأْ يَنْتَهِي إِلَيْهِ ، إِنَّمَا يَحْضُرُ بَيْتَهُ أَخْذَتْ لَهُ بِحَقِّهِ ، وَإِلَّا وَجَهَتْ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ ، إِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشَّكِّ وَأَجْلَى لِلْعُمَى وَأَبْلَغَ فِي الْعَذْرِ . الْمُسْلِمُونَ عَدُولُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مُجْلُودًا فِي حَدٍ أَوْ عَبْرَةٍ عَلَيْهِ شَهَادَةُ زَوْرٍ أَوْ ظَنِيَّةٍ(٦٠) فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَوَلَّ مِنْكُمُ السَّرَايْرَ ، وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيْنَاتِ وَالْإِيمَانِ ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَالْقَلْقَ وَالضَّجْعَ وَالتَّأْذِيَّ بِالنَّاسِ وَالْتَّنَكِّرُ لِلْخُصُومِ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ ، الَّتِي يَوْجِبُ اللَّهُ بِهَا الْأَجْرَ ، وَيَحْسِنُ بِهَا الذَّخْرُ ، فَإِنَّمَا مِنْ يَخْلُصُ نِيَّتَهُ فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَبَارِكُ وَتَعَالَى ، وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ يَكْفِهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ خَلَافَ ذَلِكَ هَتَّكَ اللَّهُ سُرْتَهُ وَأَبْدَى فَعْلَهُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ(٦١) هَذِهِ الرِّسَالَةُ تَعْدُ وَثِيقَةً هَامَةً فِيهَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ مِنَ الرَّفِقِ بِالرَّعْيَةِ ، وَمُعَامَلَةُ الْجَمِيعِ عَلَى قَدْمِ الْمَسَاوَةِ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ كَبِيرٍ أَوْ صَغِيرٍ ، لَا بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبٍ . ثُمَّ يَضْعُ لِلْحَاكِمِ الْأَصْوَلِ الَّتِي يَصْدُرُ عَنْهَا فِي أَحْكَامِهِ ، وَهِيَ الْكِتَابُ وَالسَّنَةُ فَإِنَّمَا يَجِدُ فِيهَا مَا يَفِيدُهُ فِي الْوَصْولِ إِلَى الْحَقِّ يَجْتَهِدُ بِرَأْيِهِ . وَيَقُولُ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا إِلَّا أَنْ تَنْتَفِي عَدْلَتُهُ فَلَا تَصْحُ شَهَادَتُهُ .

ثم يوضح للحاكم موقفه من الخصوم فلا يتآذى بهم ولا يتذكر لهم . والرسالة تعد

⁽⁵⁹⁾ أَسْ : أَيْ سُوْيٌ بَيْنَ النَّاسِ . وَحِفْكٌ : ظُلْمٌ

(60) ظنناً : منها

٤٨) البيان والتبيين ج ٢ ص ٦١)

دستوراً للحكم سواء فيها يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يعاملوا به من الرفق والعنابة .

وقد مضى فاتحو الشغور في عهد عثمان بن عفان يكتبون عهودهم عندما يتصررون أو عندما يدخل القوم في طاعتهم دون حرب مقتدين بما مضى من عهود في عهد أبي بكر وعمر .

وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته في الحرب والسلم .

وخلف عثمان على ولكتة الحروب في عهده احتاج الأمر إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . من أهم ما كتب حينئذٍ وثيقة التحكيم بينه وبين معاوية . والرسالة التي وجهها إلى مالك الأشتر وليه على مصر .

وهذا نص الكتاب الذي أملاه علي بن أبي طالب على مالك الأشتر عامله على مصر . يقول الكتاب :

« ثم اعلم يا مالك ، إن قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وأن الناس ينظرون من أمروك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله على السن عباده ، فليكن أحباب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فأملك هواك ، وشح بنفسك عما لا يحل لك فإن الشح بالنفس الإنفاق منها فيما أحببت أو كرهت . واسعير قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم والتلطف بهم ، ولا تكون سبباً ضارياً تغتصم أكلهم ، فإنهن صنفان : إما أخ في الدين أو نظير لك في الخلق ! تفرط منهم الزلل⁽⁶¹⁾ ، وتعرض لهم العلل ، وبيؤق على أيديهم في العمدة والخطأ ، فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، وولي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولأك ! وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم ، ولا تنصب نفسك لحرب الله ، فإنه لا يدللك بنقمة ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته . ولا تندمن على عفو ، ولا تبجحن بعقوبة⁽⁶³⁾ ولا تسرعن إلى بادرة⁽⁶⁴⁾ وجدت منها مندوحة⁽⁶⁵⁾ ، ولا تقولنْ مؤمر فاطع ، فإن ذلك إدغال في القلب⁽⁶⁶⁾ ، وفكهة للدين ، وتقرب من

(61) تفرط منهم الزلل : يسبق منهم الخطأ .

(62) بجع بالشيء : فرح به .

(63) البدارة : ما ظهر من حدة الغضب .

(65) مندوحة : متسعًا ومخرجاً .

(66) إدغال : إفساد .

الغير ، وإذا حدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبها^(٦٨) أو خيلة^(٦٩) ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك فإن ذلك يطامن^(٦٩) إليك من إطياحك^(٧٠) ، ويكف عنك من غربك^(٧١) ، وفيه إليك بما عزب عنك من عقلك » .

فتأمل هذه الأحكام الواردة في هذا النص ، والشمول الذي وضع فيه المتحدة بتشكيل لجنة خاصة ، باسم لجنة حقوق الإنسان وعهد إليها بمهمة دراسة موضوع تدوين حقوق الإنسان عام 1946 م وكانت ثمرة جهودها إعلاناً عالمياً أفردته الجمعية العامة للأمم المتحدة لحقوق الإنسان ، كحق الحياة ، وحق الحرية ، وحق التملك .. وغير ذلك من الحقوق^(٧٢) .

وليس ما ذكرنا من هذا النص لعلي بن أبي طالب هو الوحيد في التشريع الإسلامي ، بل نجد تلك الحقوق يزخر بها الشعور الإسلامي وهي من الأوليات التي يجب على المسلم المؤمن تطبيقها ، وهي قرارات ملزمة يقع كل من تجاوزها تحت طائلة المسؤولية على عكس ما نشاهد ونسمع في عصرنا الحاضر من قرارات وتشريعات تفتقد صفة الإلزام والعقاب وبالتالي هي عديمة الجدوى .

من هذا المنطلق تميز التشريع الإسلامي بتلك الخاصة عن جميع المبادئ الأرضية ، بل والسماوية ، لأن سوى بين الروح والجسد مساواة دقيقة ، فلأعم كل عصر وسائر جميع الحضارات الإنسانية ، ودفع الناس للتنافس على الفضيلة ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

هذا الشعار يحمل للناس عامة شعلة من النور لا تحمد نارها ولا تنطفئ عبر الأجيال والأزمان .

والإسلام ، كما هو واضح من تعاليمه ، ألغى جميع الإمكانيات الشخصية بين

(٦٧) الأبهة : الكبرياء والعظمة .

(٦٨) خيلة : العجب والخيال .

(٦٩) طامن : حفظ .

(٧٠) الطهاح : النشور .

(٧١) الغرب : الحدة .

(٧٢) كان ذلك في 10/12/1948 ووقع الإعلان في ثلاثة مادة .

جميع أفراد الأسرة البشرية أيًا كانت صفتهم ، واعتبر الخلق جميعاً كأسنان المشط ، وهم قسمان : إما أخ في الدين أو نظير في الخلق .

- المساواة بين الحاكم والمحكوم : جميع الناس في التشريع الإسلامي متساوون ، الحاكم والمحكوم ، أمام القضاء ، فلا فرق بين رئيس ومرؤوس ، ولا بين جنس ولون ، أو غني وفقير ، ولا يختلف الحكم بالنسبة للجاني أيًا كانت صفتة ، كما على الحاكم أن يمنح الناس من صفحه وعفوه فلا يشعر أنه فوقهم أو أمرهم ، لأن الله قد ولأه عليهم وهو فوق الجميع ، أي فوق الراعي والرعية .

كل ذلك حتى لا يشعر الحاكم من إفساد في قلبه وضعف في دينه وزوال حكمه . وإذا غرب هذا عن باله فلينظر إلى عظم ملك الله فوقه وقدرته منه على ما لا يقدر عليه من نفسه . عندها لا ريب أنه يخفف من حدته ويفي إليه بما عزب عنه من عقله .

وإذا نظرنا إلى التقنين الوضعي لا نجد من سبيل للمقارنة بينه وبين التشريع الإسلامي ، وإن وجدنا فيه ما يقبله العقل السليم ، فقد اقتبس منه كل ما قاله في الحرية والعدالة والمساواة .

شخصية الحاكم وما يجب أن يكون عليه من العدالة النفسية ، والثقافة الحقوقية حتى يتمكن من إقامة العدل بين المجتمعات البشرية . إنه تقنين يسير مع كل عصر ، ويجب أن يضطلع به أي حاكم .

المعاني الواردة في النص :

- لا مخرج للحاكم ، لاستظهار الحق ليعمل له ويقف عنده ، من لزوم وقوفه على تطورات التاريخ ، في إقليمه ، وما كان يجري عليه من تشريعات وتقالييد وأعراف ، وذلك ليتمكنه من الإفادة منها ، في تيسير أموره وتنفيذ أوامره ، وليس بين من خلاها من تسرب منه الجور فيعمل على منعه ، وما يصلح منها العباد فيرسخه ويشيد عليه .

- غاية التشريع الإسلامي : العدالة في التشريع الإسلامي هي المدف والغاية ، والإسلام أوجب على الحاكم الإسلامي انتهاج سبيلها ، لإيصال كل ذي حق حقه ، دون أي امتيازات عرقية أو اجتماعية . فإيقاف المرء عند حدوده المنشورة ، وإيصاله إلى حقوقه ، من أهم العوامل الرئيسة لبقاء تمسك الهيكل الاجتماعي . لذلك ركز الإمام علي على عامله بأن يملك هواه ويشع بنفسه وأوقفه على أن الإنفاق للنفس ميزان العدل . ثم أراد من الحاكم أن يحيط عدله بعوامل اللطف والرحمة والمحبة فعليه إذن أن

يقضي على بوادر الزلل التي تملك الإنسان أحياناً فتزل به القدم ويصعب عليه الإنفلات من إسارها . قال رسول الله (ص) : « لا يكون المسلم مسلماً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره منها ما يكره منه » ولعمري هذا هو المعنى الدقيق للعدالة النفسية ، وتلك هي القواعد المتينة للعدالة الاجتماعية .

- حماية الفرد من عسف الحاكم : « ولا تكونن سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق » وهذا مرتشف من قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المحسنين » (المتحنة : 8) .

- ما يلفت إليه أن هذا الكتاب يعد من أول الوثائق الدستورية لحماية الفرد والمجتمع وقد دونها الإسلام وأهملتها المجتمعات المعاصرة المسماة بالحضارية ، وعلى الأخص المجتمعات الغربية ، التي وقعت فيها أبشع أنواع الجرائم ضد الجنس البشري إشباعاً للنزوات العنصرية . وبعد حدوث هذه الجرائم قام المجلس الاقتصادي الاجتماعي للأمم والحق يقال أنه منذ عهد عمر وما بعد أصبحت الكتابة جزءاً أساسياً من أعمال الدولة ، فقد رسمت للمسلمين ولأهل الذمة العلاقات السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وكل ما يتصل بالأنظمة في البلاد المفتوحة .

فالحاجة إلى الكتابة في صدر الإسلام كثيرة نختصرها فيما يلي :

- 1 - احتاج المسلمين إليها أول الأمر لتدوين القرآن وكتابة رسائل الدعوة إلى الإسلام .
- 2 - الحاجة إليها ماسة أيضاً في شؤون الملك والسياسة ، والحروب والسلم ، وكتابة العهود والمصالحات والوصايا والإرشاد .
- 3 - كما دعت الحاجة إليها من أجل تدوين الدواوين وتنظيمها .

لما اتسعت الفتوحات في عهد عمر وكثرت موارد الدولة من الغنائم أصبحت الحاجة ماسة إلى إنشاء الدواوين وذلك لضبط مواردها ومصارفها وتنظيم أعطيات المسلمين .

وقد عهد الخلفاء بأمور الكتابة في الدواوين إلى العرب والموالي المتعربين ، وقد فضلوا أن تبقى كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل البلاد المفتوحة نفسها ، ففي مصر كتبت بالقبطية وفي العراق وفارس بالفارسية ، وفي الشام بالرومية . وبقي الحال على هذا

المنوال حتى تعلم العرب هذا الفن ، فن كتابة الدواوين واتقنوها اتقاناً تماماً ، فتحولت بعد ذلك الكتابة إلى اللغة العربية وذلك في العصر الأموي الذي نأى في الحديث عنه فيها بعد .

ومن مميزات أسلوب الكتابة في عصر صدر الإسلام :

أ - السهولة والوضوح للوصول إلى الغرض المطلوب .

ب - بعدها عن التكلف والسجع وخلوها من عبارات التفخيم وتأثيرها بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوبي الشريف .

ج - ميلها إلى الإيجاز ، الإيجاز المعبّر عن القصد ، الصائب للهدف .

د - كانت تستهل : باسمك اللهم ، ثم السلام عليكم غالباً ، أو السلام على من اتبع الهدى إذا كانت موجهة إلى غير المسلمين ثم يثون بقولهم : « إني أحمد الله وإليه أنيب » .

وقد يبدأ الكاتب غالباً بأما بعد ، وبذكر الغرض الذي يرمي إليه . وينتهي بقوله : والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

و واضح من ذلك أن الكتابة قد تطورت تطوراً واسعاً في عصر صدر الإسلام ، وذلك بتعدد موضوعاتها التي لم يكن للقرب عهد بها من قبل ، وما كانت تحمل من النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيدة . وكان الرسول (ص) هو الذي سهل طريقها وتبعه خلفاؤه لبيان حاجات المسلمين وحاجات البلاد المفتوحة .

الوصايا

وهذا لون آخر من ألوان النثر في صدر الإسلام ، الوصية . وهي خلاصة موجزة عن حياة المرء في شؤونه وشجونه ، وأخر ما يقدمه في حياته أو نهايتها ، بعد أن اختبر الحياة بكل ما فيها من حلو ومر ، وهناء وشقاء وطيب وخبيث فيوصي أبناءه وأهله بالأمور التي يرى فيها خوايل السعادة والرفعة وسواء السبيل .

وقد كانت الوصية في الجاهلية وأقرها الإسلام بعد أن وضع لها شروطاً خاصة وللزام الموصى له بتنفيذها دون أي تبديل أو تعديل . وقد نزل فيها آيات في القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ كُتبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِنْ تَرَكْ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُتَقِينَ . فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِنْهَى عَلَى الَّذِينَ يَبْدَلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ ﴾ (البقرة : 180 - 181) .

وقوله عزوجل في سورة النساء : ﴿ ... من بعد وصيٰة يوصي بها أو دين . . . ﴾ (النساء : 10) .

ومن الوصايا في صدر الإسلام :

وصية لل الخليفة عمر بن الخطاب

أوصى لل الخليفة من بعده فقال :

أوصيك بتقوى الله ، وشدة الحذر منه ، ومخافة مقتله ، أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، وتخشى الناس في الله . وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم . ولا يؤثر غنيهم على فقيرهم . فإن ذلك ، بإذن الله ، سلامه لقلبك ، وحط لوزرك وخير في عاقبة أمرك ، حتى تفضي من ذلك إلى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك .

وأمرك أن تشتد في أمر الله ، وفي حدوده ومعاصيه ، على قريب الناس ويعيدهم . ثم لا تأخذك في أحد رأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمة الله . واجعل الناس عندك سواء لا تبالي على من وجب الحق ثم لا تأخذك في الله لومة لائم .

وإياك والأثرة والمحاباة في ما ولاك الله مما أفاء على المؤمنين فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ؟ فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفة عنها بسط الله لك ، اقترفت به إيماناً ورضواناً . وإن غلبك الهوى ، اقترفت به سخط الله .

الأفكار الرئيسية في الوصية

1 - يوصي من بعده : بتقوى الله ، لأن التقوى هي الميزان الأساسي في التشريع الإسلامي ، فهي تقي المؤمن من الإنزلاق في محارم الله ، وتحفظه من الوقع في المأثم .

2 - العدل في الرعية : على الحاكم في الإسلام أن يكون عادلاً بين الناس جميعاً لا فرق بين قريب أو بعيد ، أو بين غني أو فقير ، أو مسلم أو غير مسلم . وهو ينفذ حكم الله بين عباد الله ، ويطبق شريعة كتاب الله على جميع الخلق « يتفرغ لحوائجهم وثغورهم » « ولا يؤثر غنيهم على فقيرهم » لأن ذلك خير له في عاقبة أمره .

3 - التشدد في أمر الله وحدوده : لما كان الحكم تنفيذاً لأوامر الله وجب على الحاكم في الإسلام التشدد في المحافظة على حدوده . وحدود الله هي محارمه فلا تجاوز

لها ، ولا التقاوع عن تنفيذها ، بل يجب مراعاتها على أكمل وجه . ذلك من تجاوز حدود الله وقع في المعاصي ، ومن أهملها وقصر دونها يكون جاهلاً أو مهملاً ، وفي الحالتين لا يقبل له عذر أو تبرير .

4 - الحزم في تطبيق حكم الله : على الحاكم في الإسلام أن يكون حازماً في تنفيذ الأحكام فلا تأخذ في أحد رأفة . ولا يتراجع أمام عواطف الأقرباء والآصدقاء حتى ولو كان الحكم يجري على أهله . فكل الناس عنده سواء لا يبالي على من وجب الحق ، ولا « تأخذ في الله لومة لائم » .

5 - التحذير من الأشرة والمحاباة فيها ولاء الله على المؤمنين : لا فضل للمؤمن على آخر ولا فضل لحاكم على محكوم لأن الله أمر بالمساواة بين عباده والحاكم مسؤول عن رعيته أمام الله فلا يحابي ولا يداري مما أفاء الله على المسلمين ، فالحال مال الله والمساواة بين عباد الله ضرورة حتمية وتوكيل شرعي لا بد من مراعاته . فإن اقترف الحاكم لدنياه عدلاً وعفة اقترف به إيماناً ورضواناً ، وإن غلبه الهوى والميل اقترف غضب الله وسخطه وخسر آخرته بدنياه .

يجري عمر بن الخطاب في وصيته هذه بأسلوب فطري يخلو من التصنع والتتكلف ، وإن ورد بعض المقابلة في بعض الجمل فقد جاء في محله دون قصد معتمد . فهو أسلوب سهل التعبير ، واضح المعاني ، ليس فيه كلمات غريبة أو حوشية . أصاب الهدف المقصود بكل يسر وإيجاز بعيداً عن التطويل والإطباب .

وصية معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد

لما حضرت معاوية الوفاة كان ابنه يزيد ، ولي عهده غالباً ، فدعى مسلم بن عقبة المري ، والضحاك بن قيس الفهري ، وقال لها : أبلغوا عنني يزيد وقولا له :

يابني ، إني قد كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك الأمور وذلت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجئت لك ما لم يجتمعه أحد . فانظر أهل الحجاز ، فإنهما أهلك وعترتك⁽⁷³⁾ ، فمن أتاكم منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعهد به . وانظر أهل العراق ، فإن سألك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً ، فافعل . فإن عزل عامل أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدرى علام أنت عليه منهم ؟

(73) عترتك : عشيرتك ، قومك الأقربون .

ثم انظر أهل الشام ، فاجعلهم الشعار^(٧٤) دون الدثار^(٧٥) ، فإن رابك من عدوك
ريب ، فارمهم بهم^(٧٦) . فإن أظفرك الله بهم ، فأردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا
يقيموا في غير بلادهم ، فتأدبوا بغير أدبهم . وإنني لست أخاف عليك أن ينazuك هذا
الأمر إلا أربعة نفر من قريش الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن
الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . فاما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع^(٧٧) .
وإذا لم يبق أحد غيره يابيك . وأما الحسين بن علي فإنه أرجو أن يكفيكه الله بن قتل أباه
ونخذل أخيه ؛ ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه . فإن خرجت وظفرت به ،
فاصفح عنه ، فإن له رحمة ماسة وحقاً عظيماً ، وقربة من محمد ، صلوات الله عليه
وسلامه .

وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليست له همة إلا في
النساء واللهو وأما الذي يجشم لك جثوم الأسد ، ويرأوغث مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته
فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير . فإن هو وثب عليك ، فظفرت به ، فقطعه إرباً إرباً ،
واحقن دماء قومك ما استطعت .

مضمون الوصية :

تضمن الوصية الأفكار الرئيسية التالية :

1 - اطمئنان يزيد لتسلم الحكم بما مهد له والده معاوية ، وهذا هو الهم الأكبر
عنه قبل موته . فهو يعلم في قراره نفسه أن كثيراً من قريش هم أحق بالخلافة من ابنه
يزيد ، لكنه بذكائه ودهائه وألاعيبه مهد ليزيد بتسلمه الخلافة قبل موته حيث جعلها وراثة
بدل أن كانت شوري بين المسلمين كما أرادها الله في كتابه العزيز . قال تعالى :
﴿ وأمرهم شوري بينهم ... ﴾ (الشورى : ٣٨) وقال سبحانه أيضاً :
﴿ ... وشاورهم في الأمر ﴾ (آل عمران : ١٥٩) لقد أطاع هواه وحرض على مصالحة
الشخصية وخالف كتاب الله وأهمل مصالح المسلمين .

2 - يوصيه ليكرم أهل الحجاز لأنهم عترته الأقربون فعليه أن يتعهد لهم كما يوصيه
بأهل العراق ليستجيب لطلباتهم منها تعددت وصعبت عليه ، فهو يعلم أنهم لا يستقررون

(٧٤) الشعار : الثوب الداخلي الذي يلبس على شعر الجسد .

(٧٥) الدثار : ثوب يلبس فوق الشعار .

(٧٦) فارمهم : الضمير للعناد ويستوي فيه الواحد والجمع .

(٧٧) وقذه : صرעה ، تركه عليه .

على رأي ثابت معلوم ، والإستجابة لطلباتهم أهون عليه من سل « مائة ألف سيف » وإشعال نار الحرب . أما أهل الشام فهم أصحابه وأعوانه في الحكم ، لأن الشام كانت مركز ولاية معاوية طيلة عشرين عاماً ، وقد جعلها مركز خلافة مدة عشرين عاماً أخرى ، لذلك هو يأمن أهل الشام ويستعين بهم « فإن رابك من عدوك رب ، فارمههم بهم » .

3 - تخوفه من نفر من قريش : وهو أربعة : الحسين بن علي الذي يعلم أن الحق له في تسلم الخلافة وهو قريب الرسول ورحمه ، فإن خرج على يزيد وظفر به فعليه أن يصفح عنه ولكن يزيد خالف الوصية وأقدم على قتل الإمام الحسين في كربلاء . وعبد الله بن عمر لا خوف منه لأنه مولع بالعبادة ليل نهار ولا شأن له في السياسة .

أما عبد الرحمن بن أبي بكر فليس له هم إلا في النساء ، وهو إمعة يرى أصحابه صنعوا شيئاً فيصنع مثلهم . لكن الذي كان يغدره منه ويختلف هو : عبد الله بن الزبير ، فهو في نظر معاوية « يجثم على صدر يزيد جثوم الأسد ويرأوغ مراوغة الثعلب » لذلك يوصيه إن وثبت عليه وظفر به يقطعه إرباً إرباً .

4 - والوصية الأخيرة لابنه يزيد ، الذي يحرض على حكمه بعد موته ، فهو حقن دماء قومه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، لأنه حصنه الحصين وملجؤه الأمين . هذه هي أهم الأفكار الرئيسية الواردة في الوصية . أما أسلوبها فهو موجز بلغ يليغ ليس فيه تكلف يجري فيه صاحبه على السليقة . وإن وجدنا بعض المحسنات اللفظية والتشبيهات والإستعارات فقد وردت في مكانها دون أن تقحم اقتحامًا كقوله « فأجعلهم الشعار دون الدثار » و « يجثم لك جثرم الأسد ، ويرأوغك مراوغة الثعلب » . كما لا نجد فيه إطناباً وتطويلاً فهو مختصر مفيد .

وصية علي بن أبي طالب لابنه الحسن

تلمذ الإمام علي بن أبي طالب على يدي الرسول الأعظم محمد بن عبد الله (ص) فكان قمة في البلاغة والفقه والعلم والأدب والحكمة وقال في جميع ألوان النثر : الحكمة والخطابة ، والترسل ، والأدب ، والفقه ، والقضاء ، والوصايا .. منها ما قاله لابنه الحسن في هذه الوصية :

لا تخلقْ وراءك شيئاً من الدنيا ، فإنك تخلفه لأحد رجلين : إما رجل عمل فيه

بطاعة الله فسعد بما شقيت به ، وإنما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عوناً له على معصيته . وليس أحد هذين حقيقةً أن تؤثره على نفسك .

يا بني احفظ عني أربعاً ، وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن : أغنى الغنى العقل . وأكبر الفقر الحمق . وأوحش الوحشة العجب⁽⁷⁸⁾ . وأكرم الحسب حسن الخلق .

يا بني إياك ومصادقة الأحق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك . وإياك ومصادقة البخيل ، فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه . وإياك ومصادقة الفاجر ، فإنه يبعك بالتابه . وإياك ومصادقة الكذاب ، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ، ويبعد عليك القريب .

الأفكار الرئيسية الواردة في الوصية :

1 - يوصيه بأن هذه الدنيا فانية ولا قيمة لاي شيء فيها بالنسبة للآخرة التي هي خير وأبقى . ثم لماذا جع المال والمتاع ليخلفه كل منا لأولاده ؟ وهم قسمان : منهم من يعمل بطاعة الله فيسعدون بما نحن شقينا به ومنهم من يعمل بمعصية الله فنكرون لهم عوناً على المعاصي والآثام وعلى أي حال فإن الصفتين يجب أن لا نؤثرهما على أنفسنا . وهذه نصيحة واقعية لكل أب في هذه الحياة الغرارة الرخيصة .

2 - والوصية الثانية قيمة جداً تفيد كل إنسان في كل زمان ومكان ، وتوطد العلاقات الإجتماعية بين أفراد المجتمع ، وتحجعل الإنسان محبوياً . بين معاشريه وأخوانه . فقال : أغنى ما في الوجود : العقل . فهو نور يهدي إلى الحق ، ويسهل اكتساب المعرف ، ويحفظ الإنسان من الزلل والخطأ والشطط ويكسب الفرد منزلة رفيعة ومحترمة بين قومه ، وهو كتز ثمين به تميز الإنسان عن الحيوان الأبكم .

وأكبر الفقر الحمق : ليس الفقير هو الذي يحتاج إلى المال ، بل الفقير هو المحروم من العقل ، الإنسان الأحق الذي يتحمس لاتفه الأمور ، والطائش الذي لا يتزوي في حل مشاكله ولا يتأنى ملياً في تصريف أموره . وهذه بلا ريب هي صفات الجاهل والمتخلف الذي يضع الأمور في غير مكانها ، والحضارة بحد ذاتها لا تحيي العلم فحسب وإنما هي الحلم والأخلاق ، هي ضد الترق والطيش والتهوس والتسرع وما شابه .

قال عمر بن كلثوم :

الا لا يجهل أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

(78) لأن المتكبر الذي يعجب بنفسه يفته الناس حق لا يجد له آئياً .

« وأوحش الوحشة العجب »

النكر مرض يصيب الفرد فيتوهم نفسه أنه أفضل الناس فيتهي عليهم ويتجاوز حدوده بينه وبينهم ، لذلك يمتهن الناس فيتفرقون من حوله ولا يجد له أنيساً يأنس به ويتعاون معه ؛ فتصبح حياته موحشة باردة خالية من الحياة المرحة .

« وأكرم الحسب حسن الخلق » .

الركيزة الأساسية في الإسلام الأخلاق الحسنة وهي من صفات المؤمنين . ورد عن النبي (ص) : « إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » بالأخلاق الحسنة يعلو المرء بين قومه ويصبح محباً في مجتمعه وينظر إليه بعين العطف والمحبة فيشكرون أحسن ، ويسامح إن أخطأ أو زلت به القدم قال (ص) :

« إنخلق الحسن ليحيط الخطيئة كما تحيط الشمس الجليد » وقد سأله رجل رسول الله عن حسن الخلق ، فتلا قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين » ثم قال (ص) : « وهو أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرملك ، وتعفو عن ظلمك » وإن أفضل مدح لرسول الله (ص) من رب العالمين قوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » وما أرسل (ص) إلا كما قال : « بعثت لأتم مكارم الأخلاق » .

وقد قال أحد الحكماء : سوء الخلق سيئة لا ينفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا يضر معها كثرة السيئات . ثم تابع في وصيته لابنه الحسن :

ليبتعد عن مصادقة الأحق لأنه بدل أن ينفعه يضره ، والبخيل لأنه يبعد عنه ما هو بأحوج ما يكون إليه . والفاجر فإنه يبيعه بالتأفه . وأما الكذاب فعليه أن يبتعد عنه لأنه يقرب عليه البعيد ، ويبعد عنه القريب ، فهو كالسراب مخادع يظهر للعطشان أنه ماء يرويه فيلهم إثره فإذا هو خيال يغويه هذه هي أبرز معانٍ لهذه الوصية القيمة التي كانت صالحة لعصره التي تصلح لكل عصر .

أما عن الأسلوب فهو حكم بلية ففصلت فيه الكلمات على أقدار معانيها ، وصفه الأدباء والبلغاء بأنه « تحت كلام الخالق فوق كلام المخلوق »⁽⁷⁹⁾ .

(79) راجع تاريخ الأدب العربي د . عمر فروخ والحياة الأدبية في مصدر الإسلام د . خفاجي .

وقال في وصية عامة :

أوصيكم بخمس لوضربتم إليها آباط الإبل^(٨٠) لكان ذلك أهلاً : لا يرجون أحد منكم إلا ربه . ولا يخافن إلا ذنبه . ولا يستحبن أحد ، إذا سئل عما لا يعلم ، أن يقول : لا أعلم . ولا يستحبن أحد ، إذا لم يعلم الشيء ، أن يتعلمه .

وعليكم بالصبر ، فالصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لا رأس معه ، ولا في إيمان لا صبر معه .

الأفكار الرئيسية في هذه الوصية :

١ - عزة النفس

يغاطب الإمام علي جميع المسلمين المؤمنين ويطلب إليهم لا يرجون إلا الله وحده سبحانه وتعالى ، ولا يرجون سواه من أهل الأرض .

يطلب منهم أن يكونوا أعزاء ، رأسهم عال عن الصغار ، ونفسهم عزيزة عن الطلب . وقد أرادهم الله أن يكونوا كذلك . قال تعالى : ﴿... وَلِهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (النافقون : ٨) فأي تكريم وأي تفضيل وأي تعزيز أفضل من هذا للمؤمنين ؟ فقد أعطوا أعلى الدرجات وأسماءها في المخلوقات ، ومنحوا العزة من رب العالمين العزيز الحكيم . فالمؤمن كما هو عزيز على الله هو عزيز أيضاً على سائر المخلوقات ، لذلك عليه لا يرجو إلا ربه فقط . لأنه سبحانه وتعالى : ﴿مَالِكُ الْمَلَكُوْنَ يَعْطِيُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْزِيْزُ مَنْ يَشَاءُ بِسْدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فكراة المؤمن ليست ملكه الشخصي وهو حر التصرف بها ، بل هو مسؤول أمام الله عز وجل عن المحافظة عليها وصونها من المهانة والمذلة .

٢ - الخوف من الذات الإنسانية

إن المؤمن الذي يخاف ذنبه يبتعد عن الواقع في أوحال الخطيئة لأنه يريد أن يكسب رضى الله ويتجنب سخطه . جاء في الحديث : من عرف نفسه عرف ربه . ويمكن أن نقول : من خاف نفسه خاف ربه وحاسب نفسه عن كل بادرة تبدو منه تجاه الآخرين . وما من شك أن الذي يحاسب نفسه ، إن أخطأ يتراجع ويتوب إلى الله ، وإن أحسن يتابع ويحمد الله .

(٨٠) ضرب آباط الإبل : شد الرحال وتحت المسير .

٣ - قاعدة صحيحة في طلب العلم

الصراحة العلمية ضرورة حتمية ، والعالم المؤمن إذا سئل عن أمر عليه أن يقول الحقيقة فتصبح بكل ما عنده من علوم ومعارف ، فإن علم عليه أن ينشر علومه بين الناس ولا يكتفياً في صدره ، وهذا واجب شرعي ، لأنه إن لم يفعل كان أشبه بالجاهل أو بالرجل الغني البخيل الذي يخزن أمواله عن الناس وينعهم من الإفادة منها . أما إذا كان لا يعلم فعليه أيضاً أن ينطق بالحق فيقول عند سؤاله هذا الأمر لا أعلمه وسوف أحاول تحسيله من مصادره ، وإن لم يفعل واستحقى أمام سائليه وأجاب إجابة مغلوطة فقد أخطأ أيضاً وتحمل مسؤولية إجابتة المغلوطة التي يتعلّمها الناس خطأً ويلهجون بها وينشرونها بين الناس بالشكل المغلوط . وهذا بلا ريب مرفوض شرعاً . ولا بأس عليه إن صرّح بما يعلم وما لا يعلم لأن الإنسان يمضي معظم حياته ولا يستكمل علومه .

٤ - ثم يوحى بالصبر

«والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد» أي أنه الأساس في الحياة فكما لا يمكن أن يكون الجسد بلا رأس كذلك لا يمكن أن ينفع الإنسان في حياته دون الصبر . ولا خير في جسد لا رأس معه ، كما لا خير في إيمان لا صبر معه .

والصبر صبران صبر على من نكره وصبر على من نحب ، فعلل المكروره يعود عن غيه ويرجع إلى رشده . والصبر على من نحب واجب لأن كل إنسان قد يخطئ ، وعلى المؤمن أن يسامح من أخطأ نحوه ويقبل عذرها .

أما الصبر على من نكره له حدود يجب مراعاتها وعدم التهاون بها ، ذلك أن تحمل أذى الغير مرات عديدة ووقتاً طويلاً يعد إهاماً للواجب ، أو جيناً وخوفاً من الظالمين . والظلم في الإسلام مرفوض بكل أشكاله وألوانه وكما قالوا : إنما للصبر حدود فلا يجب تجاوزها كما لا يجب التقاوع عنها . تتصف وصايا الإمام علي بخصوص عدة نوجزها :

أ - النزعة الدينية : لا تصدر عن عقله فحسب ، بل صدرت عن إيمانه الديني ونظرته العامة إلى الحياة والأحياء ، وإلى معنى الإنسان ووجوده على هذه الأرض وفي الحياة للدنيا الزهيدة الفانية .

ب - النزعة الداخلية : الفضائل عند الإمام علي لها بعد نفسي وليس لها وجه مادي وشجاعة المرء لا تتحقق في القوى الجسدية ، بل هي في قوة النفس وعفتها وقدرتها في تجاوز الأخطاء ، كما تمثل أيضاً في الصبر وقوة الاحتفال .

ج - النزعة المثالية : يوصي الإمام علي المرء ليكون قادرًا على النجاح في الواقع بكل ما فيه من مفاسد وأخطاء ، كما يدعوه إلى أن يرتقي إلى مثال الفضيلة والكمال . لقد صور الإنسان الذي يتمثله في ذهنه المتحرر من عبودية نفسه ومن عبودية الآخرين ، والصريح في أقواله وأعماله ، والصابر على تجاوز محنه بارادة وعقل وإيمان .

وصية زياد بن أبيه^(٨١) لعامله

يقول لكل من ولأه من رجاله :

خذ عهدهك ، وسر إلى عملك . واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنك تصير إلى أربع خلال . فاختر لنفسك : إننا ، إن وجدناك أميناً ضعيفاً ، استبدلنا بك أضعفك ، وسلمتك من معربنا^(٨٢) أمانتك . وإن وجدناك قوياً ، خائناً ، استهنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرك ، وثقلنا غرمك . وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين . وإن وجدناك أميناً قوياً ، زدنا في عملك ، ورفعنا ذكرك ، وكثنا مالك ، وأوطأنا عقبك .

الأفكار الرئيسية الواردة في الوصية :

١ - ساس البلاد التي تولاها سياسة صارمة ، وكان قوياً شديداً حازماً جريء القلب فصريح اللسان يقرن قوله بفعله ولا يتهاون البتة في إدارته . استتب الأمن في البلاد التي تولاها استتاباً كاملاً . ورد في تاريخ الطبرى : « فامن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه فیأخذنه » . وقال هو عن نفسه : « لو ضاع حبل بيبي وبين خراسان علمت من أخذه »^(٨٣) .

نلمح في هذه الوصية ملامح القوة والشدة والحزم فاستعمل فعل الأمر في أول الوصية فقال لعامله « خذ عهدهك وسر إلى عملك » فهو يختصر القول ويقتصر في الكلام والوقت فيقول : خذ العهد الذي عهdest به ولا تتأخر في المسير إلى عملك .

وحتى لا بطمع الوالي ، يبلغه من أول الطريق : إنه مصروف رأس سنته ، وهو

(٨١) هو زياد ابن سمية ، وزياد بن أبيه ، ثم زياد بن أبي سفيان بعد أن استلحقه معاوية عام ٦٦٥ هـ ، من دهاء العرب المشهورين ، ومن كبار الإداريين في صدر العهد الأموي . المجلاني الحديثة ص ٣١١ ج ٢ .

(٨٢) المرة : الأذى ، الإسامة . العزم : الشدة .

(٨٣) ولـ فارس في عهد علي بن أبي طالب فقضطها ثم استدرجـه معاوية إلى حزبه ، فالحقـه بـنـسبـه ، وولـه البصرـةـ الكوفـةـ . فـكانـ أـولـ منـ جـعـ لـ المـصرـانـ ، ثـمـ ضـمـ إـلـيـهـ خـراسـانـ وـسـجـسـانـ . وـعـنـهـ قالـ مـعاـويـةـ . أـنـ أـرـىـ يـكـفـيـ فـارـغـةـ فـهـلـ لـيـ بـضمـ وـلـيـةـ أـخـرىـ ؟ !

أمام أربع خلال ، على مفترق طرق أربعة يستطيع أن يختار لنفسه الطريق الذي يريد :

أ - فإن وجد عامله أميناً على مصالح الولاية لكنه ضعيف استبدله بغيره ولم يعاقبه حيث شفعت به أمانته .

ب - وإن وجده قوياً ولكنه خائن الأمانة التي أوكل بها ، استهان بقوته ، لأن قوة السلطة أقوى وأشد تستطيع تأدبيه ، كما تستطيع أن توجع ظهره وتنقم منه شر نعمة .

ج - وإن حاول جمع الناس من حوله ليقوم بانقلاب ضد الدولة ، فهي له بالمرصاد ، وسوف يفشل لا محالة . لأنه مراقب دقيقة والدولة له بالمرصاد .

د - وإن كان أميناً قوياً ، زادت له الدولة في عمله ، ورفعت له ذكره ، وزادت له المال له ولأولاده من بعده . فالمطلوب من العامل الأمانة والقوة .

يعتمد زياد في وصايته أسلوب الترهيب والترغيب أو الوعيد ، فهو قوي مع الأقوياء ، وحازم عندما يلزم الحزم ، ويده طويلة تستطيع أن تناول من العامل منها كان قوياً . لكنه متسامح إلى أبعد الحدود مع العمال الأقوياء الأمانة ، الذين يخدمون الدولة بصدق وأمانة ويقومون بواجبهم على أكمل وجه ، فيسوسون الرعية سياسة عادلة ، ويسلكون طريقاً سليماً واضحاً لا عوج فيه فيما يعود لمصالح الخلافة .

2 - التأكيد على صدق الوعيد

لقد أراد زياد أن يحيط جميع العمال بكل ما يجعلهم يرهبونه ويتذمرون بقوله . ولما خشي أن يكون تهديده ليس إلا وسيلة للإرهاب حسبياً يتوهمنون أعطاهم الجواب مباشرة « إن وجدناك أميناً خائناً ، أو أميناً ضعيفاً ، أو يجمع الناس من حولهم ويترزعنهم ضد الوالي ، أعطاه العلاج المناسب في وقته ، فليعرف كل عامل عما هو إليه قادم ، وليحذر نتائج فعله .

ويبدو هنا في هذه الوصية وفي هذا المقطع ، شديدة التهكم ، يتبع اللاحق منها بالسابق وذلك لأن الكاتب هنا لا يورد أفكاراً حكمية ، بل هو يعالج قضية معينة فيتصدى إلى جميع منافذها ويسدها واحداً واحداً .

المدوه بعد العاصفة :

عرف زياد بحنكته السياسية ، فأدرك أن التعسف والتهديد قد يدفع بالولاية إلى التهادي بالعصيان ، لذلك رأيناه يميل إلى اللين ويتنكب عن الأفكار القاضية ، فبعد أن عرض الأبواب المسدودة والصعبة ، عاد فجعل أمام عماله مخرجاً لهم فقال : « وإن

وَجَدْنَاكَ أَمِينًا قُويًّا ، زَدْنَا فِي عَمْلِكَ ، وَرَفَعْنَا ذَكْرَكَ ، وَكَثْرَنَا مَالِكَ ، وَوَطَّنَا عَقْبَكَ .

فهو يحاول أن يطعمه ويغريه بالمال والجاه لذلك نرى روح الوصية قد تبدلت ، وطبيعة الأفكار مالت إلى الهدوء والإطمئنان ، وأصبحت أكثر تقيداً بالعدل . فهو لا يعمد في عقابه وثوابه على التزاعات الخاصة والميول الشخصية ، بل يأخذ بعين الاعتبار حسن التصرف ، والأخذ بمبادئ العدالة فكل يد بما كسبت رهينة . فمن كان أميناً وقوياً زاد له في ماله ورفعه وقدره ؛ ومن كان ضعيفاً وخائناً أثقل ظهره ونال جزاءه .

بعد الوعيد والتهديد جاء السكون المفاجيء الذي يعقب العاصفة المدوية . وبعد أن كان يتوعد العمال ونراه يعود إلى الوعود الطيب والأمل السعيد ، والخرج الطبيعي الهادئ لكل من أراد السكون والحياة السعيدة المنسجمة مع سياسة الدولة ومصالح الولاية .

وقد درج على هذا الأسلوب في جميع وصاياته ، الشدة ، والحزم ، والعدالة !! قال في وصية عامة :

استوصوا بثلاثة منكم : الشريف ، والعالم ، والشيخ . فوالله ، لا يأتيني شيخ شاب قد استخف به إلا أوجعته .

ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به .

ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه .

فما يريدون منه بعد هذا ؟ هو يقدر الشريف والعالم ، والشيخ وينكل ويتنقم ويوجه الشاب ، والجاهل ، والوضيع الذين يستخفون بهذه الفئة الكريمة والمحترمة في المجتمع .

وبهذا التصرف الذكي ، وبهذه الحنكة البارعة ، وهذه السياسة الحكيمية التي تعتمد الوعيد والوعيد ، والشدة في موضعها ، والعنف عند لزومه استطاع زياد أن يكون الحاكم الناجع القادر الذي حقق سمعة عالية ، وفريدة في عصره .

شعراء صدر الإسلام

حسان بن ثابت⁽¹⁾

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن عدي من بني مالك ابن النجار ، من سادة قومه وأشرافهم ، وبنو النجار أخوال رسول الله ، لأن أم جده عبد المطلب منهم . وبنو النجار من الخزرج وهي القبيلة الكبيرة التي أقامت في المدينة مع الأوس . وأم حسان « الفريعة » بنت خالد بن حبيش خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله ولد حسان ونشأ في يثرب « المدينة » نحو عام 60 هـ ، وكانت المدينة في العصر الجاهلي مجتمعاً صغيراً تسوده الحروب الدامية التي كانت تقوم بين الأوس والخزرج ، وبينهم وبين اليهود الذين كانوا قد استوطنوا المدينة .

وكان جده كريماً محباً للسلم ، لما اختلف الأوس والخزرج بعد يوم سمية⁽²⁾ في أمر القتل والديات ، أهدر المنذر ديات قومه الخزرج واحتمل ديات القتل من الأوس من ماله الخاص حرصاً على المسلم .

نشأ شاعراً يتكتب بالشعر ويتنقل بين بلاط جلق « دمشق » وبلاط الحيرة ، وكان إلى الغساسنة أميل وقد مدح أولاد الحارث الأعرج من آل جفنة الغساسنة وأحفاده من بعده ، واستمر الغساسنة في وصل حسان بالجواز حتى بعد أن دخل في الإسلام وانتهى من مدحهم .

(1) راجع ترجمته في ابن سلام ص 179 والشعر والشعراء ج 1 ص 264 وتاريخ دمشق لابن عساكر ج 4 ص 125 والإصابة ج 2 ص 8 .

(2) بئر قرب المدينة .

بالإضافة إلى كونه شاعر قبيلة المخزرج يرد على قيس بن الخطيم شاعر الأوس . ولما أسلمت القبيلتان وهاجر الرسول المدينة ، ألف بين قلوبهم وجمع شتاهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً . عند ذلك دخل حسان في الإسلام وانقطع إلى الرسول يمدحه ويرد عنه هجاء المشركين من أمثال عبد الله بن الزبيري وعمرو بن العاص وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، غير أنه لم يشهد الغزوات مع الرسول لأنه كان جباناً .

يروى أنه لما اشتد هجاء المشركين للرسول (ص) ندب الأنصار ، فقال حسان : أنا لها ، وأخذ حسان وكعب يعارضان المشركين يمثل قولهم من الواقع والأيام والماضي ، ويغيرانهم بالمثالب . وكان رسول الله يمحث على ذلك ويدعوه به مثل « اللهم أいで بروح القدس » تصدى لهجاء قريش وذكر مثالبها ، فكان قوله « أشد من وقع الحسام في غيش الظلام » ولأجل أن يكون لهجاته مضاداً في نفوس قريش أتى أبي بكر فاعلمه أنساب قريش وجعل يده على عوراتهم . فجعل يتعرض لأعراضهم بعيداً عنها يمس رسول الله .

وهكذا عاش حسان في الإسلام شاعر الرسول والرسالة ، أما في عهد خلافة الراشدين ، وخاصة في عهد أبي بكر وعمر ، لم يلحظ له نشاط سياسي ، ولما كان عهد عثمان عادت له العصبية الجاهلية في بعض الأحيان وأصبح عثمانياً يماليء بني أمية على علي . ولما قتل عثمان أخذ حسان يشير إلى بني هاشم عامة وإلى علي خاصة . قال :

ما كان شأن علي وابن عفانا
ما لست الطير تخبرني
لتسمعن وشيكأ في ديارهم
الله أكبر ، يا ثارات عثمان
وكذلك كان حسان خصماً لعائشة زوج الرسول ، ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان من خاض في حديث الإفك سنة 5 هـ منذ أيام الرسول (ص) ولكنه عاد فاعتذر إلى عائشة بأبيات منها :

حسان رزان ما تزن بربيبة
وتتصبح غرثى من لحوم الغوافل⁽³⁾
فإن كان ما قد قيل عن قلته
فلا رفت سوطى إلى أنمالي

كان حسان من فحول الشعراء ، كثير الشعر جيده ، وهو أشهر أهل المدر⁽⁴⁾ .
غير أنه في الجاهلية أشعر منه في الإسلام . وقد علل الأصمسي هذا السبب فقال :

(3) حسان : عفيفة . رزان : وقوف رصينة . ما تزن بربيبة : لا ينطرك الشك إلى سلوكيها . غرثى : دققة الخصر . لحوم الغوافل : لا تغتاب أحداً .

(4) أهل المدر : أهل المدن وأهل الوير : أهل البدية .

«الشعر نِكَّدْ ، بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف . هذا حسان بن ثابت فحل فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره»⁽⁵⁾ .

وشاعرية حسان كانت مضرب المثل ولا غرو فظروف حياته ساهمت إلى حد كبير في إذكاء شاعريته .

- فقد ورث الشعر من قومه فأبوه شاعر وجده شاعر وآلله من أعرق بيوت العرب في قول الشعر . وابنه عبد الرحمن كان شاعراً وحفيده سعيد عبد الرحمن هو شاعر أيضاً . ولكن كان هو أشعر أهل بيته .

- فخره بقبوته . كان كل شاعر يفتخر بآمجاد عشيرته وهذا بلا ريب سبب وجيه في إثارة الشاعرية وإذكائها .

- الحروب وما نتج عنها من هجاء متبادل ومديح وفخر ، فالمناقضات بينه وبين شاعر الأوس قيس بن الخطيم التي خاضها حسان في الجاهلية كانت سبباً مباشرأً في بirth شاعريته .

التكتسب وطمعه في المال جعلاه يعني يقول الشعر وذلك أن له خصوماً ومنافسين يترقبونه . ولأميته المشهورة في مدح جبلة بن الأبيه آخر ملوك الغسانيين فضلها جبلة على شعر النابغة . ثم جاء الإسلام وأسلم حسان وأخذ يخوض معارك الشعر في الدفاع عن الرسول والرسالة ، بكل ما عنده من ذخيرة شعرية وهذا بلا شك أكسبه منزلة عالية ، وشاعرية خاصة .

حسان يعد من المعمارين ، عاش ما يزيد عن المئة عام وقالوا أدرك العشرين بعد المائة قضى نصف عمره منها في الجاهلية والنصف الثاني في الإسلام . فانقسم شعره : جاهلي - إسلامي . شعر حسان في الجاهلية قوي جزل رائع ، من شعر الفحولة ، بعيد في مذهبة وعموده ، شأنه شأن الشعراء الجاهليين . قال عنه ابن سلام «حسان فحل من فحول الشعراء» .

أغراضه الشعرية

أكثر أغراضه في الجاهلية تتركز في الأبواب التالية :

- الفخر : وصف فيه مجده قومه وما ثارهم الحسنة ومكانتهم الرفيعة بين العرب

(5) الموضع المرzbاني ص 62

وأحسابهم المعروفة ، وكلنا يعلم ما كان للحسب من دور في الجاهلية .

- المدح : أكثر مدحه كان تكسيباً مدح بني غسان بن المنذر وسواهم عن كان يظن فيهم الأيدي السمحاء المعطاء .

- الهجاء : أول شعره الهجائي كان في مناقضة لقيس بن الخصيم ، شاعر الأوس ، ثم هجا خصومه وخصوم قبيلته عامة .

- الغزل : ولا ننسى حسان شاعر الغزل الرقيق الذي ترشح كلماته جرأة وتنضح عاطفة ، وعاطفة المحبين لا تخبو . تغزل بشعثاء وعميرة وبغيرهن من الحبيبات الكثيرات .

شعر حسان في الجاهلية من أجدود شعر أهل المدر وهذا ما أجمع عليه العرب .
وأهل المدر هم : أهل المدينة ، ومكة ، والطائف ، وأهل قرى البحرين من عبد القيس ، وكان أجزل شعره ما قاله في شبيبته وكهولته في الجاهلية .

وأما شعره في الإسلام : فيقول بعض النقاد فيه أنه ضعف ولأن عما كان عليه في الجاهلية ، ويقول البعض الآخر ومن لهم بصر بالشعر أن شعره في الإسلام لا يزال كعهده في زمن الشباب قوياً حصيفاً رصيفاً في مواضع خاصة ، في هجائه للمشركيين بمعارضة شعرهم وفي فخره وحماسته .

كما يرون أيضاً أن كثيراً مما وجد من شعره ضعيفاً ليناً هو شعر موضوع ولم تكن نسبة إليه صحيحة ، وإنما وضعه المتكررون من رواة المغازي والسير . قال الأصمعي : « حسان أحد فحول الشعراء » فرد أبو حاتم : « تأقى له أشعار لينة » فقال الأصمعي : « تنسب له أشياء لا تصح عنه » .

ومن هذا الباب أشعاره المملوقة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون ليظهروا للناس أن شاعر الرسول نفسه كان في صفهم وإلى جانبهم ، وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرتهم حين كان أبو سفيان وغيره من رؤوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ومحاربون ضد الرسالة الإسلامية . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مدح الزبير بن العوام وعبد الله بن العباس⁽⁶⁾ .

وقد علل النقاد عن سبب لدونة شعره الإسلامي فقالوا : إنه يعود إلى انبهاره بما

(6) راجع البيان والتبيين ج 1 ص 330 والديوان ص 74 .

جاء في القرآن الكريم ، وما نطق به الرسول الأمين من خطب ومواعظ وأحاديث ورسائل في مثل هذه الأغراض ومن المسلم به أن يرى نفسه ضعيفاً أمام المعجزات .

ومنها أن كثيراً من شعره الإسلامي قاله ارجحاؤه عند حدوث الواقع الداعية إليه ولم يفعل كما فعل النابغة وغيره من عبيد الشعر وقد روي عن حسان نفسه عندما سئل عن لين شعره قالوا : « لأن شعرك أو هرم في الإسلام يا أبا الحسام ، فأجاب : « إن الإسلام يمحز عن الكذب والشعر يزييه الكذب » ^(٧) .

وعلل الأصممي ظاهرة لين شعر حسان في الإسلام فقال : بأن الشعر نكد يقوى في الشر ويضعف في الخير وهو يرمي إلى الهجاء ونوجز القول إن شعر حسان في مناقضة شعراء المشركين والرد عليهم والدفاع عن الرسول والرسالة كان قوياً جزاً رائعاً وهو كشعره في زمن الشباب حصيناً رصيناً ، وكذلك كان فخره وحماسته لها من القوة كشعره في الجاهلية . ولما استسلم المشركون ودخلوا في الإسلام ، وسكت صوت المعارضة سكتت شاعرية حسان ، وأخذ ينظم شعره هادئاً ليناً لا قوة له ولا فخامة فيه كما كان شعره في الجاهلية .

وأغراض شعره في صدر الإسلام :

- الهجاء : هجا فيه المشركين مدافعاً عن الإسلام وعن النبي (ص) وقد أجاد فيه إجاده واضحة .

- المدح : مدح الرسول (ص) وخلفاءه وكبار الصحابة الذين أبلوا بلاء حسناً في سبيل الدعوة الإسلامية .

- الرثاء : أكثر منه في رثاء الرسول (ص) وشهداء الغزوات الإسلامية .

- وصف الغزوات الإسلامية والإشادة ببطولة المسلمين الشجعان الذين فسحوا بأنفسهم من أجل الدفاع عن الدين الحنيف .

- الحكم : قال الحكمة متاثراً بالقرآن الكريم وأسلوب رسول الله (ص) البلige ، ومن خلال تجاربه في الحياة الطويلة ، معتمداً في ذلك على ضرب الأمثال المعبرة تعبيراً حياً عن واقع الحياة .

(٧) الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام لعبد المنعم خفاجي .

أسلوبه الشعري

- يتصف أسلوب حسان في شعره بميزات خاصة نذكر أهمها :
- التأثر الواضح بالقرآن الكريم والدين الحنيف ، وبالحديث النبوي الشريف وذلك بعد دخوله في الإسلام .
 - كثرة الألفاظ الإسلامية في شعره في فترة دخوله في الإسلام .
 - عدم تجويده وتنقيحه لشعره ، لم يهذب شعره كما كان عليه المصنفين كالنابغة والأعشى والخطيبة وزهير وسواهم من الشعراء الذين سموا « عبيد الشعر » لكثرة عنایتهم وتجويدهم وتنقيحهم لشعرهم .
 - ذلك اللين الفني الذي ظهر في شعره بعد ظهور الإسلام له مظاهره وأسبابه .

ووهكذا كما نرى يختلف شعر حسان وأسلوبه في شعره عن أسلوب معاصريه في الجاهلية والإسلام بقلة مبالغته في تجويده وتنقيحه ، وعدم تكلفه ، بل كان يرسل الشعر ارتجالاً كما تجود به القرية ، فيكون منه الجيد الصافي ، والضعف البادي التقصير . من هنا نعرف سبب قلة اطراد الغريب في شعره ، فنجد لفظاً غريباً بجانب ألفاظ كثيرة سهلة لينة ، ولعل السبب في ذلك تغير البيئة لسكناه المدن ومحادثاته مع أهل الصناعة والتجارة والزراعة . وهذا قال :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري

معانيه الشعرية

كانت معانى شعر حسان في الجاهلية تمثل شعر غيره من ذلك العصر وله معان رائعة قوية في مدح الملوك والأمراء ، وقد أحسن السلوك إلى دورهم ونال الفاضل من عطائهم . كما له وصف في الخمر يعتبر من الشعر الجيد لما فيه من المعانى المبتكرة .

أما شعره في الإسلام فأكثره مستمد من معانى القرآن كالأيات التي نزلت في غزوة بدر وأحد والحنديق ، والرد على المشركين وقد استفاد كثيراً من إرشاد القرآن وضرب الأمثلة في الوعظ والحكمة ، فاقتبس الكثير من ذلك .

والخلاصة أن شعر حسان مظهر من مظاهر تأثير الإسلام والقرآن في الأدب العربي . ويکاد هذا التأثير يفقد عند غيره من الشعراء كالخطيبة مثلاً مع أنه من المخضرمين . وذلك لأن الخطيبة أسلم ثم ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام على طمع ورقة دين ، فلم تتملك روحه بنعم الإسلام كما هي الحال عند حسان .

ولحسان الكثير من المعاني الرائعة التي قلده فيها الشعراء ، وقد استجادها النقاد
واعتبروها من المعاني الجيدة المبتكرة . من ذلك قوله :
يغشون حتى ما تهُرُّ كلامهم لا يسألون عن السواد الم قبل

وقد اقتبس هذا المعنى الشعراء من بعده .

وقال أيضاً في الوصف تظهر فيه الرقة والدقة معاً :

لو يدبُّ الحوليُّ من ولد الذرُّ عليها لاندبثها الكلوم
وهذه المبالغة جيدة إذ جعل الشاعر دبيب النمل على ظاهر الجلد ، فكان من
المقبول أن يحصل هذا التأثير .

أما قول أمرىء القيس في هذا المعنى :

من القاصرات الطرف لو دب فحول من الذر فوق الإتب منها لأشرا
نرى فيه مبالغة شديدة حيث جعل النملة تؤثر في جسدها حين تمر عليه من فوق
القميص .

وهذا المعنى نجده أيضاً في قول أحد شوقي يقول :

خطرات النسيم تجرح خديه وليس الحرير يدمي بناته
ومن الأقوال التي اقتبسها الشعراء عن حسان ، قوله في مدح النبي (ص) :
ما إن مدحت محمدًا بِقالْتِي

وهو كما لا يخفى معنى رائع بأسلوب رفيع .

أخذ المعنى أبو تمام فصاغه بالفاظ جديدة وقال :

ولم أمدحك تفخيمًا لشعري ولكنني مدحت بك المديحة

ولقد أخذ المعنى نفسه أبو الطيب المتنبي فقال :

الطيب أنت إذا أصابك طيبة والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل
يبدو واضحاً أن حساناً قد سبق كل الشعراء إلى هذا المعنى ولم يأت بعده من زاد
فيه ، وقد حاز الفضيلة لأنه قد تيسر له من غير تكلف ذلك المعنى البديعي المسمى
بالعكس فأبو تمام لم يوفق إلى المعنى تماماً إذ جعل كلمة المديح بدل الشعر .

أما المتنبي ففي بيته هذا خلل في النظم لا يفهم منه المعنى إلا بكد الذهن والحقيقة
أن حسان بن ثابت شاعر محقق في كل جوانب الشعر عظيم في شاعريته ، وعظيم في
موقفه النبيل في الدفاع عن الإسلام وعن رسول الإسلام .

كان حسان شاعر الخزرج والمدينة في الجاهلية ، وكان يمدح المنادرة والغساسنة ولكنه كان إلى هؤلاء أميل . حظي بجوائزهم وصلاتهم وغير مدحه كانت في آل جفنة من ملوك غسان . وفدي على عمرو بن الحارث من ملوك غسان ، فوجد عنده النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة ، فقال له عمرو : إني باعث إليك بصلة سنية ، ولا أحتاج إلى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السبعين أن يفضحاك ، فقال حسان : لا بد من القول ، واستأذن في الإنشاد الشاعرين وأنشد :

المقدمة التقليدية - دار الأحباب

بين الجوابي فالبضيع فحومن^(١)
فديار سلمى ذرساً لم تخل^(٢)
والدجنات من السماك الأعزل^(٣)
فوق الأعزّة عزّهم لم ينقل^(٤)

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
فالمرج مرج الصفررين فجاسم
دمْنْ تعاقبها الرياح دوارس
دار القوم قد أراهم مرة

مدح آل غسان :

لله در عصابة نادمتهن
يشون في الخلل المضاعف نسجها
الضاربون الكبش يبرق بيضه
والخالطون فقيرهم وغنيهم
ولاد جفنة حول قبر أبيهم

(١) الجوابي والبضيع وحومن السمه أماكن .

(٢) مرج الصفررين وجاسم : موضعان بالشام . درساً : جمع دراسة وهي البالية .

(٣) الدمن : رسم الدار . المدجنات : السحب الكثيرة الأمطار والسماك : أحد السماكين في السماء . سماك أعزل ، وسماك رامع وهو نجمان نيران معطران .

(٤) لم ينقل : لم ينزل ولم يتحول .

(٥ و ٦) الله در : الله عملتهم وأصل الدر : النفس . نادمتهن : جالستهم على الشراب وجلق دعشق . والخلل الدروع . البزل : جمع بازل وهو ما برزت نابه من الإبل .

(٧) الكبش سيد القوم وقائدتهم . البيضة : الحوفة تلبس على الرأس .

(٨) المرمل : الذي في زاده والتتص بالرمل .

(٩) جفنة : أبو الملوك من بني غسان . مارية : هي بنت الأرق أم الحارث الأعرج من ملوك غسان يمدحهم بالشجاعة والكرم .

برَدَى يصفق بالرحيق السلسل^(١٠)
لا يسألون عن السواد الم قبل^(١١)
شم الأنوف من الطراز الأول

ثم أدركت كأنني لم أفعل^(١٢)
في قصر دومة أو سواه الهيكل^(١٣)

صهباء صافية كطعم الفلفل^(١٤)
فيعلني منها ، ولو لم أنهل^(١٥)
قتلت - قلت - فهاتما لم تقتل^(١٦)
بزجاجة أرخاهم للمفصل^(١٧)
رقص القلوص براكب مستعجل^(١٨)

يسقون من ورد البريص عليهم
يغشون حق ما تهر كلابهم
بيض الوجوه كرية أحسابهم

مشيب ... وقوة
فلبشت أزماناً طويلاً فيهم
ولقد يرانى موعدى كأنني

وصف الخمر
ولقد شربت الخمر في حانوتها
يسعى على بكأسها متنطف
إن التي ناولتني فرددتها
كلثاها جلب العصير ، فعاطني
بزجاجة رقصت بما في قعرها

فخر واعتزاز
نسي أصيل في الكرام ومذودي
ولقد تقلدنا العشيرة أمرها
ويسود سيدنا حاجاجح سادة

(١٠) البريص : موضع بدمشق ، ويردى : نهر دمشق . يصفق بالرحيق : ينقله من إماء إلى إماء ليصفر .
الرحيق : الخمر . حول قبر أبيهم : كتابة عن الاستقرار .

(١١) يغشون : يأتيم الضيوف بكثرة . تهر : تنبع . السواد الم قبل : موائلهم تكفي الضيوف منها كان عددهم .

(١٢) طويلاً : صفة لمعنى مطلق أي لبست لبناً طويلاً . أدركت : امتنعت عن اللهو النغام : بت بيض ورقه إذا يبس .

(١٣) أوعده : أنثره بالشر . قصر دومة : حصن . والهيكل : بيت لعبادة النصارى .

(١٤) الحانوت : دكان الخمار . صهباء : بيضاء اللون لا يخادها من عنب أبيض .

(١٥) المتنطف : لابس القرط ، وأعله : سقاة ثانية ولو لم يكن ظماناً .

(١٦) قتل الشراب : مزجه بالماء . وقتلت : يدعى عليها بالقتل .

(١٧) كلثاها : الصرف والمزوجة . عاطني : مقاعله من الإعطاء .

(١٨) رقصت الكأس بما في قعرها : صعدت الفقاقيع من أسفل إلى أعلى . القلوص : الناقة .

(١٩) المذود : اللسان . مواسم جمع بيس وهو آلة يكتب بها . المصطي : المتبق .

(٢٠ و ٢١) الناثبات : الشدائ . والحجاج : مسارع في المكارم . سواه : وسط .

ونحاول الأمر المهم خطابة
وتسور أبواب الملوك ركابنا
⁽²²⁾
فيهم ونفصل كل أمر معضل
ومتن حكم في البرية نعدل ⁽²³⁾

أسلوب القصيدة :

إذا تأملنا أسلوب القصيدة الفيناء جزل اللفظ رصين العبارة ، قوي التركيب ،
يُجْنِحُ إِلَى الإِبْيَازِ وَيَقُلُّ فِيهِ الْمَجَازُ ، وَقَدْ يَأْتِي فِيهِ بِاسْتِعَارَةٍ رائِعَةٍ ، وَإِشَارَةٌ بِدِيعَةٍ ، وَكَنَايَةٍ
دَقِيقَةٍ . وَهَذِهِ بَعْضُ الْأَمْثَالِ : « شَمُ الْأَنْوَافِ » كَنَايَةٌ عَنْ سِيَادَتِهِمْ وَعِلْمِ مَكَانِهِمْ .

« أَوْلَادُ جَفَنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ » كَنَايَةٌ عَنْ اسْتِقْرَارِهِمْ فَلَا يَرْحُونَ إِلَى أُمَكَّنَةٍ أُخْرَى
لِلتَّفْتِيشِ كَغْيِرِهِمْ عَنْ الْمَاءِ وَالْكَلَّا .

« وَمَذْوَدِي تَكُوِي مَوَاسِمَهُ جَنُوبُ الْمَصْطَلِ » اسْتِعَارَةٌ رائِعَةٌ تَجْعَلُ مِنْ لِسَانِهِ أَحْيَانًا
مَادَةٌ لَاذِعَةٌ وَكَانَهَا مَكْوَاهٌ تَكُوِي مِنْ تَصْبِيهِ .

ملامح البيئة :

عاش حسان ما يقارب المائة والعشرين عاماً قضى منها ستين عاماً في الجاهلية ،
ويبقي حياته في الإسلام ، فهو كما عرف عنه شاعر مخضرم . قال الشعر في الجاهلية بكل
ما شاء له اللسان ، وكل ما يرضي لنفسه العنوان ، على هوا ينشد ما يروق له من
الألحان ، فكان شعره في الجاهلية أقوى منه في الإسلام ، والقصيدة هذه تعدد من درر
قصائده استهلها بذكر الديار على الطريقة التقليدية ، ثم ذكر الدروع والمطاييا والخمر
ومستلزماتها ، والأحساب والأنساب والاصطلاع بالنار على عادة الشعراء الجاهليين .

افتخر حسان بالسيادة والقوية والجاه والوفادة على الملوك والأقبائل من العظماء وهذا
منهج جاهلي جرى عليه الجاهليون .

في القصيدة جنوح إلى الإيحاز وزهد في ألوان الخيال والمجاز ، وألفاظ تتردد بين
الوضوح والغرابة . وهذا الأسلوب غير المنسجم مع نفسه المتقلقل هو أسلوب جاهلي
أيضاً .

المختار من شعره في الإسلام

يوم فتح مكة المكرمة سنة 8 هـ قال حسان في ذلك اليوم العظيم مدح
الرسول (ص) ويهجو أبا سفيان بن الحارث :

(22) المهم : المشكل .

(23) الركاب : الإبل ، البرية : الخلق .

إلٰى عذراءٍ منزهاً خلةً
 فهُنَّ لطِيبُ الراحِ الفداء
 إِذَا مَا كَانَ مَفْتُ أو لَحَاءٌ^(١)
 وَأَسْدَأْ مَا يَنْهَا اللَّقَاءُ^(٢)
 تَشِيرُ النَّقْعُ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ^(٣)
 عَلٰى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الظَّاءُ^(٤)
 تَلْطِمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ^(٥)
 وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ^(٦)
 يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مِنْ يَشَاءُ
 مَغْلُقَةٌ فَقَدْ بَرَحَ الْخَفَاءُ
 وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتْهَا الْإِمَاءُ^(٧)
 وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ^(٨)
 فَشَرَكَاهَا لَخِيرَهُنَّ الْفَداءُ !
 أَمِينُ اللَّهِ شَيْمَتْهُ الْوَفَاءُ^(٩)
 وَيَدْحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ ?
 لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَفَاءُ !

غَفَتْ ذَاتُ الْأَصْبَاعِ فَالْجَهَوَاءُ
 إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتِ ذَكَرَتْ يَوْمًا
 نَوْلِيهَا الْمَلَامَةُ مَا أَلْنَا
 وَنَشَرَهَا فَنَرَكَنَا مَلْوَأً
 عَدْمَنَا خَيْلَانَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
 بِنَازْعَنَ الْأَعْنَةِ مَصِيغَاتِ
 نَظَلُّ جِيَادَنَا مَنْمَطَرَاتِ
 فَإِمَّا تُغَرِّضُوا عَنِ اعْتِمَارِنَا
 وَلَا فَاصْبَرُوا الْجَلَادِ يَوْمًا
 لَا أَبْلَغُ أَبَا سَفِيَّانَ غَنِيَّ
 بِأَيِّ سَبِّوْفَنَا تَرَكَتْ عَبْدًا
 هَجَوَتْ حَمْدًا وَاجْبَتْ عَنْهُ
 أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفَهِ ؟
 هَجَوَتْ مَبَارِكًا تَبَرًا حَنِيفًا
 أَمْنَ يَهْجُو رَسُولُ اللَّهِ مِنْكُمْ
 فَلَانَ أَبِي وَوَالَّدِهِ وَعِزْرُضِي

وفي عام 9 هـ وقد بنو تميم على الرسول في المدينة بعد فتح مكة ، وكانوا قبيلة كبيرة يعتدون بأنفسهم وعددهم ووجاهتهم في العرب . فلما دخلوا على الرسول قالوا : « يا محمد جئنا نفاخرك ، فاذن لشاعرنا وخطيبنا » قال (ص) : « قد أذنت لخطيبكم » فقام عطارد بن حاجب فخطب مفتخرًا بتيميم فرد عليه من المسلمين ثابت بن قيس . ثم قام

(١) المفت : القتال والشر . اللحاء : السباب . قلنا الذنب في ذلك الخمر .

(٢) منه : كف ، منع . اللقاء : القتال .

(٣) موعدها كداء : فتح مكة (داء : ثنية ، طريق ملتوية في الجبل عند مكة) .

(٤) ينazu عن الأعنة : يمجذبن الأعنة من أيدي فرسانها . الأسل : الرماح . الظما : العطاش .

(٥) تغطرت الخيل : جامت مسرعة . تلطمهن : تضرب النساء وجوه الخيل بخمرهن لبرددهما .

(٦) إن خليتم سبيلاً دخلنا مكة معتمرين . انكشف الغطاء : ثم وعد الله بالغيب .

(٧) مغلغلة : رسالة .

(٨) عبد الدار بطن من قريش ، لعله يشير إلى معركة أحد حيث حل اللواء لهم عبد أسود .

(٩) البر : الذي يبغى الخير لقومه . الحنيف : الذي لم يعبد الآوثان في الجاهلية .

الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم فأنشد قصيدة مطلعها :
 نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفيينا تنصب البيع⁽¹⁰⁾
 فلما فرغ من إنشاده قال رسول الله (ص) لحسان « قم ، فأجب الرجل ، فقال
 حسان :

قد بيّنوا سُنَّة للناس تتبع⁽¹¹⁾
 تقوى الإله وكل الخير يصطنع⁽¹²⁾
 أو حاولوا الفرع في أشياعهم نفعوا
 أن الخلائق ، فاعلم ، شرها البدع⁽¹³⁾
 فكل سبق لأدنى سبقهم تبع⁽¹⁴⁾
 عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا⁽¹⁵⁾
 أو وازنوا أهل مجده بالندى متعوا⁽¹⁶⁾
 لا يطعون ولا يرديهم طمع⁽¹⁷⁾
 وإن أصيروا فلاح خور ولا جزع⁽¹⁸⁾
 إذا تفاوتت الأهواء والشيوخ

: أشهراها :

من الله مشهود يلوح ويشهد⁽¹⁹⁾
 إذا قال في الخمس المؤذن : أشهد⁽²⁰⁾
 فذو العرش محمود وهذا محمد
 من الرسل والأوثان في الأرض تعبد

إن الذوابب من فهْرٍ وأخواتهم
 يرضي بهم كل من كانت سريرته
 قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
 سجية تلك فيهم غير محدثة
 إن كان في الناس سباقون بعدهم
 لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم
 إن سابقوا الناس يوماً فاز سباقهم
 أَعْفَهُ ذكرت في الوحي عفتهم
 لا يفخرون إذا نالوا عدوهم
 أكرم بقوم رسول الله شيعتهم

ولحسان بن ثابت بضم مدائلع في الرسول (ص) أشهراها :
 أغراه عليه لنبوة خاتم
 وضم الإله اسم النبي إلى اسمه
 وشق له من اسمه ليجله
 نبي أثانا بعد يأس وفترة

(10) البيع : أماكن العبادة .

(11) الذوابب : الشعر المتبدلي من الرأس . المقصود الرؤساء ، فهو : فريش المهاجرين ، إخواتهم : الانصار ، أهل المدينة . قد بيّنوا سُنَّة : جاؤوا بطريقة ، بدین ، أي الإسلام .

(12) السريرة : النفس . داخل الإنسان .

(13) السجية : الطبيعة . غير محدثة : قديمة . البدع : الأمر الجديد المخالف لعادات القوم .

(14) لا يرفع الناس ... : لا يصلح الناس ما مزقوه . إذا هزموا أحداً لا يستطيع أحد نصره .

(15) متعوا : ارتفعوا حتى بلغوا الغاية .

(16) طبع : بكسر الباء : فسد . أرداه : أهلكه .

(17) الخور : الضعف . الجزع : الإضطراب عند المصيبة .

(18) أغرا : أيض الوجه .

(19) الخميس : الصلوات الخمس .

يلوح كما لاح الصفيف المهد^(٢٠)
وعلمنا الإسلام ، فالله نحمد
بذلك ما عمرت في الناس أشهد
سواءك ، إماً أنت أعلم وأمجد
فإياك نستهدي وإياك نعبد

فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً
وأنذرنا ناراً وبشر جنة
وأنت إله الخلق ربِّي وخالقِي
تعاليت رب الناس عن قول من دعا
لنك الخلق والنعماء والأمر كله

وله أيضاً بعض مرات اخترنا منها هذه القصيدة :

منير ، وقد تعفو الرسوم وتهمد⁽²¹⁾
بها منبر الاهادي الذي كان يصعد⁽²²⁾
وربع له فيه مصلٌّ ومسجد
من الله نور يستضاء ويوقظ
لما مُحصيَّاً نفسي ، فنفسِي تبلد
فضلت للاء الرسول تعمَّد
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدود
رذبة يوم مات فيه محمد
وقد كان ذا نور يغور وينجد
حربيص على أن يستقيموا ويهدوا
ولا مثله حتى القيامة يُفقد
على أكرم الخيرات - رب مجد
فلا العلم محبوس ولا الرأي يُفنَّد⁽²³⁾

بطيبة رسم للنبي ومعهد
ولا تخفي الآيات من دار حرمية
وواضح آيات وباقٍ معلم
بها حجرات كان ينزل وسطها
يُذكرون آلاء الرسول ، وما أرى
مفعمة قد شفّها فقد احمد
فيوركت يا قبر الرسول ، وبوركت
وهل عذلت يوم أرزية هالك
تقطع فيه منزل الوحي عنهم
عزيز عليه أن يحوروا عن المهدى
وما فقد الماخون مثل محمد
رباه وليدا - فاستتم نامه
تناثرت وصاة المسلمين بكفه

وعلى هذا النحو اتشع شعر حسان الإسلامي بأنوار الدين الحنيف وهديه الكريم . وقد وقف مدحه على رسول الله ، رسول الإسلام والسلام ، وقصر هجاءه على المشركين الذين كانوا يتعرضون للرسول وللرسالة بهجائهم⁽²⁴⁾ .

(٢٠) سراجاً منيراً : من الآية ٤٦ سورة الأحزاب . المهند : السيف مصنوع من حديد الهند .

(21) طيبة : المدينة . المعهد : المكان يتردد عليه الناس . تهدى : تسكن .

(22) المادي : الرسول . كان يصعد إليه ويختبئ منه .

⁽²³⁾ يفتد : يفتاد ، يضعف .

(24) كان يوضع منبر في مؤخر المسجد فباتجاه عن رسول الله ، يرد على الذين كانوا يجهونه راجع الكامل ص 778

ولقد اكتسب شعر حسان في الإسلام كثيراً من العذوبة والأخلاق وكثُر فيه التعبير الإسلامية لأنَّه كان يتخذ القرآن الكريم منه العذب العزيز . قال الدكتور عمر فروخ :

« وحسان خلائق أن يسمى رأس البدعرين ، فهو الذي بدأ في الشعر في المديح النبوي » .

النابغة الجعدي (- 65 هـ)

هو عبد الله^(١) بن قيس بن عبد الله من جعدة بن كعب بن ربيعة أحد بنى عامر بن صعصعة . ولد بالفلج جنوبي نجد . قيل إنَّ أمه كانت من أهل مجر اسمها حَصْفة . روِيَ أنه ظلَّ ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق بالشعر ثم عاد فتفجر على لسانه في الإسلام ونبغ في قوله نبوغاً كبيراً . ولقبه كان « أبو ليل » .

والنابغة الجعدي أقدم من النابغة الذبياني أدرك النعمان ابن المنذر بينما النابغة الجعدي أدرك المنذر بن محرك والد النعمان . وما تميز به عن غيره من شعراء عصره أنه كان من الذين أنكروا الخمر في الجاهلية وهجروا الأسلام وعبادة الأوثان . ولكنه مثل ليد تغنى بمجاورة قومه وانتصاراتهم في حروبهم وهجا خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخاه في بعض حروبهم مع قبيلته . وقد حزن عليه وبكاه كثيراً . ومن رثائه له قصيدة التي يؤنِّبه فيها بقوله :

فَتَ كَمْلَتْ أَخْلَاقَهْ غَيْرَ أَنْهْ جَوَادَ فَمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
فَتَ كَمْلَتْ أَخْلَاقَهْ غَيْرَ أَنْهْ عَلَى أَنْ فَيْهَ مَا يَسُوءَ الْأَعْدَادِ
أَسْلَمَ النَّابِغَةَ الْجَعْدِيَّ وَوَفَدَ فِي قَوْمِهِ لَا أَخْذَتْ وَفَوْدَ الْعَرَبِ تَفَدَّ عَلَى
الرَّسُولِ (ص) مَعْلَمَةً إِسْلَامَهَا ، وَكَانَ سِيداً فِيهِمْ وَأَنْشَدَ الرَّسُولَ قَصِيدَةً سَنَةَ ٩ هـ
فَأَعْجَبَ بِهِ الرَّسُولُ (ص) . يَقُولُ فِيهَا :
بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجَدْوَنَا إِنَّ النَّبِيَّ فَوْقَ ذَلِكَ مَظَهِّرًا
فَقَالَ لِهِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ : فَأَنِّي الْمَظْهَرُ يَا أَبا لَيْلٍ ؟ فَأَجَابَهُ : الْجَنَّةُ . فَقَالَ لَهُ
الرَّسُولُ : « لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَوْكَ »^(٢) .

(١) الفلج ماء في جنوب نجد انظر ترجمته في الشعر والشعراء ص 103 وأسد الغابة ج 5 ص 2 وأعمال المرتضى ج 1 ص 263 .

(٢) الشعر والشعراء ج 1 ص 252 والأغاني ج 5 ص 8 .

ولم يرجع مع قومه بل سكن في المدينة مهاجراً زمناً طويلاً ، ثم عنت على باله الbadia ونمازعته نفسه إليها ، وكان ذلك في عهد عثمان ، فاستأذنه في ذلك وخرج إلى بلده⁽³⁾ .

ولما كانت الفتوح خرج العرب ميمماً نحو المشرق والفرس مجاهداً في سبيل الله . ثم شهد معركة صفين مع علي بن أبي طالب ، وكان في ذلك الحين يسكن الكوفة ، وقد انخرط في صفوف علي وارتजز الأشعار في مدحه وهجاء معاوية . قال :

قد علم الم Cran وال عراق
إن الـ جـارـوـكـ لاـ أـفـاقـواـ
همـ سـيـاقـ ولـكمـ سـيـاقـ
قد عـلـمـتـ ذـكـرـ الرـفـاقـ
سـقـنـمـ إـلـىـ نـهـجـ الـمـدـىـ وـسـاقـواـ
إـلـىـ الـقـيـ لـيـسـ لـهـ عـرـاقـ
فيـ مـلـةـ عـادـتـهاـ النـفـاقـ⁽⁴⁾
كـانـتـ وـفـاتـهـ فـيـ أـصـفـهـانـ سـنـةـ 65ـ هـ فـيـ أـوـاـخـرـ خـلـافـةـ مـرـوـانـ بـنـ الـحـكـمـ أـوـفـيـ مـطـلـعـ
خـلـافـةـ عـبـدـ الـمـلـكـ بـنـ مـرـوـانـ . وـقـدـ كـفـ بـصـرـهـ وـزـادـتـ سـنـهـ عـلـىـ الـمـائـةـ .

النابعة الجعدي من الشعراء المخضرمين ، مطبوع فصيح بلغ يجري في شعره على السلية ولا يتكلف صنعة . إلا أن شعره شديد التفاوت منه الجيد الرائع ومنه الرديء الساقط .

وابواب الشعر التي خاض فيها هي : الوصف ، والمدح ، والهجاء ، وكان من أوصاف الناس للفرس⁽⁵⁾ ، ثم الحكمة . ومن العجب أنه كان مغلباً في الهجاء . لم يتعرض لشاعر بالهجاء إلا غلبه ذلك الشاعر . في الجاهلية غطى عليه النابعة الذبياني . ثم هاجى ليل الأخيلية زوج سوار بن أوق القشيري فغلبها عليه جميعاً ، وهاجى أوس بن مغراة فغلبها أوس ، وتعرض في آخر أيامه لكتعب بن جعيل وللأخطل فغلباه . وربما كان ذلك لتعمق الإسلام في نفسه إذ كان يتحرج من المضي في الهجاء المقدع . وهو دائم الحديث عن نعم الله عز وجل وتحوله من ظلمات الجاهلية إلى أضواء الدين الخينيف يقول⁽⁶⁾ :

(3) راجع طبقات الشعراء ص 159 .

(4) المصران : الكوفة والبصرة . العنف : الكريم .

(5) التي ليس لها عراق : التي لا تعرف لها غاية .

(6) طبقات الشعراء 159 أي سنة 684 م وفي الأعلام للزرکل 50 هـ - 670 م .

(7) راجع طبقات الشعراء 26 والشعر والشعراء 159 والبيان والنبيان ج 1 ص 206 .

(8) أمالي المرتفق ج 1 ص 266 والديوان ص 137 .

وَقَوْارِعٌ تَنْتَلُ مِنَ الْقُرْآنِ
مِنْ سَبَبٍ لَا حَرِمٍ وَلَا مَنَانٍ⁽⁹⁾

عُمِّرْتُ حَتَّى جَاءَ أَهْدِي بِالْمَهْدِي
وَلَبِسْتُ مِنِ الْإِسْلَامِ ثُوبًا وَاسِعًا

قال في قصيده التي وفدها إلى الرسول :

وَيَتْلُوكْتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرًا⁽¹⁰⁾
وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظَاهِرًا
بِوَادِرٍ تَحْمِي صَفَوْهُ أَنْ يَكْدِرَا
حَلِيمٌ إِذَا مَا أُورِدَ الْأَمْرَ أَصْدِرَا
سَهْبِلًا إِذَا مَا لَاحَ ثَمَّتْ غُورًا⁽¹¹⁾
وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمُخْوَفَةِ أُوجِرَا⁽¹²⁾

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْمَهْدِي
بِلَغْنَا السَّهَاءَ بِجَدْنَا وَجَدْوَنَا
وَلَا خَيْرٌ فِي جَلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ
وَلَا خَيْرٌ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أَحْسَنْ وَمَنْ مَعِي
أَقِيمْ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضِي بِفَعْلِهَا

والنابعة الجعدي جاهد في سبيل الله وكان يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار وله
عدا الأبيات المفردة مواعظ بلية فيها المعاني الدينية الواردة في القرآن الكريم . قال :

مِنْ لَمْ يَقْلِهَا فَنَفَسَهُ ظَلِيَّا
لِـ نَهَارًا يَفْرُجُ الظُّلَمَيَا
الْأَرْضَ وَلَمْ يَبْنِ نَحْنَهُمَا دِعَمَا⁽¹³⁾
يَخْلُقُ مِنْهُمَا الْأَبْشَارَ وَالنَّسَاءَ
ثَمَّتْ لَهُمَا وَكَسَاهُ وَالْتَّامَ
شَارًا وَجَلَدًا تَخَالَهُ أَدَمَا⁽¹⁴⁾
أَخْلَاقَ شَتِّي وَفَرَقَ الْكَلِمَا
وَاللَّهُ، جَهْرًا، شَهَادَةَ فَسَاءَ
وَاعْتَصَمُوا إِنْ وَجَدْتُمْ عَصَمَا
عَصَمَةَ مِنْهُ إِلَّا لَنْ رَهَما
فَارَسَ بَادَتْ وَخَدُّهَا رَغَمَا⁽¹⁵⁾

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ
الْمَوْلَجُ الْلَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَفِي الظَّلَمَيَا
الْخَافِضُ الرَّافِعُ السَّهَاءَ عَلَى
مِنْ نَطْفَةٍ قَدْهَا مَقْدُرَهَا
ثُمَّ عَظَامًا أَقَامَهَا عَصَبَ
ثُمَّ كَسَ الرَّاسَ وَالْعَوَاتِقَ أَبَدَ
وَالصُّوتُ وَاللَّوْنُ وَالْمَعَايِشُ وَالْ
ثَمَّتْ لَا بَدَأْنَ سِيَجْمِعُكُمْ
فَإِذَا تَمْرَوْا إِلَآنَ مَا بَدَأْكُمْ
فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَالسَّهَاءَ، وَلَا
يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَرَوْنَ إِلَى

(9) سبب : عطاء . حرم : مناع .

(10) المجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة يتشر ضوءها وكأنها بقعة بيضاء .

(11) غور النجم : أفل وغاب .

(12) أوجز : خائف .

(13) الدعم : الدعائم .

(14) العواتق جمع عاتق وهو المنكب .

(15) خدها رغماً : لصق بالزاب كناية عن الذل .

كما كان ملتهم حما
يبنون من دون سبله العرما^(١٦)
هون وذاقوا البأساء والععدما^(١٧)
خط وأضحي البنيان منهدا^(١٨)

وله بضعة أبيات قالها في رثاء ابن له اسمه محارب ، ويدرك أخاً له ، أخاً للنابغة

رسمه وَحْوَهُ ، يَقُولُ مُخاطِبًا زَوْجَهُ :

فَالْكَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، خَيْرٌ وَلَا لِمَا
وَكَانَ أَبْنَ أُمِّي وَالْخَلِيلُ الْمَصَافِيَا
جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
عَلَىٰ أَنْ فِيهِ مَا يُسْوِهُ الْأَعْدَادِيَا

ألم تعلمي أني رثت محارباً
ومن قبله ما قد رثت بوضوح
فتقى كملت خيراته ، غير أنه
فتقى تم فبـه ما يُسر صديقه

من خلال قصائده الدينية يتبيّن لنا إيمان النابغة الجعدي بوحدانية الله حيث يستعيّر الفاظه من الذكر الحكيم ، استهل قصيده الميمية بالحمد لله . ويستلهم أكثر معانيه من آيات القرآن الكريم ، من مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يُظْلِمُونَ﴾ وقوله تعالى : ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مالِكُ الْمُلْكِ . . . بِسْدِكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تَوْلِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارَ وَتَوْلِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ . . .﴾ وقوله تعالى : ﴿الَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَطْفَةً فِي قَرَارِ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلْقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عَظَامًا فَكَسَوْنَا الْعَظَامَ لِحَمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ . ويستمر إلى آخر القصيدة مستلهماً من آيات الذكر الحكيم .

ثم ختم قصيده بآية كريمة من سبأ من قوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسْبَاً فِي مُسْكَنِهِمْ آيَةً جَتَانٌ عَنْ يَمِينِ وَشَمَائِلِ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ..
فَاعرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سِيلَ الْعَرِيمِ وَبَدَلْنَا هُمْ بِجَهَنَّمِهِمْ جَهَنَّمْ ذَوَاتِ أَكْلِ خَطِّ وَأَنْلِ
وَشَيْءٍ مِّنْ سَدَرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزِيَّنَا هُمْ بِاَنَّهُمْ كَفَرُوا .. وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا هُمْ أَحَادِيثٍ

(١٦) سباً : مجرورة معطوفة على فارس . و سباً دولة اليمن . الحاضرين مأرب : الساكدين في مدينة مأرب يبنون سداً ليدفوا السيل الشديد .

(١٧) اعنة فوا العون : عرفوه

⁽¹⁸⁾ السر والارك : شجر لا ينفع شهراً . الخطط : ثمرة وهو مد الطعم .

ومزقناهم كل عزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿١٩﴾ .

نراه قد نظم الآيات الكريمة في الآيات الأخيرة من القصيدة ولا غرابة في الأمر فهو من نجد وأهل نجد والبواطي كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تعمق في صدورهم وعبروا عنه في أشعارهم وتالقت أصواتهم في عيونهم فكرهوا الدنيا وزهدوا في نعيمها الفاني الذي يتلهى به طلابها البسطاء ، وحثوا الناس على التزود بالتفوي والعمل الصالح الذي يقدر ما يستزيد منه الإنسان بقدر ما يكسب أكثر من رضي الله عزّ وجلّ .

قال تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى » ^(٢٠) .

الخطيئة (؟ - ٦٧٨ م)

هو جرول بن أوس بن مالك بن خزوم . . . من بني عبس . وقد كان مغمور النسب ، عاش متشرداً بين القبائل لا يثبت على مبدأ ، يميل مع من يرى فيه المنفعة ، فيمدح من يكثر له العطاء ، أو من يخاف من الفتاح به ، ويهجو من لا يحظى عنده ولا ينيله ما يرغب فيه . وقد أكثر من الهجاء حتى أصبح لهذا الضرب من الشعر ملحة خاصة فيه لم يلبث أن استعملها أداة للتكمب والمعاش . وتوصل به الأمر إلى هجاء أمه وزوجها معها ، بل لم يتراجع من هجاء نفسه .

يروى أنه أسلم في عهد النبي على الأرجح ، إلا أن إسلامه لم يغير شيئاً من أخلاقه وتردداته في المبادئ . وسرعان ما ارتد وعزز الردة بالقول والفعل . وهو يعد من المعمرين عاش طويلاً في الإسلام ، كما عمر أيضاً في الجاهلية . وليس له من المأني إلا تعلقه بكتاب القوم مدحاً وهجاء ، واحتياطه على الكسب دون تمييز دقيق بين الحلال والحرام . ولل جانب هذا كان بخيلاً عقوفاً يعيش عيشة غير كريمة .

وهو يعد من عبيد الشعر ، سار فيه على أسلوب زهير بن أبي سلمى وابنه كعب في التقىع والغربلة والتنخل وحسن التأليف . ولكن تميز برقة وعدوية تجلتا في الاستعطاف والشكوى ، وكان ولوغاً بالعبث والظرف رافقاً حتى متهى حياته ، كما كان قادراً على استعمال التهكم الدقيق البعيد الأثر . وصفه ابن سلام فقال إنه : « متين الشعر ، شرود القافية . . . » .

(١٩) سبا الآية ١٥ - ١٩ .

(٢٠) الأعلى الآية ١٦ - ١٧ .

اهتم الأدباء بشعر الخطبوة اهتماماً كبيراً فجمعواه وأبعدوا ما كان قد دس فيه من الشعر المنحول ، وضعه الرواة ، ولا سيما حاد الراوية فكان أبو حاتم السجستاني يشدد في قبول ذلك ، ويرفض كل ما يشك بصحته . وقد طبع ديوانه لأول مرة في الأستانة عام 1890 م أخذته ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني ، ثم شرحة أبو الحسن السكري . وفي سنة 1893 قام المستشرق غولد سيبير (Goldaiher) فنشر الديوان نشرة علمية مع شرح السكري مضيفاً إليه حواشى مفيدة ، وملحقاً به ما ينسب إلى الخطبوة من شعر لم يرد في الديوان .

وفي سنة 1905 م ظهرت له طبعة مصرية اعتنى بإخراجها أحمد بن الأمين الشنجيطي مع شرح السكري⁽²¹⁾ .

مقططفات من شعره

قصيدة مدح وهجاء : مدح بغيس وهجاء الزبرقان

الزبرقان صحابي معروف ، كان الخطبوة في جواره فاكرمه وأجرى عليه رزقاً وفيراً . وبنو أنف الناقة من أقرباء الزبرقان ومنافسيه في الشرف في قبيلته ، عملوا على استدراجه الخطبوة إلى جوارهم فنجحوا في ذلك ، فأخذ الشاعر المتذبذب في مواقفه يمدحهم ويهجو الزبرقان⁽²²⁾ الذي له عليه يد بيضاء أرسلوا إليه أربعة من رجالهم هم : شهاس بن لاي ، وعلقمة بن هودة ، وبغيس بن شهاس ، والمخبل الشاعر فأقنعواه وحولوه عن موقفه . ومن أقواله في ذلك ، هذه القصيدة التي شakah بها الزبرقان إلى عمر بن الخطاب فحبسه مدة في المدينة .

في آل لاي وشهاس باكياس⁽²³⁾
والعيس تخرج من أعلام أوطاس⁽²⁴⁾
في بايس جاء يمدو آخر الناس⁽²⁵⁾

والله ، ما عشر لاموا أمراءً جنباً
علام كلفتني مجد ابن عمكم
ما كان ذنب بغيس ، لا أبالكم ،

(21) راجع المجاني الحديثة للأب شيخو والروائع للدكتور فؤاد البشان 1930 م .

(22) رووا أن زوجة الزبرقان خشيته أن يعشق زوجها ابنة الخطبوة وكانت جميلة ، فجعلت تسيء معاملته .

(23) الجنب : الغريب . لاي وشهاس من القبائل العربية . الأكياس جمع كيس : الطريف الفطن يقول : إن من لامي ، أنا الغريب ، على مدح آل لاي وشهاس فليس بكيس .

(24) أوطاس : واد بديار هوازن جنوبي مكة .

(25) البايس : أراد نفسه

يُوماً يجيء بها مسحي وأباسي⁽²⁹⁾
كما يكرون لكم متخي وامراسي⁽²⁷⁾
للخمس طال بها حسي وتنسي⁽²⁸⁾
كفارك كرهت ثوبى والبسى⁽²⁹⁾
ولم يكن لجراحى فيكم آسي⁽³⁰⁾
ولن ترى طارداً للحر كالباس⁽³¹⁾
فأصل بحربى سعداً ، أعلم الناس⁽³²⁾
وغادروه مقىماً بين أرماس⁽³³⁾
وجرحوه بأنباب وأضراس
واقعد ؛ فإنك أنت الطاعم الكامي⁽³⁴⁾
واحدج إليها بذى عركين قنعاش⁽³⁵⁾
والأكرمين أبا من آل شيماس !
لا يذهب العرف بين الله والناس⁽³⁶⁾
من آل لأى صفةً أصلها راسي⁽³⁷⁾

لقد دريتكم ، لو أن درتكم
وقد مدحتكم عمداً لارشدكم
وقد نظرتكم إعثاء صادرة
ما ملكت بأن كانت نفوسكم
لابدالي منكم غيب أنفسكم
أزمعت يأساً مبيناً من نوالكم
أنا ابن بجدتها علمًا وتجربة !
جار لقوم أطالوا هون منزله ،
ملوا قراه ، وهرته كلامهم
دع المكارم لا ترحل لبغيتها
وابعث يساراً إلى وفر مذمية ،
سيري ، أمام ، فإن الأكثرين حصى
من يفعل الخير لا ي عدم جوازه ،
ما كان ذنبي أن فلت معاولكم

(26) مرى الناقة : مع ضرعها تدر اللبن . الأباس : دعاء الناقة لسكن وندر . يقول : لقد دارتكم
ومدحتكم لتدرروا على بخير فائيتم .

(27) المدح - السقي بالأرماس . إني مدحتكم كي يكون لكم الفضل وحدكم بتخليصي والأنعام علي .

(28) الأعثاء : أن تمشي بعد الشرب . الصادرة : الراجعة من الشرب ، أراد بها الإبل الحمس : من إطماء
الإبل وهو أن ترعن ثلاثة أيام وترد الرابع . التنساس : السوق الشديد يقول : انتظرت خيركم كما يتضرر
الضيف عجيء الإبل الراجعة من الشرب .

(29) الفارك : المرأة التي تكره زوجها فتأبى السكن معه .

(30) لما ظهر لي ما كان غائباً في أنفسكم من البغض لي .

(31) أزمعت : صممت وعزمت ، والشطر الثاني من نوع إرسال المثل .

(32) أنا ابن بجدتها : يقال للعالم بالشيء المتقن له . ولهاء راجعة إلى الأرض .

(33) جار : أراد نفسه . المون : الذل . الأرماس : القبور أي غادروه كالميت .

(34) يخاطب الزيرقان فيقول له : حبك أن تأكل وتبليس ولا شأن لك في المكارم .

(35) يسار : عبد الزيرقان . أحدهج : أرحل . القنعاش : الصافطان تحت ابعطي
البعير . يريد أن يقول : ارسل عبدك يأتيك بالوطاب الضخمة وارحل إليها قبل هذا البعير .

(36) الجوازي : جمع جازية اسم مصدر للمجزاء . والبيت معروف مشهور . قال عمرو بن العلاء لم نقل
العرب بيتأقط أصدق من بيت الخطيبة ، الأغاني ج 3 ص 50 .

(37) فلت : ثلمت . الصفة : الصخرة الملساء والخطاب لأهل الزيرقان .

قد ناضلوك ، فسلوا من كنانتهم مجدًا تليداً ، ونبلاً غير انكاس !⁽³⁸⁾

المعاني الواردة في القصيدة :

اعتمد الخطابة في هذه القصيدة الصورة الحسية والكتابية اللطيفة لتمثيل المعنى وتجسيده ، وكما قالوا عنه كان من عبيد الشعر ، الذاهبين مذهب زهير ابن أبي سلمى .

في بداية القصيدة يظهر الشاعر هوانه حين قام في جوار الزبرقان فقال إنه باش جاه يحدو آخر الناس ، مشيرًا إلى زوجة الزبرقان التي تعمدت إيزاءه ، فلم ترد إليه السراحلة وقدم في الليل سعيًا على قدميه والأمير ارتحل على المطاييا ، وهذا مما يقدح بضيافته . فكانه يسبىء إليه أو أنه يعرض به كي يحمله على هجره . وقد تعمد كلمة (يحدو) للتدليل على الإرهاق الذي أصيب به .

وكما هو معروف عنه لا يجد غضاضة في أن يتذلل ، حتى أنه هجا نفسه عبر تلك الصورة ، وكان شيئاً لم يكن ، وقد وطد نفسه على الهوان ويات أمر كرامته رخيصاً مبتدلاً . والتعبير الصوري ماثل في معظم الأبيات :

فهو يت肯ى عن العطاء بمرو الناقة ليذر لبناها ، لأنه ربما شاهد كثيراً من يستدركون الناقة بمروها ومسحها وأبساصها . وهنا نجده يوجز المعنى بوجله بعضًا ببعض ، فتعمق في إبعاده ، وغدا مادة شعرية إيحائية ، فثمة المدوح والعطاء ، والناقة واللبن ، والخالب والشاعر الذي ألف بين هذه العناصر ، ومنحها اليقين الحسي مقتبساً الصورة من حياته الواقعية وخبراته الواقعية ؛ وهي خبرات ذات دلالات قائمة وظاهرة حتى البداهة . دلالات العطاء فيها يدر به ضرع الناقة تفيد معنى الرزق المباشر وهو بهذا يتخطى دلالة الظاهرة المادية إلى نطاق المرحلة الكبرى من الخلق الضئي . وقلما أدرك شعراء عصر الخطابة مرحلة الروحانية التي تستولي على المادة وتذيبها . وحسب الشاعر أنه وفق فكساً المعنى مجرد ظلأ فنياً رائعاً . فقال : « كيما يكون لكم متاحي وأمراسي » وقد استعار هنا من مشهد السقاء كما كان قد استعار من مشهد الإحتلال . ولقد ضمن التشبيه تضميناً وتجاوزاً به عن مرحلة المقابلة إلى مرحلة التوحيد حيث تتخذ مظاهر الوجود ماهيات أخرى لها الطابع النفسي والحسي في آن معاً ، فاختلط عنده واقع الإبل وواقع الكرم والعطاء ، وعدل عن الوصف الحسي فمثل الكره الذي كانوا يضمرون له بالمرأة الفارك التي لا تطبق الإقامة بجانب زوجها وتكره كل ما يتصل به . ولئن توسل الشاعر التشبيه فإن غايته

(38) انكاس : جمع نكس : أضعف الشهان .

التبه النفسي للعلاقات الإنسانية بين الأحياء ، وإقامة الشبه على الرواية التي تمجد اليقين وتنفذ إلى نفس القارئ .

وعبر القصيدة نجد الحروف تتألف في اللفظة الواحدة ، والألفاظ تتألف في البيت الواحد ، فالحروف المهموسة وسائل للامحاء لا يفطن إليها إلا الشاعر صاحب المحس المرهف المنتصت لوقعها . قال :

لابدالي فيكم غيب أنفسكم
ولم يكن بجرافي فيكم آسي
ازمعت يأساً مبيناً من نوالكم
ولن ترى طارداً للحر كالباس ا
نلمع لفظاً سلساً ووقداً رقيقاً ، حيث أدرك الشاعر أن في اللفظ يكمن المعنى ولكنـه ليس المعنى البارد ، بل الحـي المتـطور .

أما الحكمة التي نلمحها فقد وردت في سياق الحكمـة العامة ، والخطـيـة كما عـرفـ عنهـ منـ الشـعـراءـ التـعبـيرـيـنـ ، يـختـفـلـ بـأـداءـ الـمعـنىـ فـيـ حـلـةـ بـيـانـيـةـ شـائـقةـ . وـقـدـ عـاـيـشـ عـاهـتـهـ ، وـشـعـرـ بـجـراـحـهـ ، وـلـمـ يـتـجـاـزـهـ ، بـلـ أـقـامـتـ فـيـ جـسـدـهـ وـنـفـسـهـ وـنـسـبـهـ وـلـمـ تـسـطـورـ بـالـتأـمـلـ وـالـتـمـرـدـ ، كـماـ كـانـ دـأـبـ الشـنـفـريـ مـثـلاـ . لـهـذـاـ فـإـنـ حـدـيـثـهـ عـنـ الـحـرـيـةـ وـرـدـ فـيـ السـيـاقـ مـنـ بـابـ القـولـ وـالـحـجـةـ لـيـسـ إـلـاـ . وـلـاـ يـخـفـيـ أـنـ عـنـ الشـاعـرـ صـورـاـ مـعـبـرـةـ وـرـقـيقـةـ الـعـبـارـةـ تـؤـديـ الـمـعـنىـ فـيـ بـعـدـ الـإـنـفـعـالـيـ وـتـقـومـ فـيـ بـذـلـ الـمـعـنىـ مـتـسـامـيـاـ عـلـىـ دـفـعـاتـ . فـقـالـ :

جار لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مقبراً بين أرماس

وهـكـذـاـ نـلـمـعـ الـهـجـاءـ يـتـنـامـيـ عـنـدـهـ عـلـىـ درـجـاتـ بـسـوءـ الضـيـافـةـ فـيـقـولـ :

ملوا قـراهـ وـهـرـئـهـ كـلـاـبـمـ وجـرـحـوـهـ بـأـنـيـابـ وـأـضـرـاسـ
وـقـدـ تـطـورـ هـذـاـ هـجـاءـ مـنـذـ مـطـلـعـ القـصـيـدةـ حـتـىـ بـلـغـ مـرـمىـ بـعـيـداـ فـاعـتـمـدـ الشـاعـرـ
التـحلـيلـ النـفـسيـ ، حـيـنـ اـتـهـمـ الزـبـرـقـانـ بـالـخـمـولـ وـتـفـاهـةـ المـصـرـ ، فـكـانـ هـمـهـ الطـعـامـ
وـالـلـبـاسـ ، فـإـذـاـ نـاهـمـاـ اـكـتـفـيـ عـنـ السـعـيـ وـالـإـرـتـحـالـ طـلـبـاـ لـلـتـقـدـمـ وـالـعـلـ . فـهـوـ كـماـ قـيلـ
لـاـ يـأـكـلـ لـيـعـيشـ وـلـاـ يـعـيشـ لـيـأـكـلـ . وـهـذـاـ النـقـدـ الـلـاذـعـ مـقـبـيسـ مـنـ وـاقـعـ النـفـسـيـ الـعـرـبـيـةـ
الـقـيـ لاـ تـرـىـ أـبـدـاـ غـايـةـ الـوـجـودـ فـيـ الشـبـعـ وـالـرـيـ كـماـ هوـ مـصـيرـ الـبـهـائـمـ ، بـلـ فـيـ التـعـرـضـ
لـلـصـعـابـ حـتـىـ يـتـفـوقـ الـإـنـسـانـ بـتـخـطـيـهـ حـوـاجـزـ الـبـشـرـ الـعـادـيـةـ إـنـ تـجـربـةـ الـخـطـيـةـ مـسـتـمـدةـ مـنـ
وـاقـعـ الـبـيـئةـ الـعـرـبـيـةـ وـمـفـهـومـ الـوـجـودـ الـعـرـبـيـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ لـيـحـفـلـ بـهـ ، إـذـ كـانـ نـفـسـهـ
رـخـيـصـةـ جـداـ تـرـضـيـ بـوـاقـعـ الـهـونـ وـكـانـ الشـابـيـ يـقـصـدـهـ بـقـولـهـ :

وـمـنـ يـتـهـيـبـ صـعـودـ الجـبالـ يـعـشـ أـبـدـ الدـهـرـ بـيـنـ الـحـفـرـ

ثم يتبع المجاء صعداً فيخاطب الزبرقان فيقول معاذًا عتاباً رقيقاً :
 من يفعل الخير لا يعدم جوازه لا يذهب العرف بين الله والناس
 يقول إذا كنت لا تستحق خيركم وعطاءكم ، فعمل الخير عرف واجب عند العرب
 الكرام ، وإذا كان الإنسان من ينكرون الفضل والله لا يضيع أجر المحسنين .

وأخيراً يخاطب أهل الزبرقان فيقول : إذا كانت معاولكم قد ضعفت وقلت
 فالذنب ذنبكم وليس ذنبي ، وأين أنت من آل لأي الكرام الذين ناضلوا معكم
 وأكسبوكم مجدًا تليداً تنعمون به اليوم ؟

وله قصيدة في مدح بني أنف الناقة
 بدأها بالغزل ، على الطريقة التقليدية المعروفة ، ثم ذكر سفره في البرية على
 الناقة ، فصادف الذئب الذي رافقه في البرية المفقرة ، ومن بعده ، وصف جزعه من
 الفقر ثم تخلص إلى ذكر المدوحين . قال :
 طافت أمامة بالركبان آونة يا حسنـه من قـوم ما وـمـتـقـبـاـ (39)

* * *

إذا السراب عـلـ صـحـرـائـها اـضـطـرـابـاـ (40)
 ويـصـبـعـ المرـءـ فـيهـ نـاعـسـاـ وـصـبـاـ (41)

* * *

عـدوـ الـقـرـيـنـينـ فـيـ آـثـارـنـاـ خـبـيـاـ (42)
 إـنـ العـزـاءـ وـإـنـ الصـبـرـ قـدـ غـلـبـاـ !
 مـالـأـ فـيـكـنـتـناـ بـالـخـرـجـ ،ـ أوـ نـشـبـاـ ! (43)
 مـنـ آلـ لـأـيـ ،ـ وـكـانـواـ سـادـةـ نـجـبـاـ (44)

وـبـلـدـةـ جـبـتـهـاـ وـحـدـيـ بـيـعـمـلـةـ
 بـحـيـثـ يـنـسـىـ زـمـامـ العـنـسـ رـاكـبـهـاـ

وـالـذـئـبـ يـطـرقـنـاـ ،ـ فـيـ كـلـ مـنـزـلـةـ
 قـالـتـ أـمـامـةـ :ـ لـاـ تـجـزـعـ !ـ فـقـلـتـ لـهـ
 هـلـاـ التـمـسـتـ لـنـاـ ،ـ إـنـ كـنـتـ صـادـقـةـ ،ـ
 حـقـ نـجـازـيـ أـقـوـامـ بـسـعـيـهـمـ

(39) أمامة اسم المرأة التي يشبه بها . ما : صلة ما أحسن قوامها . متقبها : وجهها .

(40) البعلمة : الناقة القوية المترنة على السير .

(41) العنـسـ : النـاقـةـ الشـدـيدـةـ .ـ الـوصـبـ :ـ التـعـبـ الشـدـيدـ .

(42) القرـيـنـانـ :ـ الـبـعـرـانـ يـرـبـطـانـ مـعـاـ بـحـلـ وـاحـدـ .ـ يـرـيدـ أـنـ الذـئـبـ كـانـ يـتـبعـنـاـ فـيـ اللـيلـ حـقـ كـانـهـ مـقـرـونـ بـنـاـ ،ـ لـعـلـ أـحـدـنـاـ يـسـقطـ فـيـ فـتـرـسـهـ .

(43) الخـرـجـ :ـ وـادـ بـدـيـارـ بـقـيـ ثـيـمـ .

(44) آلـ لـأـيـ :ـ قـوـمـ شـمـاسـ مـنـ بـنـيـ أـنـفـ النـاقـةـ .

ولن يبيت سواهم حلمهم عزبا⁽⁴⁵⁾
لولا الإله ، ولولا عطفهم عطبا⁽⁴⁴⁾
لولا الإله ، ولولا سعيهم ذهبا⁽⁴⁶⁾
إذا لوى بقوى أطنا بهم طبار⁽⁴⁷⁾
شدوا العجاج ، وشدوا فوقه الكربا⁽⁴⁷⁾
ومن يسوى بأنف الناقة الذنبـا!
في بائس جاء يحدو أبنـقا شـسبـا⁽⁴⁸⁾
عيشـا ، وقد كان ذاق الموت ، أو كربـا!
ألقـاه قـوم دـنـاه ضـيـعوا الحـسـبـا⁽⁴⁹⁾
لـوـلـم تـغـثـهـ ، ثـوـيـ في قـعـرـها حـقـبـا

لم يعدمـوا رـائـحـا من إـرـثـ مجـدهـمـ
رـدـوا عـلـ جـارـ مـوـلامـ بـهـلـكـةـ
فـوـفـرـوا مـالـهـ من فـضـلـ مـاـلـهـمـ،ـ
قـومـ يـبـيـتـ قـرـيرـ العـيـنـ جـارـهـمـ،ـ
قـومـ إـذـا عـقـدـوا عـقـدـاـ لـجـارـهـمـ
قـومـ هـمـ الأـنـفـ ،ـ والأـذـبـابـ دونـهـمـ
ماـكـانـ ذـنـبـ بـغـيـضـ ،ـ لـأـبـاـ لـكـمـ!ـ
ماـكـانـ ذـنـبـكـ فيـ جـارـ جـعـلـتـ لـهـ
جـارـ أـنـفـتـ لـعـوـفـ أـنـ تـسـبـ بـهـ،ـ
أـخـرـجـتـ جـارـهـمـ منـ قـعـرـ مـظـلـمـةـ

وله قصيدة في هجاء ضيف

من عادة الخطيبة أن يهجو أضيفـهـ ،ـ لـذـلـكـ كـانـ النـاسـ يـتـجـبـونـ أـنـ يـتـزـلـواـ بـهـ ،ـ
وـكـانـ أـنـ نـزـلـ بـهـ يـوـمـاـ رـجـلـ مـنـ بـنـيـ أـسـدـ اـسـمـهـ صـخـرـ فـقـرـاهـ ثـمـ هـجـاهـ ،ـ بـعـدـ ذـهـابـهـ فـقـالـ :ـ
لـأـرـأـيـتـ أـنـ مـاـ يـبـتـغـيـ القرـىـ ،ـ
شـدـدـتـ حـبـازـيمـ اـبـنـ أـعـيـ بـشـرـيـةـ
وـمـاـكـنـتـ مـثـلـ الـكـاهـلـيـ وـعـرـسـهـ!

(45) يقول : إن مجدهم الموروث لازم لهم لا يفارقـهمـ كالـمـلـاـشـيـ الـقـيـ تـغـدوـ وـتـرـوحـ إـلـىـ أـهـلـهـاـ وـإـنـ أـحـلـمـهـمـ وـرـزـانـهـمـ
وـسـعـةـ عـقـوـمـ مـلـازـمـهـ لـمـ أـيـضاـ فـلاـ يـسـتـخـفـهـمـ الجـهـلـ .

(46) مـوـلامـ :ـ الزـبـرـقـانـ .ـ وجـارـهـ :ـ الـخـطـيـبـ الـذـيـ اـسـتـقـلـوـهـ مـنـ الـهـلـكـةـ فـيـ جـوـارـ الزـبـرـقـانـ .

(47) العـجاجـ :ـ عـرـوةـ تـجـمـعـ فـيـ أـسـفـ الدـلـلـ يـشـدـ بـهـ الـحـبـلـ .ـ الـكـرـبـ :ـ الـعـيـدـانـ الـقـيـ تـرـيـطـ عـلـ شـكـلـ صـلـيـبـ ،ـ
يعـنيـ :ـ الـمـبـالـغـةـ فـيـ الـمـحـافـظـةـ عـلـ الـعـهـدـ وـوـنـاقـهـ رـيـاطـهـ .

(48) بـغـيـضـ :ـ اـبـنـ شـيـاسـ .ـ أـحـدـ بـنـيـ أـنـفـ النـاقـةـ الـمـوـقـدـيـنـ إـلـىـ الـخـطـيـبـ .ـ الـبـائـسـ :ـ الـخـطـيـبـ نـفـسـهـ شـبـاجـ .ـ
شـاسـبـةـ :ـ الـمـهـزـوـلـةـ .

(49) عـوـفـ :ـ جـدـ أـنـفـ النـاقـةـ .

(50) ماـ :ـ أـيـ الـذـيـ .ـ القرـىـ :ـ فـيـ مـوـضـعـ الرـفـعـ خـبـرـانـ .

(51) حـبـازـيمـ :ـ جـمـعـ حـيـزـوـمـ ،ـ وـسـطـ الصـدرـ ،ـ الـبـطـنـ ،ـ ضـلـعـ الـقـلـبـ ،ـ ماـ اـكـتـفـ الـخـلـقـوـمـ مـنـ جـانـبـ الصـدرـ .ـ
الـجـوـانـعـ :ـ الـضـلـوـعـ .ـ أـصـوـلـهـاـ :ـ أـيـ مـلـاتـ جـوـفـهـ .

(52) الـكـاهـلـيـ :ـ رـجـلـ مـنـ بـنـيـ كـاهـلـ بـنـ أـسـدـ ،ـ كـانـ اـمـرـأـهـ تـبـغـضـهـ ،ـ فـاحـتـالـتـ لـهـ حـقـ سـقـتـهـ سـيـاـقـهـاتـ .ـ يـقـولـ :ـ
أـيـ أـكـرـمـتـ اـبـنـ أـعـيـ وـلـمـ أـكـنـ كـامـرـأـ الـكـاهـلـ لـزـوـجـهـاـ ،ـ أـيـ لـمـ اـسـقـهـ سـيـاـ .ـ مـطـرـوـفـةـ الـعـيـنـ :ـ أـيـ كـانـ عـيـنـيـهاـ
طـرـفـتـ ،ـ فـلـاـ تـمـلـأـهـاـ مـنـ وـجـهـهـ بـعـضـاـلـهـ .

وغابت له غريب ارمي ، غير ناصح⁽⁵³⁾
ولا يغتدي إلا على حد بارح⁽⁵⁴⁾
سقته ، على لوح ، دماء الذرارح⁽⁵⁵⁾
ولم يدر ما خاخصت له بالمجادح⁽⁵⁶⁾
وهان بهذا غرماً على كف جارح⁽⁵⁷⁾

على كل ضيف صافه هو سانح⁽⁵⁸⁾
الا كل كلب ، لا أبالك نابع
الا كل عبي على الزاد شائع⁽⁵⁹⁾

كفتك المرة الأولى السلاما!
لما قد نال من شبع ، وناما⁽⁶⁰⁾

وللقاك العقوق من البنينا!
أراح الله منك العالمينا!
ولكن لا إخالك تعقلينا⁽⁶¹⁾
وكانونا على المتحدثينا!⁽⁶²⁾
وموتك قد يسر الصالحين

غداً باغياً يبغى رضا ودهما
دعت ريهما إلا يزال بحاجة ،
فلما رأت إلا يجرب دعاءها ،
وقالت : «شراب بارد فاشربني»
فشدّ بهذا خزيناً على ذي حفيظة!

ولما سمعه صخر بن أعيار د قالاً :
ألا قُبْح الله الحطيشة ! إنه
دفعت إليه ، وهو يخنق كلبه ،
بكى على مَذْق خبب قريته ؛

وقال أيضاً في هجاء ضيف آخر :
وسلم مرتين ؛ فقلت : «مهلاً
ونقنق بطنه ، ودعا رؤاساً

وقال في هجاء أمه :
جزاك الله شرًا من عجوزا
تنحى ، فاجلس مني بعيداً ،
لم أظهر لك البغضاء مني ؟
أغرباً إذا استودعت سراً !
حياتك ، ما علمت ، حياة سوء ؛

(53) غابت له : أضمرت له .

(54) البارح : ما من الطير والوحش من اليمين إلى اليسار ، والعرب يشامون به .

(55) اللوح : العطش ، ذرارح : جمع ذراح وهي دويبة حراء منقطة بسواط وهي من السموم .

(56) المجادح : جمع المجادح : خثبة في رأسها شعبتان يمدد بها السوين واللبن أي يخلط .

(57) يقول : ما أشد هذا الفعل على ذي الغضب وما أهون غرمه على الجارح .

(58) سانح : من ستح عليه : أحرجه وأصابه بشر .

(59) المذق : المخلوط بالماء .. شائع : حلز .

(60) تفتق بطنه : قرق . يزيد أنه لما شبع فرق بطنه ، وصالح : بالبني روأس وهو حي من كلاب .

(61) لم يرد هذا البيت في الديوان ، لكنني وجذته عند ابن قتيبة ص 182 .

(62) الغربال : يقصد به النعام . الكانون : الثقيل من الناس .

وقال في هجاء زوج أمه :

لحاك الله ثم لحاك حقاً
نعم الشیخ أنت، لدى المخازی؛
أبا! ولحاك من عم وحال!
وبش الشیخ أنت، لدى المعالی!
جئت اللوم، لا حیاك ربی!
وابواب السفاهة والفضلال

وقال في هجاء نفسه ! خرج يوماً وقد هاجته الرغبة في الهجاء ، فقال :
أبیت شفتای الیوم إلا تکلماً بسوء؛ فما ادری ممن أنا قائله!

فلم ير أحداً ، وبينها هو في الطريق أطل على بشر فرأى صورته ، فقال :
أرى لي وجهًا شوء الله خلقه فقبح من وجهه، وقبح حامله!



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com رابط بديل

فهرس المصادر والمراجع

- 1 - القرآن الكريم .
- 2 - أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير القاهرة 1286 هـ .
- 3 - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني القاهرة 1939 م .
- 4 - إعجاز القرآن للرافعي .
- 5 - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني دار الكتب المصرية .
- 6 - أصول النقد الأدبي للدكتور أحمد الشايب .
- 7 - أمالي المرتضى ط . الحلبي - مصر 1954 .
افتضالات الصراط المستقيم لابن تيمية القاهرة .
- 8 - بيان إعجاز القرآن للخطابي .
- 9 - البيان والتبيين الجاحظ ط الحلبي مصر 1945 .
- 10 - تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي د . شوقي ضيف دار المعارف مصر .
- 11 - تاريخ الأدب العربي د . عمر فروخ دار العلم للملايين بيروت .
- 12 - تاريخ الأدب العربي للمشرق الفرنسي نالينو .
- 13 - تاريخ دمشق لابن عساكر .
- 14 - تاريخ الطبرى دار المعارف بمصر 1964 م .
- 15 - تفسير الزمخشري .
- 16 - تقىيد العلم للخطيب البغدادى دمشق 1949 .
- 17 - حدیث الأربعاء د . طه حسين .
- 18 - الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام د . خفاجي دار الكتاب اللبناني بيروت .
- 19 - الحيوان الجاحظ ط . الحلبي 1945 .

- 20 - ديوان حسان بن ثابت الانصاري .
- 21 - ديوان النابغة الجعدي .
- 22 - رسالة الغفران لأبي العلاء المعري .
- 22 - السيرة النبوية لابن هشام ط . الحلبى 1955 .
- 24 - الشعر والشعراء لابن قتيبة دار المعارف مصر 1967 .
- 25 - صحيح البخاري المطبعة الخيرية بمصر 1320 هـ .
- 26 - صحيح مسلم دار الطباعة العامة 1332 هـ .
- 27 - طبقات الشعراء ابن سلام الجمحي .
- 28 - الطبقات الكبرى لابن سعد ليدن 1925 م .
- 29 - العقد الفريد لابن عبد ربه لجنة التأليف والترجمة والنشر 1950 م .
- 30 - علم الاجتماع الأدبي د . حسين الحاج حسن المؤسسة الجامعية بيروت 1983 م .
- 31 - العمدة لابن رشيق القمي دار السعادة مصر 1955 م .
- 32 - القاموس المحيط الفيروز آبادي 1301 هـ .
- 33 - المجازات النبوية الشريف الرضي المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو المطبعة الكاثوليكية بيروت 1951 م .
- 34 - المثل السائر لابن الأثير مطبعة نهضة مصر 1962 م .
- 35 - المزهر للسيوطى ط . الحلبى .
- 36 - مسند الإمام أحمد القاهرة 1313 هـ .
- 37 - المفصل في تاريخ العرب د . جواد علي دار العلم للملايين بيروت .
- 38 - المقدمة لابن خلدون القاهرة 1322 هـ .
- 39 - نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب .
نجو وعي لغوي د . مازن مبارك ، جامعة دمشق .
- 40 - الوزراء الكتاب للجهشياري .

صرح المؤلف

- 1 - علم الاجتماع الأدبي - المؤسسة الجامعية ط أولى 1983 .
- 2 - علم الاجتماع الأدبي - المؤسسة الجامعية ط ثانية 1986 .
- 3 - علم الاجتماع الأدبي - المؤسسة الجامعية ط ثلاثة 1990 .
- 4 - أدب العرب في عصر الجاهلية - المؤسسة الجامعية ط أولى 1984 .
- 5 - أدب العرب في عصر الجاهلية - المؤسسة الجامعية ط ثانية 1990 .
- 6 - حضارة العرب في الجاهلية - المؤسسة الجامعية ط أولى 1984 .
- 7 - حضارة العرب في الجاهلية - المؤسسة الجامعية ط ثانية 1990 .
- 8 - أعلام في العصر العباسي - المؤسسة الجامعية ط أولى 1985 .
- 9 - نظم إسلامية - المؤسسة الجامعية ط أولى 1987 .
- 10 - نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراسة - مؤسسة الوفاء 1986 .
- 11 - الأسطورة عند العرب في الجاهلية - المؤسسة الجامعية 1988 .
- 12 - حضارة العرب في صدر الإسلام - المؤسسة الجامعية 1992 .
- 13 - أدب العرب في صدر الإسلام - المؤسسة الجامعية 1992 .



فهرس

الموضوع	الصفحة
الأهداء	5
تصدير	7
تهيد	9
الفصل الأول : ما الغاية من قيام دولة إسلامية	13
الفصل الثاني : القرآن الكريم	33
بعض أسراره ومزاياه	40
بلاغة القرآن الكريم	46
الفصل الثالث : القرآن والشعر	58
أثر القرآن في الأدب واللغة والعلوم	65
دعوة الإسلام إلى الأخذ بالأصول التالية	69
القرآن الكريم يدعو المؤمنين إلى الاتحاد	72
موقف الإسلام من الشعر	78
أغراض الشعر في صدر الإسلام	80
الفصل الرابع : الحديث النبوي	91
خصائص البلاغة النبوية	96
خصائص الأسلوب النبوي	99
الفصل الخامس : النثر في عصر صدر الإسلام	105
خطابة الرسول	110
خطابة الخلفاء الراشدين	116

123	صدر الإسلام : عصر الخطابة الذهبية
125	الكتابة في صدر الإسلام
133	الوصايا
134	وصية عمر بن الخطاب
145	معاوية بن أبي سفيان
145	وصية علي بن أبي طالب
142	وصية زياد بن أبيه
145	الفصل السادس : شعراء صدر الإسلام
145	حسان بن ثابت
158	النابغة الجعدي
162	الخطيبية
171	فهرس المصادر والمراجع

